

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا - من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له - وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس بعوسا جهالا فاسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » كذا في المشكاة . .

وقال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه « طريق الهجرتين وباب السعادتين » حين بين مراتب الناس في الدار الآخرة وطبقاتهم وجعلهم ثمانية عشر طبقة فجعل في الطبقة الأولى المصطفين من الرسل وفي الثانية من عداهم من رسل الله وفي الثالثة عامة الأنبياء عليهم السلام ثم قال ما نصه :

الطبقة الرابعة : ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم وهم القائمون بما بعثوا به علما وعملا ودعوة للخلق الى الله على طريقهم ومنهاجهم وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة وهي مرتبة الصديقية ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء فقال تعالى « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة وهؤلاء هم الرافضيون وهم الراسخون في العلم وهم الوسائط بين الرسول وأمتهم فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه وهم المضمون لهم انهم لا يزالون على الحق

لا يغيرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك . . وهؤلاء هم المدول حقا بتعديل رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم اذ يقول فيما يروى عنه من وجوه شد بعضها بعضا ((يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)) وما أحسن ما قال فيهم الامام أحمد في خطبة كتابه في الرد على الجهمية : الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الاذى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكهم من قتيل لابليس قد أحيوه ومن ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وذكر ابن وضاح هذا الكلام عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . .

وشيخنا العلامة الكبير والمحدث الجليل الامام العارف الجامع لعلوم الشريعة الغراء وحقائق الطريقة الشهباء الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى ثم المدنى حفظه الله ونفعنا والمسلمين به أحد هذه البقية الباقية من العلماء العاملين المتقين عندما رأى الفتن كقطع الليل المظلم على هذه الأمة التى مترك الباطل شرقيه وغربية ثانية الا وهو يكيد لها بالفساد والانحراف فى عقائدها وأصولها وفروعها بل وان تمنع المؤمن فى ذلك تبيين له أن شياطين الباطل لم يدعوا شيئا الا وكادوا للمسلمين فيه كيذا . خفيا أو جليا ، ولكن الله الذى أراد لهذا الدين الحنيف البقاء والازدهار . والانتشار فى أنحاء المعمورة أوجد سبحانه وتعالى له رجالا تفتانوا فى حفظ كل صغيرة وكبيرة فيه وضحوا بالغالى والنفيس من أجل أصغر شعيرة من شعائره .

فالفتن كثيرة وحملات الباطل متنوعة ولكن من أعظمها أثرا فى المتدينين خاصة اثنتان :

احداها : نزع الحب والولاء الفكرى عن السلف الصالح وذلك فى الدرجة الأولى عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى الدرجة الثانية عن أئمة الهدى الأئمة الفقهاء المجتهدين المتبوعين الذين بذلوا الجهود العظيمة لتنقيح الأحكام الشرعية وحفظها للأمة التى أجمعت دائما على مختلف عصورها سلفا وخلفا على ثقافتهم واخلاصهم وعلو باعهم وكمالهم العلمى والتحقيقى فى هذا الشأن .

وثانيها : ايجاد البلبلة الفكرية عن الناحية الروحانية والسلوك في الاسلام واتهام الكاملين العارفين المتقين فيه بأنهم طبقة لا علاقة لها بالاسلام وان كانت لها علاقة فالاسلام لا علاقة له بهذه الروحانيات والأخلاق والصفات الباطنة الشريفة .

وللحصول على مقاصدهم الخسيسة لجأوا الى شعارات ظاهر الفاظها يدل على أنهم مخلصون للاسلام وأهله فانخدعت بهم أقوام لا رسوخ لهم في العلم والايمان وعم المنكر حتى ابتلى به رجال لهم مكانات مرموقة في المجتمعات الاسلامية وبعضهم له يد طولى في الكتابة والتحرير فخدع بتحريره وكتابات السذج أصحاب العقول الضيقة والمتأثرين بالثقافة الشرقية أو الغربية الكافرة - فتارة رفعوا شعار نزاهة الاسلام وعدله وكماله وهجموا على صحابة سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه وتراهم يطعنون في هذا ويجرحون ذلك يتهمون هذا بالخيانة في بيت مال المسلمين وذلك بأنه كان يتعصب لقومه وقبيلته دون أمر ربه ويتقولون على آخر أنه انغمس في الشهوات وقلع الاسلام من أصله الى غير ذلك من الوقاحة والبجاجة التي لا يرتضيها رجل عامى على نفسه وتناسوا ((أخزاهم الله)) أن الشارع الكريم صلى الله عليه وسلم قد نهى عن ذلك أشد النهى وقد علم السلف رحمهم الله بخطر هذه الفتنة الدهماء التي تهدم الاسلام من أصوله فأنكروها بعبارات شديدة بسطت في مواقعها . وقد قال الحافظ الذهبي رحمه الله في الكبائر بعد نقل بعض ذلك ((فمن طعن فيهم [أى الصحابة] أو سبهم فقد خرج من الدين ومرق من ملة المسلمين لأن الطعن لا يكون الا عن اعتقاد مساويهم واضمار الحقد فيهم وانكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم وما لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبهم ولأنهم أرضى الوسائل من الماثور والوسائط من المنقول والطعن في الوسائط طعن في الأصل والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول هذا ظاهر لمن تدبره وسلم من النفاق ومن الزندقة والاتحاد في عقيدته وحسبك ما جاء في الأخبار والآثار من ذلك)) انتهى .

فعافانا الله يا أخى وحفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن بفضلته وكرمه ثم تجد من هؤلاء المغترين أناس رفعوا شعار الولاء للرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية وأدعوا محبتها ثم حملوا معول ((الشرك في الرسالة)) وأخذوا يكسرون به رؤوس أئمة الاسلام الفقهاء المجتهدين الذين أطبقت الأمة على اكرامهم وحسن الظن بهم وعلى أنهم ما جاءوا أبدا بشيء في الأحكام من عندهم وإنما التزموا في جميع أمورهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه

وسلم ولم يختلف اثنان يوما في نزاهة هؤلاء السادة الاتقياء وما زالت جماعات العلماء الأعلام من المحدثين والمفسرين والفقهاء والمؤرخين والعارفين تعتز بالانتساب اليهم والاستفادة من اجتهاداتهم واستنباطاتهم البديعة من ذلك الحين الى يومنا هذا معتقدين أنهم انما جاءوا به هو ما هو الا توضيح وشرح وتبسيط وتنقيح لما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأنه لا يجوز الاجتهاد أبدا لمن لم تتوفر فيه الشروط التي حددها العلماء الراغبون له . وهكذا تجد هؤلاء السفهاء في الميدان الآخر رموا الكاملين من العارفين بالله بما هم منه برآء فبحجة التمسك بالسنة أحيانا وبحجة تنقية الاسلام من الشوائب أحيانا وبحجج أخرى كثيرة هجموا على السلوك والاحسان بل وعلى كل جزء من أجزائه وعلى كل رجل من رجاله بل وحتى على مصطلحاتهم فطعنوا في كل صغيرة وكبيرة مدعين أنه لا علاقة لها بالاسلام الخ . .

ويعجب المسلم من هذا وكيف أن هذه الدعاية انتشرت وراجت مع أننا لا نعلم عظيمًا من عظماء الاسلام من السلف الى يومنا الا ونرى أنه كان يقر السلوك الاسلامي المعروف بالتصوف في مصطلح القوم ولم نر عالما رفيعا أقرت له الرجال بالفضل الا وهو يعتز بالانتساب الى طريق من هذه الطرق ولواء محبة الا النادر والنادر كالمعتوم .

لقد لاحظ شيخنا كل هذا منذ بصره في العالم الفتنة المتألم لحال الأمة وما سألت اليه فاستخار ربه واستعان به وبدأ على ما يلهمه الباري العظيم الخير في رد هذه الفتنة الظلماء باللغة الأردوية فيبين بالأدلة القاطعة عدالة الصحابة وثقاتهم ووجوب محبتهم واکرامهم والاجتناب والحذر من الطعن فيهم أو اساءة الأدب معهم رضي الله عنهم أجمعين وأن تقليد الأئمة الفقهاء المتبوعين حق ولا حرج فيه بل انه واجب في حق من لم تتوفر فيه شروط الاجتهاد وهو ما كان عليه السلف والخلف وليس فيهم أي دخل قطعا للشرك في الرسالة وإنما هو لتحقيق الاتقياء التام والولاء الكامل لصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم وبدون التقليد لأئمة الهدى يصعب ذلك حتى على الخاصة وأما العامة الجهلة فمستحيل في حقهم ذلك .

وبين بالحجج القطعية ان التصوف جزء لا يتجزأ من الدين المتين كبقية أجزائه من العقائد والعبادات والمعاملات وغيرها وان أصوله ومبادئه أيضا تستنبط من ((القرآن والسنة والجماع والقياس)) كبقية شعب الدين وأنه ما هو الا ((الاحسان)) الثابت في الأحاديث الشريفة ((والتزكية)) الواردة

في كتاب الله عز وجل في الآيات الكثيرة - وأن هناك تلازم لابدى وحتمى بين الشريعة والطريقة ولا منافاة أبدا بينهما وأنهما كفصنين لشجرة واحدة إلا أن الطريقة خادمة للشريعة والشريعة حاكمة عليها فقد أمرنا بوضع الأشياء مواضعها إلى آخر ذلك من الأبحاث البديعة النفيسة التي سيتمتع بها القارئ في هذا المؤلف القيم ان شاء الله .

ونشرت هذه الرسالة في بلاد الهند وباكستان وبنغلاديش باللغة الأردوية وهي لغة المسلمين الثقافية فيها ورزق الله القبول لمؤلفه هذا في تلك الديار وطبعت لها طبعات عديدة في زمن قصير حال غالب مؤلفاته حفظه الله .

ثم رأى هذا الفقير المذنب في ليلة من الليالي المباركة وكأنه في مجلس سيد السادات صلى الله عليه وسلم وقد عرضت عليه بعض مؤلفات شيخنا فأخذ يتصفحها وقد أعجبه كلها ثم توجه صلى الله عليه وسلم إلى هذا الفقير وأشار إلى هذا الكتاب بالذات ((الشريعة والطريقة)) وأمره بترجمته إلى اللغة العربية وبما أن أمره الكريم صلى الله عليه وسلم ما كان ولم يكن ليرد لذلك بدأت في العمل فوراً ولكن انشغال هذا المقصر دائماً في أمور كثيرة حال دون إتمام هذه الترجمة إلى اليوم وبما أنه قد حان الآن وقت الفراغ منها ان شاء الله في القريب العاجل أردت أن أحرر هذه المقدمة وقد يسر الله لي المولى الكريم جل شأنه أن يكون تحريرها بالروضة الشريفة في المسجد النبوي المبارك ليلة الأربعاء الموافق ١٣٩٩/٦/٢٧ هـ

وقد أضفت بالهامش باختصار تراجم كبار علماء الهند حين ورود ذكرهم في كلام المؤلف حفظه الله . . أرجو منه سبحانه وتعالى أن يجعل هذه الترجمة مفيدة ومباركة للمترجم والقارئ وأن ينفع بها جميع المسلمين كما نفع بأصلها والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . .

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وارنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .
وصلى الله تعالى على خير خلقه وصفوة رسله سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلم تسليماً والحمد لله أولاً وآخراً . .

المترجم

عبد الحفيظ بن ملك عبد الحق

٢٧ / ٦ / ١٣٩٩ هـ . .

المدينة المنورة . .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حامداً ومصلياً ومسلماً ..

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم فان ولادة هذا المقصر كانت في الحادى عشر من رمضان عام خمسة عشر وثلاثائة بعد الألف في الساعة الحادية عشر ليلا بقرية كاندهلة في بيت زوجة جد والدتى « من أمها » وكانت تدعى بـ (أما مريم) وكانت امرأة عابدة زاهدة كريمة .

فأتى اليها أكابر العائلة بعد صلاة التراويح قبل المراح الى منازلهم وهنئوها ثم طالبوا بالحلوى - فأمرت باحضار حلوى كثيرة لسخائها وجودها وقسمتها بين المهنيين حسب مراتبهم وحدث بذلك فرح ومرح وصياح هادىء لطيف .

وكاندهلة هذه قرية كبيرة تقع في مديرية « مظفر نكر » . وكانت في تلك الأيام « دواآبه » مأوى الشريعة والطريقة كليهما ومخزنهما وكلمة « دواآبة » اصطلاح كان مشهورا في السابق ومعروف اليوم أيضا - وقد وردت هذه الكلمة في كلام أكابرنا كثيرا .

وهذه المنطقة تشمل مديريات « دلهى وميرت ومظفر نكر وسهارةنبور » ويقال لها « دواآبه » أى « منطقة المائين » لأن في الغرب من هذه المنطقة يوجد نهر « جمنا » وفي الشرق منها نهر « الكنج » وهما نهران معروفان .

وقد اشتهرت هذه المنطقة بأنها مخزن ومرجع ومأوى للشريعة والطريقة كليهما بصورة خاصة . كان بداية ذلك بأسرة الامام الجليل

الشيخ أحمد بن عبد الرحيم^(١) ولي الله الدهلوي المحدث المشهور - وأما
الفيضان العام فكان بواسطة أصحاب وخلفاء الشيخ الكبير العارف الكامل

(١) قال عنه العلامة الشريف عبد الحى بن فخر الدين الحسنى (وهو
والد الشيخ أبى الحسن الندوى - الحسنى) فى نزهة الخواطر فى الجزء
السادس منه ص ٣٩٨ « الشيخ الامام الهمام حجة الله بين الأنام امام
الأئمة قدوة الأمة علامة العلماء وارث الأنبياء آخر المجتهدين أوحد علماء
الدين زعيم المتضلعين بحمل أعباء الشرع المتين محيى السنة ومن عظمت به
لله علينا المنة شيخ الاسلام قطب الدين أحمد ولي الله بن عبد الرحيم بن
وجيه الدين العمري الدهلوي . . ثم قال « ولد يوم - الأربعاء - لأربع عشرة
أخرون من شوال سنة أربع عشرة - ومائة - وألف فى أيام عالمكير - ثم بسط فى
أحوال طلبه العلم واجتهاده وذكر أساتذته ومشايخه ورحلته الى الحرمين
الشريفيين وتلمذه على الشيخ أبى طاهر محمد بن ابراهيم الكردي المدنى
بالمدينة المنورة وتلقيه منه أمهات الكتب الحديثية بعضها قراءة وبعضها
سماعا ووروده بمكة المكرمة وأخذ الموطأ عن الشيخ وفد الله المالكى المكي
وحضوره دروس الشيخ تاج الدين القلى المكى وأخذه الإجازة عنه لسياثر
الكتب وأخذه عنه الحديث المسلسل بالأولية عن الشيخ ابراهيم بن الحسن
المدنى وهو أول حديث سمع منه بعد عودته من زيارة للنبي صلى الله عليه
وسلم وقال ثم عاد الى الهند سنة خمس وأربعين ومائة وألف .

ثم قال صاحب النزهة « ومن نعم الله عليه : انه خصه بعلوم لم يشرك
معه فيها غيره والتي اشرك فيها معه غيره من سائر الأئمة كثيرة لا يحصيها
البيان ونحن نذكر قليلا من ذلك الكثير حسبما ذكرها محسن بن يحيى
الترهتى فى « اليانع الجنى » : -

منها ما أكرمه الله تعالى به من الفصاحة فى اللغة العربية والربط الخاص
بالفنون الأدبية فى النظم والنثر كأنما الإعجاز أو السحر من رقة اللفظ
ومعناه وصفاء المورد ومعناه .

ومنها علوم الفقه على المذاهب الأربعة وأصحابهم والاطلاع على مأخذ
المسائل ومنازع الحجج والدلائل .

ومنها علم الحديث والآثر مع حفظ المتن وضبط الأسانيد والمنظر فى
دواوين المجاميع والمسانيد ولم يتفق لأحد قبله ممن كان يعتنى بهذا العلم
من أهل قطره ما اتفق له من رواية الأثر واشاعته فى الأكناف البعيدة .
ومنها علم تفسير القرآن وتأويل كتاب الله العزيز فمن نظر فى كتبه شهد
بتوفر حظه منه .

ومنها أصول هذه العلوم ومبادئها التى هذبها تهذيبا بليغا وأكثر من
التصرف فيها حتى يكاد يصح أن يقال : انه باني أسسها وبارئ قوسها ، فأما =

الحاج (١) امداد الله المهاجر المكي قدس الله روحه ومن أدنى آثار هذه المنطقة

= أصول التفسير فكتابه « الفوز الكبير » فيها شاهد صدق على براعته على كثير من أهلها والحق أنه متفرد بتحقيق هذا الفن وتدقيقه ، وأما أصول الحديث فله فيها باع رحيب وقد أشار ابنه عبد العزيز أن له فيها تحقيقات مستظرفة لم يسبق إليها ، وأما أصول الفقه فإنه شرح أصول المذاهب المختلفة وجمعها وبين الفرق بين الأمور الجدلية والأصول الفقهية ورد وجوه الاستنباط على كثرتها إلى عشرة وأسس قواعد الجمع بين مختلف الأدلة وبين قوانين الترجيح .

ومنها علم العقائد وأصول الدين فإنه أتى بأسرار غامضة في تطبيق بالمأثور مما لا يهتدى إليها في الأغصار إلا واحد بعد واحد ممن يجتبيه الله سبحانه وذلك لأن المتكلم في هذا العلم إما أن يكون صاحب حديث يتهافت على ظواهره أو صاحب كلام يتعمق في الرأي أو صاحب فقه يتوسط الفريقين أو صاحب ذوق يطمئن إلى ما يشجلى له ، وقد جمع الله تعالى في صدره ما شتته بين هؤلاء .

ومنها آداب السلوك وعلم الحقائق فإنه أفاض من ذوارف المعارف على أهلها سجالات لأنه كان جامعاً بين الطرق الثلاثة من السمع والفكرة والذوق فلا يتجلى له شيء من السر الغامض فيقبله إلا بعد ما شهد بصحته شاهداً صدق من المعقول والمنقول ثم ذكر خصائص عديدة له وبعض مؤلفاته القيمة ، ثم قال : ومن نعم الله تعالى عليه : أن أولاه خلعة الفاتحية والهمم الجمع بين الفقه والحديث وأسرار السنن ومصالح الأحكام وسائر ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل حتى أثبت عقائد أهل السنة بالأدلة والحجج وطهرها من قذو أهل المعقول وأعطى علم الإبداع والخلق والتدبير والتدلي مع طول وعرض وعلم استعداد النفوس الانسانية بجميعها وأفيض عليه الحكمة العملية وتوفيق تشييدها بالكتاب والسنة وتميز العلم المنقول من المحرف المداخل وفرق السنة السنية من البدعة غير المرضية الخ . . وبسط في مآثره قدس روحه بسطاً يليق بعلو مقامه وعظيم مرتبته وزين بترجمته العطرة المباركة ثمانية عشر صحيفة من كتابه البديع .

(١) قال عنه صاحب نزهة الخواطر في الجزء الثامن ص ٧٠ « الشيخ العارف الكبير الأجل امداد الله بن محمد أمين - العمري التهانوي المهاجر إلى مكة المباركة كان من الأولياء السالكين العارفين . اتفقت الألسن على الثناء عليه والتعظيم له . ولد يوم الاثنين لثمان بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين ومائتين بعد الألف - بنانوته قرية من أعمال سهارنبور - وقرأ الرسائل الفارسية =

= على الوجه المرسوم وقرا الحصن الحصين على مولانا قلندر بخش الجلال آبادى وقرا المثنوى المعنوى عليه أيضا وهو ممن قرا على المفتى الهى بخش الكاندهلوى ثم سافر الى دهلى ولازم الشيخ نصير الدين الشافعى المجاهد وأخذ عنه الطريقة وبعد شهادته رجع الى «تهانة بهون» فأقام بها زمنا ثم دخل «لوهارى» ولازم الشيخ نور محمد الجهنجهانوى وأخذ عنه الطريقة وفتح الله سبحانه عليه أبواب المعرفة وجعله من العلماء الراسخين فى العلم فتصدر للإرشاد والتلقين بأمر شيخه ، وثار المسلمون وأهل البلاد على الحكومة الانجليزية سنة أربع وسبعين ومائتين وألف ١٢٧٤ وقامت جماعة من العلماء والصلحاء وأهل الغيرة من المسلمين فى سهارنبور ومظفر نكر فأعلنوا الحرب على الانكليز واختاروا الشيخ امداد الله اميرا لهم ، واشتبك الفريقان فى ميدان «شاملى» قرية من أعمال مظفرنكر فقتل حافظ محمد ضامن شهيدا ، وانقلبت الدائرة على المسلمين ورسخت اقدام الانكليز واشتد بطشهم بكل من اتهم بالمشاركة فى هذه الثورة ، وضاعت على العلماء العاملين الفيارى الأرض وضاق مجال العمل فى الهند وقضى بعض الرفقة مدة فى الاختفاء والانزواء ولجأ بعضهم الى الهجرة ومغادرة البلاد ، وآثر الشيخ امداد الله الهجرة الى مكة المكرمة ودخل مكة سنة ست وسبعين ومائتين وألف وألقى رحله بالبلد الأمين وكان أول اقامته على «الصفاء» ثم انتقل الى حارة الباب حيث قضى حياته ولقى ربه وعاش اياما طويلة فى عسر شديد وفقر وفاقة شأن الأولياء المتقدمين وهو صابر محتسب راض بما قسم الله له من الحال حتى جاء الله بالفرج وأبدل العسر باليسر وجاءته الدنيا راغمة واشتغل بالمجاهدات والعبادات متوجها الى الله بقلبه وقالبه دائم الذكر والمراقبة فائض القلب والباطن بالعلوم والأنوار مع هضم للنفس وإطراح على عتبة العبودية وتواضع للعباد وعلو همة وشهامة نفس واجلال للعلم والعلماء وتعظيم للشريعة والسنة السنية حتى غرس الله حبه فى قلوب عباده وعطف قلوب العلماء الكبار والمشايخ الأجلاء الى الرجوع اليه والاستفادة منه وأمه طلاب المعرفة واليقين من بلاد بعيدة وبارك الله فى تربيته وطريقته فانتشرت أنوارهما فى الآفاق وجدد به الطريقة الجشتية الصابرية وانتمى اليها ودخل فى سلكها كبار العلماء والفضلاء ونفع الله به خلائق لا يحصون أجلهم الشيخ قاسم والشيخ رشيد أحمد ومولانا يعقوب والمولوى أحمد حسن والمولوى محمد حسين والمولوى أشرف على وكلهم صاروا شيوخا وانتفع بهم خلق كثير .

وكان الشيخ امداد الله مربوع القامة يميل الى الطول نحيف الجسم أسمر اللون كبير الهامة واسع الجبين أزج الحاجبين واسع العينين حلو المنطق ودودا بشوشا قليل المنام مقلا من الطعام قد أضناه الحب الالهى وانحفته المجاهدات والرياضات ، رحب الأناة ، واسع القلب جامعا =

أنك ترى مريدى قطب الارشاد الامام الربانى الشيخ رشيد (١) أحمد

= للأشتات يلتقى على حبه والاستفادة منه المختلفون فى الأذواق والمشارب ،
متسامحا مع الناس ، متوسعا فى المسائل الجزئية والمذاهب الخلافية
لا يتعصب فيها ولا يتشدد مولعا « بالثنوى المعنوى » دائم الاشتغال به
تأملا وتدريسا وتذوقا وتلقينا ينصح أصحابه بقراءته والتأمل فيه ، له
مصنفات لطيفة كلها فى الحب الالهى والمعرفة والتصوف ... الخ ثم قال :
توفى يوم الأربعاء ثانى عشر جمادى الآخرة سنة سبع عشرة وثلاث مائة وألف
بمكة المكرمة فدفن بالمعلاة عند الشيخ رحمة الله الكيرانوى .

(١) قال عنه صاحب النزهة فى الجزء الثامن ص ١٤٨ « الشيخ الامام
العلامة المحدث رشيد أحمد بن هداية أحمد بن بربخش بن غلام حسن بن
غلام على بن على أكبر بن القاضى محمد اسلم الأنصارى الحنفى الرامبورى
ثم الكنكوهى أحد العلماء المحققين والفضلاء المدققين ، لم يكن مثله فى زمانه
فى الصدق والعفاف والتوكل والتفقه والشهامة والاقدام فى المخاطر والصلابة
فى الدين والشدة فى المذهب ولد لست خلون من ذى القعدة سنة أربع
وأربعين ومائتين وألف ببلدة كنكوه فى بيت جده لأمه ونشأ بين خوولته وكان
أصله من رامبور قرية جامعة من أعمال سهارنبور : وقرا الرسائل الفارسية
على خاله محمد تقى والمختصرات فى النحو والصرف على المولوى محمد
بخش الرامبورى ثم سافر الى دهلى وقرا شيئا من العربية على القاضى
أحمد الدين الجهلمى ثم لازم الشيخ مملوك على النانوتوى وقرا عليه أكثر
الكتب الدراسية وبعضها على المفتى صدر الدين الدهلوى وقرا الحديث
والتفسير أكثرهما على الشيخ عبد الفنى وبعضها على صنوه الكبير أحمد
سعيد بن أبى سعيد العمرى الدهلوى حتى برع وفاق أقرانه فى المعقول
والمقول ورجع الى كنكوه . وتزوج بخديجة بنت خاله محمد تقى ثم حفظ
القرآن فى سنة واحدة ثم اخذ الطريقة عن الشيخ الأجل امداد الله بن محمد
أمين العمرى التهانوى ولازمه مدة ثم تصدر للتدريس بكنكوه .. وبعد ذكر
بعض احواله وأسفاره الى الحجاز للحج والزيارة يقول : وكان قبل سفر
الحجاز فى المرة الثالثة يقرئ فى علوم عديدة من الفقه والأصول والكلام
والحديث والتفسير ، وبعد العود من الحجاز فى المرة الآخرة أفرغ أوقاته
لدرس الصحاح الستة والتزم أن يدرسها فى سنة واحدة وكان يقرئ جامع
الترمذى أولا ويبذل جهده فيه فى تحقيق المتن والاسناد ودفع التعارض
وترجيح أحد الجانبين وتشبيد المذهب الحنفى ، ثم يقرئ الكتب الأخرى
سنن أبى داود فصحيح البخارى ومسلم فالنسائى فابن ماجة سرذا مع
بحث قليل فيما يتعلق بالكتاب ولم تكن له كثرة اشتغال بالتأليف . =

== وكانت أوقارته موزعة مضبوطة يحافظ عليها صيفا وشتاء فإذا صلى الفجر اشتغل بالذكر والفكر في الخلوة حتى يتعالى النهار ثم يتطوع ويقبل على الطلبة وهم كبار العلماء والمحصلين يدرسهم في الفقه والحديث والتفسير واقتصر في آخر عمره على تدريس الصحاح الستة فلما كف بصره ترك التدريس وتوسع في الارشاد والتحقيق وبعد أن انتهى من التدريس يشتغل بكتابة الرسائل والردود يجيب المستفتين ولما عجز عن الكتابة لنزول الماء في عينيه وكل كتابة الرسائل وتحرير الفتاوى الى تلميذه النجيب الشيخ محمد يحيى بن اسماعيل الكاندهلوى وكان يحرص على أن ينتهى من كتابة الرسائل والفتاوى في يومها ، فإذا انتهى من الكتابة تفدى وانصرف يقبل ريسريح فإذا صلى الظهر اشتغل بتلاوة القرآن من المصحف وبعد ما كف بصره كان يتلو حفظا ثم اشتغل بالدروس الى العصر وكان يجلس للعامّة بين العصر والمغرب فإذا صلى المغرب قام يتطوع ثم ينصرف الى البيت ويكون مع عياله ويتعشى فإذا صلى العشاء - وكان يؤخره غالباً - انصرف الى فراشه ينام ويستريح وكان هذا دأبه على مر الأيام وكان آية باهرة بونعمة ظاهرة في التقوى واتباع السنة النبوية والعمل بالعزيمة والاستقامة على الشريعة ، ورفض البدع ومحدثات الأمور ومجاربتها بكل طريق والحرص على نشر السنة واعلاء شعائر الاسلام والصدع بالحق وبيان الحكم الشرعى ثم لا يبالي بما يتناول فيه الناس لا يقبل تحريفا ولا يتحمل منكرا ولا يعرف المحاباة والمذاهنة في الدين مع ما طبعه الله عليه من التواضع والرفق واللين دائرا مع الحق حيث ما دار يرجع عن قوله اذا تبين له الصواب انتهت اليه الامامة في العلم والعمل ورئاسة تربية المريدين وتركية النفوس والدعاء الى الله واحياء السنة وامامة البدع وقد رزقه الله من التلاميذ والخلفاء ما يندر وجود أمثالهم في هذا العصر في الاستقامة على الدين واتباع الشريعة القراء ونشر العلم النافع واحياء السنن واصلاح المسلمين ونفع بهم خلائق لا تحصى بحد وعد . الخ .

وقد بسط صاحب النزهة في ترجمته ايضا وقال في آخرها في ذكر مصنفاته : وقد جمع تلميذه النجيب الشيخ محمد يحيى بن اسماعيل الكاندهلوى ما أفاد به في درسه لجامع الترمذى وطبع باسم « الكوكب الدرى » ودون ما أفاده في درس الجامع الصحيح ونشره ابنه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى مع تعليقاته وسماه « لامع الدرارى » .

كانت وفاته يوم الجمعة بعد الاذان لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وثلاث مائة ألف .

وقال عنه العلامة المحدث الجليل والمجاهد الكبير الشيخ محمد يوسف بنورى في مقدمته على « لامع الدرارى على جامع البخارى » بعد أن ذكر أحوال عدة من مشايخ الهند القدامى الذين انتشرت بهم العلوم الاسلامية في

= الهند وخصائصهم ، قال : وبالجملـة ذلك الفهم الشاقب موهبة الهية يخص بها من يشاء من عباده تنجلي به جهات من العلم ما لم تنجل بضرر نقول القدماء وجهابذة الأمة وأعيان العلم ، لا تجد هناك طولا وعرضا ولكن تجد عمقا وربما يصدر من ذلك الفهم كلمة لطيفة لا توجد في مطاوى الأوراق ومطاوى المكاتب تنبثق من هذا النور علوم فياضة غزيرة ما لم تنبثق من كتب وأسفار فكان المحدث فقيه هذه العصور الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي الأنصاري رحمه الله جمع مع العلوم الرائجة علوم أرباب القلوب ووهب نورا في القلب يلمع به ما أظلم على الناس ، فكان يأتي بتوجيهاته من مشكلات الفقه ومعضلات الحديث ما خلت عنها الأسفار الضخمة والمجلدات الكبيرة وكان موفقا طيلة حياته المباركة لدرس الأمهات الست طوال النهار غير فترة قليلة في البين وبقي نصف قرن يدرس الحديث وكتب السنة لا يلحقه ملل ولا ضجر ولا سآمة ولا تعب مع اشتغاله بتربية النفوس وتصفية القلوب بالأذكار والتوجه فكانت نفسه الزكية تتجلى كل حين وهذا ما عدا افتاء في النوازل والمسائل حيث كان مرجعا في معضلات النوازل كما كان مرجعا للارشاد وتربية النفوس وتدريس الصحاح الستة في الأمهات ١ هـ ، ص ٢٠ .

ويقول عنه الداعية والمفكر الاسلامي الكبير الشيخ أبو الحسن الندوي الحسني في مقدمته البديعة على رسالة الشيخ محمد الثاني الحسني عن العلامة المحدث الكبير الشيخ خليل أحمد الأنصاري السهارنبوي ص ١٣ بعد ان ذكر احوال علماء الهند العجيبة في خدمة الاسلام قال : وما هي الا مدة قليلة اذ تولى زمام قيادة هذه الجماعة أحد العلماء الربانيين والشيوخ الكاملين وهو المحدث الجليل الشيخ رشيد أحد الكنكوهي الذي كان قد ورث من هذه الطوائف الأربع (وقد ذكرها بالتفصيل فيما قبله) حظا وافرا من العلم والدين واجتمع في شخصه أذواقهم واتجاهاتهم فبينما كان يجمع بين الشريعة والطريقة والفقه والحديث ونشر السنة ومحو البدعة وتدريس الحديث وشرحه وكان يتبوا نصب الأعلى في الربانية ويفوز بمكانة الاجتهاد فيها ويحن الى الجهاد في سبيل الله لاعلاء كلمة الله وكان يشرف على مدرستين كبيرتين هما دار العلوم ديوبند ، ومظاهر علوم سهارنبور وكان أستاذ الأساتذة وشيخ الشيوخ وبينما كان يتمتع بحظ وافر من التوجع للاسلام من الحب والذوق وكان يتناول الناس بالتربية الروحية الأمر الذي كان قد ورثه من مشايخ « الجشتية » الذين كان يتصل بهم بنسب روحي باطن اذ كان مشريا بثروة الوقار والجدية والاستقامة على الشريعة واتباع السنة التي كان قد نالها من مشايخ النقشبندية الذين كان يتصل بهم عن طريق الامام أحمد بن عرفان الشهيد - وبينما كان فقيها فذا معترفا به في الأوساط العلمية كلها ويفتي على المذهب الحنفي بوجه عام ، اذا هو محدث جليل له مكانة عالية في التحديث وشغف زائد به ، حتى أن قرينته « كنكوه » كانت قد تحولت الى مركز عظيم لطلاب علم الحديث ومتخرجي المدارس =

الكنكوهى نور الله مرقدہ كان العامى الجاهل منهم أيضا يواظب على صلاة التهجد بصورة تفوق على حالة بعض أكابر المشايخ وذلك مع الاهتمام الشديد على أداء الصلوات المفروضة مع الجماعة ، وأما الطريقة فان الحوض الكبير الكائن بجوار زاوية الشيخ الكنكوهى نور الله مرقدہ كان يردہ حوالى خمسين أو ستين من الغسالين لغسل الملابس عليه آخر الليل فكانوا بدلا من أن يتلفظوا بعبارات وجمل مهمة كعادة عامة أصحاب المهن عند التحمس كان هؤلاء يهتفون مع كل ضربة فى الغسيل باسم الله ويمتلئ الجو بصيحات الله .. الله ..

وان هذا الفقير لم يتشرف بزيارة أحد من الأسرة الولى اللہية وانما زرت الكثير من أكابر وأصاغر الطائفة الامدادية .

لم أتمكن من زيارة سيد الطائفة الشيخ امداد الله المهاجر المكي نور الله مرقدہ لأن وفاته كانت بعد ولادتي بستين تقريبا فى ۱۲ أو ۱۳ جمادى الآخرة عام ۱۳۱۷ هـ بمكة المكرمة - وكذلك حجة الاسلام الشيخ النانوتوى (۱) نور الله مرقدہ فلم أتمكن أيضا من زيارته لأن وفاته كانت

= الاسلامیة .. ثم قال : ان هذه الألوان المتعددة التى قد تبدو متعارضة اجتمعت فى حياته جنبا الى جنب ورغم انه كان يحب العزلة ولكنه كان شديد الاهتمام بالمسلمين وباسلامهم وكان شديد الاتصال بالمؤسسات والمدارس الدينية التى كان قد أسسها أنصاره ومحبيه وتلاميذه للتعليم والتربية والدعوة الاسلامیة ... ثم قال : وقلما رزق عالم كبير ومرب جليل فى عصره من الأتباع والخلفاء المخلصين ذوى العلم والفضل مطيعين منقادين من المعجبين به مثل ما رزق العلامة رشيد أحمد الكنكوهى فأى تلميذ وخليفة من تلاميذه وخلفائه كان يتمتع بأحوال وفضائل بحيث يبدو أنه متفرد بذلك فقد احيا الله تعالى بفضل جهودهم قلوب المسلمين وصقل عقولهم وزين أخلاقهم ممن لا يأتى عليهم الحصر وذلك فى عصر كان الالحاد والانحراف ينبعث فيه مثل السحاب والفتن تمطر مثل الأمطار ا هـ .

(۱) قال الشريف الحسنى فى النزہة فى ترجمته « الشيخ الامام العالم الكبير قاسم بن أسيد على بن غلام شاه بن محمد بخش الصديقى النانوتوى أحد العلماء الربانيين ولد بنانوته سنة ثمان وأربعين ومائتين والف ودخل سهارنبور فى صفر سنة وقرأ المختصرات على الشيخ محمد =

قبل ولادتي بما يقرب من ثمانية عشر سنة وذلك في ٤ جمادى الأولى عام ١٢٩٧ هـ في ديوبند الحبيبة . وكذلك لم أتمكن من زيارة جدى الأُمجد

= نواز السهارنبورى ثم سافر الى دلهى واشتغل على الشيخ مملوك الفلى النانوتوى وقرأ عليه سائر الكتب الدراسية ثم أخذ الحديث على الشيخ عبد الفنى بن أبى سعيد الدهلوى ولازمه مدة وأخذ الطريقة على الشيخ امداد الله العمرى التهانوى وصحبه واستفاض منه فيوضا كثيرة واشتغل فى المطبعة الإحمدية بدلهى للشيخ أحمد على بن لطف الله السهارنبورى وكان الشيخ فى ذلك الزمان مجتهدا فى تصحيح « صحيح البخارى » وتحشيته ففوض اليه خمسة اجزاء من آخر ذلك الكتاب وكانت تلك الأجزاء عسيرة سيما فى مقامات أورد فيها البخارى على أبى حنيفة فبذل جهده فى تصحيح الكتاب وتحشيته وبالغ فى تأييد المذهب حتى استوفى حقه .

وكان أزهد الناس وأعبدهم وأكثرهم ذكرا ومراقبة وأبعدهم عن زى العلماء ولبس المتفقهة من العمامة والطيلسان وغيرهما وكان فى ذلك الزمان لا يفتى ولا يذكر بل يشتغل فى ذكر الله ومراقبته حتى فتحت عليه أبواب الحقائق والمعارف فاستخلفه الشيخ امداد الله المذكور ومدحه بأن مثل القاسم لا يوجد الا فى العصر السالف ، ثم تزوج بأمره الشريف وصعد المنبر بتكليف الشيخ مظفر بن محمود الكاندهلوى فذكر أحسن تذكير . ثم قال : وله مشاهد عظيمة فى المباحثة بالنصارى والآرية أشهرها المباحث التى وقعت ببلدة « شاهجهانپور » سنة ثلاث وتسعين وأربع وتسعين فناظر أخبار النصارى وعلماء الهنادك غير مرة فقلبهم وأقام الحجة وظهر فضله فى المناظرة ، فصلها الشيخ فخر الحسن الكنكوهى فى كتابه « انصار الاسلام » وفى « كفتكوى مذهبى » وفى « مباحثه شاهجهان بور » وغيرها من الرسائل . ثم ذكر مصنفاته . وقال الشيخ أبو الحسن الندوى فى حاشيته : فى بحثه عن تأسيس جامعة دار العلوم بديوبند : ويستفاد من كتاب « سوانح قاسمى » للشيخ مناظر أحسن الكيلانى رحمه الله : أن الحاج عابد حسين كان قد تفاهم مع مولانا محمد قاسم واتفق معه على تأسيس هذه المدرسة وأخبره بذلك فى ميرت وطلب منه أن يأتى الى « ديوبند » ويفتح التعليم فاختر مولانا محمد قاسم الملا محمود الديوبندى مدرسا للمدرسة وعين له راتبا شهريا مقدار خمس عشرة روبية فجاء الى ديوبند وافتتح التعليم فى مسجد شتة وهكذا كانت بداية مدرسة ديوبند التى أصبحت بعد مدة كبرى المدارس الهندية وبعد مدة قليلة قدم مولانا محمد قاسم الى ديوبند وتولى أمر المدرسة ووضع أساس بنائها المستقلة « ع .

رأس الأتقياء مولانا الشيخ محمد اسماعيل^(١) الجهنجھانوى ثم الكاندهلوى
ثم الدهلوى لأنه قدس الله روحه توفى فى دلهى بمسجد نواب والى فى
الرابع من شوال عام ١٣١٥ هـ •• وذلك بعد ولادتى بما يقرب من عشرين
عاما •

وقد سمعت من الأكابر أنه حينما بلغ جدى هذا خبر ولادتى قال :
لقد جاء خلفنا فحان موعد ذهابنا •

هؤلاء لم أتمكن من رؤيتهم المباركة ولكنى سمعت من وقائعهم
الكثير الذى لا يعد ولا يحصى •

وأما فخر المحدثين وشيخ مشايخ زمانه قطب الارشاد الكنكوهى
قدس روحه فقد زرته كثيرا لأن وفاته كانت بعد ولادتى بما يقرب من
ثمانى سنوات فى الثامن من جمادى الآخرة عام ١٣٢٣ هـ بكنكوه •

وأذكر أيضا صورته المباركة جيدا وأذكر أيضا أنه عندما كان

(١) هو جد شيخنا من أبيه ولد فى جهنجانة وهو موطن آبائه قال عنه الشيخ
أبو الحسن الندوى : - الشيخ محمد اسماعيل من الذين اتفقت الألسنة
على إخلاصه وصلاحه وزهده . وقال عنه الشيخ محمد الثانى الحسنى فى
رسالته (العلامة المحدث الكبير خليل أحمد ص ١٠٣ : كان الشيخ اسماعيل
رجلا صالحا تقيا وكان يدرس الأطفال فى مسجد « بستی نظام الدين » ويقوم
فى حقل الدعوة والتبليغ بمسئوليّاته التى تعود اليه من قبل الدعوة وكان
يمتاز بزهده وورعه وتقواه وقد رزقه الله ثلاثة أبناء أكبرهم محمد الذى
كان حذو والده فى التقوى والأناة الى الله وأوسطهم الشيخ محمد يحيى
وأصغرهم الشيخ محمد الياس الداعية الى الله ومؤسس حركة الدعوة
والتبليغ ا هـ . وقد بسط فى ترجمته الشيخ محمد الثانى الحسنى فى كتابه
بالأوردية فى ثمانى صفحات ذكر فيها علو مرتبه وشهرته بين الخلائق
بالتقوى والورع واستجابة الدعاء ومواظبته خصوصا على الأدعية والأذكار
المأثورة عنه صلى الله عليه وسلم فى جميع الأحوال وقد شهد له الامام
الكنكوهى قدس سرهما بالوصول الى درجة الاحسان وذكر اهتمامه الشديد
وحرصه على اصلاح وتعليم أهل الميوات أمور الدين المتين وذكر جهوده
المختلفة لذلك وقد توفى بدلهى فى الرابع من شوال عام ١٣١٥ - ودفن بجوار
مسجد بنكله والى نظام الدين بدلهى •

الشيخ قدس الله روحه يجلس في فناء الزاوية متربعا فألف ذراعى حول عنقه واتعلق به - وقد أكلت بمعيته كثيرا - وأذكر جيدا ركوبى معه فى هودجه الذى كان يتشرف بحمله مشايخ العصر على أكتافهم عند الذهاب الى مصلى العيد - وهذه الفترة تعتبر رفيعة جدا من حيث الشريعة والطريقة - ثم بعده تشرفت بملازمة سيدى ومرشدى ومولائى الشيخ خليل أحمد (١) نور الله مرقدہ مسلسلا من رجب ١٣٢٨ هـ الى ذى العقدة

(١) قال الشريف الحسنى فى النزهة ج ٨ ص ١٣٣ (الشيخ العالم الفقيه خليل أحمد بن مجيد على بن أحمد على بن قطب على بن غلام محمد الأنصارى الحنفى الانبهيئوى أحد العلماء الصالحين وكبار الفقهاء والمحدثين ولد فى أواخر صفر سنة تسع وستين ومائتين وألف فى خثولته فى قرية « نانوته » من أعمال سهارنبور ونشأ ببلدة أبيته من أعمال سهارنبور ، ثم ذكر مفصلا تعليمه على خاله الشيخ يعقوب النانوتوى وغيره بمدرسة ديوبند ومظاهر العلوم بسهارنبور . ثم تعيينه أستاذ مساعدا بعد الافراغ فى مظاهر العلوم ثم بعد مراحل استاذ بدار العلوم بديوبند ثم توليه رئاسة التدريس فى مظاهر العلوم واشتهار المدرسة به وقبولها وترقيتها العظيم فى عهده . كما ذكر بيعته للشيخ الامام العلامة رشيد أحمد الكنكوهى ثم تشرفه بالحج والزيارة ولقياه بمكة المكرمة بالعارف الكبير الشيخ امداد الله المهاجر واجازته اياه فى الطرق ثم اجازة الشيخ الامام الكنكوهى ايضا وأنه اختص به اختصاصا عظيما حتى أصبح من أخص أصحابه وأكبر خلفائه ومن كبار الحاملين لعلومه وبركاته والناشرين لطريقته ودعوته .

ثم قال : وعنى بالحديث عناية عظيمة تدريسا وتأليفا ومطالعة وتحقيقا وكان من أعظم أمانيه أن يشرح سنن أبى داود فبدأ فى تأليفه سنة خمس وثلاثمائة وألف يساعده فى ذلك تلميذه البار الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوى وانصرف الى ذلك بكل همته وقواه وعكف على جمع المواد وتهذيبها واملأها لذة له ولا هم فى غيره . . ثم يقول : كان الشيخ خليل أحمد له الملكة القوية والمشاركة الجيدة فى الفقه والحديث واليد الطولى فى الجدل والخلاف والرسوخ التام فى علوم الدين والمعرفة واليقين وكانت له قدم راسخة وباع طويل فى ارشاد الطالبين والدلالة على معالم الرشاد ومنازل السلوك والتبصر فى غوامض الطريق وغوائل النفوس ، صاحب نسبة قوية وافاضات قدسية وجذبة الهية نفع الله به خلقا كثيرا ، وخرج على يده جمعا من العلماء والمشايخ ونبغت بتربيته جماعة من أهل التربية والارشاد وأجرى على يدهم الخير الكثير فى الهند وغيرها فى نشر العلوم =

١٣٤٥ هـ ماعدا السنة التي اقام فيها سيدى الشيخ وقد غادر هذا العاجز
المدينة المنورة فى السادس عشر من ذى القعدة عام ١٣٤٥ هـ وتوفى بعدها
سيدى ومرشدى بالمدينة المنورة فى السادس عشر من ربيع الثانى عام
١٣٤٦ هـ .

وأما بالنسبة لعصر حضرة العلامة شيخ الهند ^(١) نور الله مرقده

= الدينية وتصحيح العقائد وتربية النفوس والدعوة والاصلاح من أجلهم المصلح
الكبير الشيخ محمد الياس بن اسماعيل الكاندهلوى صاحب الدعوة
المشهورة المنتشرة فى العالم ، والمحدث الجليل الشيخ محمد زكريا بن يحيى
الكاندهلوى السهارنبورى صاحب « أوجز المسالك » و « لامع الدرارى »
والمؤلفات المقبولة الكثيرة . والشيخ عاشق الهى الميرتهى وغيرهم - كان جميلا
وسيما مربوع القامة مائلا الى الطول ابيض اللون يفلت منه الحمرة ..
وكان رقيق الشعور ذكى الحس صادعا بالحق صريحا فى الكلام فى غير جفاء
شديد الاتباع للسنة نفورا عن البدعة كثير الاكرام للضيوف عظيم الرفق
بأصحابه يحب الترتيب والنظام فى كل شىء والمواظبة على الاوقات مشغلا
بخاصة نفسه وبما ينفع فى الدين متنجيا عن السياسة مع الاهتمام بأمور
المسلمين ، والحمية والغيرة فى الدين - حج سبع مرات آخرها فى شوال
سنة أربع وأربعين من الهجرة (وبسط الشريف الحسنى فى ترجمته وأفرد
فى ترجمته الشيخ محمد الثانى الحسنى رسالة مستقلة تقع فى مائة وخميس
وعشرين صفحة نشرتها دارعرفات) قلت : وشرحه لسنن أبى داود المذكور فى
النزهة قد تم وطبع أولا بالهند بالحروف الحجرية ثم بالهند والقاهرة
بالحروف الحديدية فى عشرين مجلد ثم نشرت منه طبعة ثالثة فى بيروت
والطبعة الرابعة على وشك الصدور فقد حظى بقبول عظيم عند الدارسين
للحديث الشريف .

(١) قال الشريف الحسنى فى النزهة ج ٨ ص ٤٦٥ فى ترجمته (الشيخ
العالم الكبير العلامة المحدث محمود حسن بن ذو الفقار على الحنفى الديوبندى
- أعلم العلماء فى العلوم النافعة وأحسن المتأخرين ملكة فى الفقه وأصوله
وأعرفهم بنصوصه وقواعده ولد سنة ثمان وستين ومائتين وألف فى برلى
ونشأ بديوبند وقرأ العلم على مولانا السيد أحمد الدهلوى ومولانا يعقوب
ابن مملوك العلى وعلى العلامة محمد قاسم وعلى غيرهم من العلماء .
وصحب مولانا محمد قاسم المذكور مدة طويلة وانتفع به كثيرا حتى صار
بارعا فى العلوم وولى التدريس فى المدرسة العربية بديوبند سنة اثنتين
وتسعين ومائتين وألف ثم أخذ الطريقة عن الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى =

= وكان يتردد اليه غير مرة في السنة وحصلت له الاجازة منه . حتى كبره موت الكبراء لقيته بديوبند غير مرة ووجدته ملازما للعبادة والورع وقيام الليل والسداد في الرواية سريع الادراك شديد الرغبة في المذاكرة بالعلم . ذا عناية تامة بالفقه وأصوله يحفظ متون الأحاديث ، وانتهت اليه رئاسة الفتيا والتدريس في آخر عمره .

وكان قد وضع خطة لتحرير الهند من حكم الانجليز كان يريد ان يستعين فيها بالحكومة الافغانية والخلافة العثمانية وهما لها جماعة من تلاميذه وممن يثق بهم من أصحابه وكان في مقدمتهم المولوى عبيد الله السندى وأرسله الى أفغانستان وكان الاتصال بينه وبين تلاميذه وأصحابه في الحدود الشمالية وفي أفغانستان ولما تم لهم بعض ذلك ومهدوا الأرض للثورة واشتدت عليه الرقابة في الهند سافر الى الحجاز سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مائة وألف . . ثم ذكر مقابله للولاة والوزراء الأتراك في زيارته للمدينة وبعض احوال اقامته بالحجاز واحكام خطته لتحرير الهند هناك - الى أن قال : واكتشفت الحكومة الانجليزية المؤامرة وعرفت قضية الرسائل الحزيرية ، فصرفت عنايتها الى القبض على زعيم هذه الحركة وقلب رجاها وكان الشريف حسين أمير مكة قد خرج عن الدولة المتبوعة العثمانية وثار عليها بتحريض الدولة الانجليزية فأوعزت الى الشريف بالقضاء القبض عليه وتسليمه الى الحكومة الانجليزية فألقى القبض عليه في صفر سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف ومعه المولوى حسين أحمد الفيض آبادى والحكيم نصرت حسين الكوروى والمولوى عزيز كل والمولوى وحيد أحمد وسفر هؤلاء في الثامن عشر من ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف الى مصر « ومنها الى مالطة » حيث وصلوا سلخ ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف . . وبسط الشريف الحسنى في ترجمته أيضا وذكر رجوعه من مالطة مكرما مبجلا وكفاحه ونضاله ضد الانجليز وكيف لقب « بشيخ الهند » وفي آخره : كان مولانا محمود حسن آية باهرة في علو الهمة وبعد النظر والأخذ بالعزيمة وحب الجهاد في سبيل الله . قد انتهت اليه الامامة في العصر الأخير في البغض لاعداء الاسلام والشدة عليهم مع ورع وزهادة واقبال الى الله بالقلب والقالب والتواضع والايتار على النفس وترك التكلف وشدة التقشف والانتصار للدين والحق وقيام في حق الله وكان دائم الابتغال قوى التوكل ثابت الجأش سليم الصدر جيد التفقه جيد المشاركة في جميع العلوم العقلية والنقلية مطالعا على التاريخ كثير المحفوظ للشعر والأدب صاحب قريحة في النظم واضح الصوت موجز الكلام في افصاح وبيان تمتاز دروسه بالوجازة والدقة والاقتصار على اللب كثير الأدب مع المحدثين والأئمة المجتهدين لطيفا في الرد والمناقشة . . تلوح على =

وأعلى مراتبه فقد لحقته — لأن وفاته كانت في الثامن عشر من ربيع الأولى من عام ١٣٣٩ هـ ثم انه نور الله مرقدہ كان قد أقام عدة سنوات بجزيرة مالطا ولم أتشرف بالحضور لحضرته بديوبند قبل الأسر وبعده الا قليلا ولكن تشرفت بقاء أحبابه وتلامذته وآكابر ديوبند كثيرا .

وأما عصر رأس الاتقياء والأصفياء العارف الكبير الشيخ عبد الرحيم^(١) الرائي بوري فقد أدركت منه كثيرا لأن وفاته قدس سره كانت في الرابع والعشرين من ربيع الثاني عام ١٣٣٨ هـ .

= بحياة امارات التواضع والهم وتشرق أنوار العبادة والمجاهدة في وقار وهيبة مع بشر وانبساط مع التلاميذ والاخوان وكان قليل الاشتغال بالتأليف بالنسبة الى غزارة علمه وكثرة درسه (١ هـ .

(١) هو الامام الجليل والقطب الشهير العارف بالله الشيخ عبد الرحيم ابن اشرف على خان الرائي فوري — بايع على يد الامام الرباني الكنكوهي قدس سره وكان من أجل خلفائه الذين قاموا بعده بنشر السنة السنية وقمع البدع والمنكرات وتوجيه الناس الى ربهم والتمسك بدينه .

بسط الشيخ محمد عاشق الهى الميرتهى في « تذكرة الخليل » بالاردوية في ترجمته واكملها في ثلاثين صفحة ذكر فيها « أنه قدس سره كانت سيرته انموذجا لسير الأوائل من السلف الصالحين فكان صورة مجسمة لشأن التفويض وغواصا في بحر التوحيد الالهى غارقا في التسليم والرضا متفانيا في التوكل والاعتماد على الله كان عالما متبحرا في العلوم الشرعية ولكن غلبت عليه الطريقة بحب الخلوة والانزواء عن الخلق والاشتغال بالعبادة والاستئناس بالمحسوب الحقيقي — كان عاشقا للسنة النبوية في جميع أحواله ويستأنس خصوصا بتعليم القرآن الكريم اذ هو الأصل لجميع العلوم الدينية فكان يحرص كثيرا على افتتاح المدارس القرآنية التي يهتم فيها بتدريس القرآن الكريم وحفظه ويتألا وجهه برؤية الصغار الذين يرتلون القرآن بالتجويد والتلفظ الصحيح كانت بجوار زاويته في البستان أيضا مدرسة للقرآن الكريم ، وبسط الشيخ عن أحوال هذه المدرسة واهتمام الشيخ بها وبالوافدين اليها من طلبة العلم — وذكر أنه كان يمتاز بالتواضع والانكسار في جميع أحواله ذو خلق رفيع مع الجميع ولكن مع هذا كان شديد الكراهية للبدعة والأمور البدعية اذ كان من كبار خلفاء الامام الكبير الكنكوهي قدس روحه كان حريصا جدا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكن برفق ولين وحكمة ، كان دائم الفكر طويل الصمت ولكن اذا =

وأما ملحق الأصاغر بالأكابر حكيم الأمة ومجدد الملة التهانوي (١)
نور الله مرقدہ فقد تشرفت بزيارته لمدة طويلة من الزمن لأن وفاته قدس
سره كانت ليلة الثامن عشر من رجب ١٣٦٢ هـ .

= احتاج الى الأمر بالمعروف او الدعوة الى الله تكلم فبسط وأجاد - وكان
لكلامه تأثير غريب تنشرح له الصدور وتطمئن به القلوب - وقد استفاد
منه خلق كثير جدا من أهل البنجاب وغيرهم عم فيضه ونفع الله به وبخلفائه
وأحیی بهم السنن وأمات بهم البدع وتوفی قدس روحه في الرابع
والعشرين من ربيع الثاني عام ١٣٣٨ هـ برأى فور من قرى سهارنبور ودفن
بها .

(١) قال عنه الشريف الحسنی فی الزهدة ج ٨ ص ٥٦ : الشيخ
العالم الفقيه اشرف على بن عبد الحق الحنفی التهانوی الواعظ المعروف
بالفضل والأثر ولد بتهانة قرية من أعمال مظفر نكر لخمس خلون من ربيع
الآخر سنة ثمانين ومائتين بعد الألف وقرأ المختصرات على مولانا فتح محمد
التهانوی والمولوی منفعت على الديوبندی وقرأ أكثر كتب المنطق والحكمة
وبعض كتب الفقه والأصول على مولانا محمود حسن الديوبندی المحدث
وأكثر كتب الفقه والأصول وبعض الحديث على مولانا محمود ، والفنون
الرياضية والمواريث على شيخنا السيد أحمد الدهلوی ، والحديث والتفسير
على مولانا يعقوب بن مملوك العلي النانوتوی كلها في المدرسة العالية بديوبند
ثم سافر الى الحجاز فحج وزار وأخذ الطريقة عن الشيخ الكبير أمداد الله التهانوی
المهاجر الى مكة المكرمة وصحبه زمانا ثم رجع الى الهند ودرس مدة طويلة
في مدرسة جامع العلوم بكانبور مع اشتغاله بالاذكار والأشغال حتى غلبت
عليه الحالة فترك التدريس وسافر الى أقطار الهند وراح الى الحجاز مرة
ثانية وصحب شيخه مدة ثم عاد الى الهند وأقام بموطنه في آخر صفر سنة
خمس عشرة وثلاثمائة وألف فلم يغادره الا نادرا للتداوي أو الاضطراب وصار
مرجعا في التربية والارشاد واصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق يشد اليه الرحال
ويقصده الراغبون في ذلك من اقاصى البلاد وادانيها وانتهت اليه الرئاسة في
تربية المريدین وارشاد الطالبين والاطلاع على غوائل النفوس ومداخل
الشیطان ومعالجة الادواء الباطنة والاسقام النفسية وهو ملتزم لمكانه يقصد
ولا يقصد ويؤتى ولا يأتى وللإقامة في زاويته والاستفادة من مجالسه قيود
والتزامات يحقلها الطالبون لا يلتزم ضيافة القاصدين شأن الزوايا بل يقومون
بذلك بأنفسهم ويخص بعض الفضلاء وخاصة الزائرين بالضيافة ومع ذلك
يؤمه الطالبون من أنحاء بعيدة ويتحملون نفقاتهم - وكانت أوقاته مضبوطة
منظمة لا يخل بها ولا يستثنى فيها الا في حالات اضطرارية وكان اذا انصرف =

وقد ذكرت مع اسمه لقب « ملحق الأصاغر بالأكابر » لأنه قد حصلت لسيدي حكيم الأمة نور الله مرقدہ البيعة والاجازة في السلوك من سيد الطائفة حضرة الشيخ الحاج امداد الله العمرى مباشرة - لذلك فجميع مريدي ومجازي حكيم الأمة يرتبطون بسيد الطائفة بواسطة واحدة فقط هذا من ناحية الطريقة وأما من ناحية الشريعة فان لحكيم الأمة اجازة في الحديث الشريف من حضرة مولانا الشيخ فضل الرحمن

= من صلاة الصبح اشتغل بذات نفسه عاكفا على الكتابة والتأليف منفردا عن الناس لا يطمع فيه طامع الى ان يتفدى ويقل فاذا صلى الظهر جلس للناس يكتب الردود على الرسائل ويقرأ بعضها للناس ويتحدث اليهم ويؤنسهم بنكته ولطائفه وكان حديثه نزهة للاذهان وفاكهة للجلساء بحيث لا يملون ولا يضيقون ويكتب بعض الحجب والتعويذات فاذا صلى العصر انفرد عن الناس واشتغل بشئون بيته الى ان يصلى العشاء فلا يطمع فيه طامع - وقد كان من كبار العلماء الربانيين الذين نفع الله بمواعظهم ومؤلفاتهم وقد بلغ عدد مجالس وعظه التي دوت في الرسائل وجمعت في المجاميع الى اربعمائة مجلس . وقد كان نفع كتبه ومجالس وعظه عظيما في اصلاح العقيدة والعمل . واستفاد منها الوف من المسلمين ورفض عدد لا يحصيه الا الله العادات والتقاليد الجاهلية والرسوم والبدع التي دخلت في حياة المسلمين وفي بيوتهم وافراحهم واحزانهم لسبب الاختلاط الطويل بالكفار وأهل البدع والأهواء وقد كان له فضل كبير في تيسير الطريقة وتقريبها وتنقيح الغايات من الوسائل واللباب من القشور والزوائد . . وله مصنفات كثيرة ممتعة ما بين صغير وكبير وجزء لطيف ومجلدات ضخمة احصاها بعض أصحابه فبلغت الى نحو ثمانمائة منها نحو اثني عشر كتابا بالعربية . . وقد كان لكتابه « بهشتي زيور » الذي الفه أصلا لتعليم البنات وضمنه المسائل الفقهية التي تشتد اليها الحاجة رواج وذيوع قلما بلغها كتاب آخر من الكتب الدينية في هذا العصر وطبع مرارا كثيرة يصعب احصاؤها . وكان مشكلا منور الشبيه ابيض مشرب الحمرة ربعة من الرجال حسن الثياب في غير اسراف وتجمل ، حلو المنطق ، لطيف العشرة ، فيه دعاية مع مهابة ووقار وسكينة ورزانة كثير المحفوظ ، حسن الاستشهاد بالأبيات ، كثير الانشاد لأشعار المثنوى لمولانا جلال الدين الرومي في المواعظ والمجالس في مجالها ، شديد العناية ، كثير الحسبة على أداء الحقوق الى أصحابها واصلاح المعاملات مع الناس ، لا يحتمل في ذلك تساهلا وتغافلا - توفي الى رحمة الله تعالى لست عشرة خلون من رجب سنة اثنتين وستين وثلاثمائة والـف وقد بلغ من العمر اثنتين وثمانين سنة ودفن في « تھانہ بھون » اھ =

الكنج مراد آبادى أيضا والشيخ الكنج مراد آبادى قد درس على سيدنا الامام الشيخ عبد العزيز الدهلوى اذ ذكر فى رسالة الأرواح الثلاثة « بالاردية » أن الحكيم نعمت الله سأل الشيخ الكنج مراد آبادى نور الله مرقدہ : هل درس حضرتكم على يدى مولانا الشاه عبد العزيز ؟ فقال : نعم • فطلبت منه أن يسمع منى الحديث ويجيزنى فأتبرك به فسمع منى بعض أحاديث المشكاة وقال : أجيزك وأكد عليه فى العمل • انتهى •

وقد كان هذا العاجز يتمنى كثيرا أن يتشرف بالحصول على الاجازة من حكيم الأمة التهانوى نور الله مرقدہ لكى أسعد بالسند العالى حتى أنى ذهبت مرة لهذا الغرض بالذات الى قرية تهانة بهون أيضا ولكن فى كل مرة كان يمنعنى الحياء بأنى بأى وجه أطلب منه اجازة الحديث الشريف وأنا ليس لدى من العلم شيء — مع أن كثيرا ممن درسوا على يدى قد تشرفوا بالحصول على هذه الاجازة المباركة منه قدس سره ومن هذه الناحية يعتبر هؤلاء التلامذة النجباء أرفع سندا منى — ثم انى قد

= وقال الشيخ محمد تقى عثمانى فى مقدمته على اعلاء السنن المبسوطة وقد حرر فى ثمانية عشر صفحة فى ترجمته : كان رحمه الله من العلماء العباقرة الأفاضل والدعاة البررة المخلصين الذين اناروا فى الهند مصابيح التجديد باهرة الشعلة ساطعة النور وأخلصوا حياتهم لاعلاء كلمة الله واحياء علوم الدين .. وكان حكيم الأمة الشيخ التهانوى رحمه الله أكثر الناس تأليفا فى عصره ولا يوجد فى هذا القرن من يجاريه أو يدانيه فى كثرة المؤلفات فانه قد ترك خلفه نحو ألف كتاب مطبوع ما بين صغير وكبير ، وليس موضوع دينى يحتاج اليه المسلمون فى هذا العصر الاوله فيه كتاب أو رسالة أو موعظة مطبوعة .. ثم بسط الشيخ العثمانى فى تعداد كتبه ومؤلفاته المتنوعة فى علوم التفسير والحديث والفقه والعقائد والتصوف والدعوة والارشاد .

وقال العلامة المحقق الشيخ محمد زاهد الكوثرى فى مقالاته التى تحدث فيها عن تناوب الأقطار فى الاضطلاع بأعباء علوم السنة فبعد أن أشار الى جهود علماء الهند وباكستان ومآثرهم فى خدمة السنة المطهرة فى القرون الأخيرة ما ملخصه « وكذلك عنى بهذا الأمر العلامة الأوحى والحبر الفرد شيخ المشايخ فى البلاد الهندية المحدث الكبير والجهيد الناقد مولانا حكيم =

أدرکت عصر شیخ الاسلام رأس المجاهدين سيدى الشيخ المدنى (١)

= الأمة محمد اشرف على التهانوى صاحب المؤلفات البالغ عددها نحو خمسمائة مؤلف ما بين صغير وكبير - بل قد زادت مؤلفاته على ألف عند وفاته - فآلف كتاب « جامع الآثار » فى هذا الباب ويفنى عن وصف هذا الكتاب ذكر اسم مؤلفه العظيم .. ثم ذكر العلامة الكوثرى أمر الشيخ لابن اخته المحدث الناقد الشيخ ظفر أحمد التهانوى بتكملة بعد استيفاء أدلة أبواب الفقه مع الكلام على كل حديث وقال بعدها : والحق يقال : انى دهشت من هذا الجمع وهذا الاستقصاء ومن هذا الاستيفاء البالغ فى الكلام على كل حديث بما تقضى به الصناعة متنا وسندا من غير أن يبدو عليه آثار التكلف فى تأييد مذهبه ، بل الانصاف رائده عند الكلام على آراء أهل المذاهب .. » اه .

(١) قال عنه الشريف الحسنى فى النزهة ج ٨ ص ١١٥ : (الشيخ العالم الصالح المحدث حسين أحمد بن حبيب الله الحنفى الفيض آبادى ولد فى التاسع عشر من شوال سنة ست وتسعين ومائتين وآلف بقرية (بانكرمئو) من أعمال (أناؤ) وتلقى مبادئ العلوم فى « تانده » وسافر سنة تسع وثلاثمائة وألف وهو فى الثالثة عشرة من عمره الى المدرسة العربية « بديوبند » ومكث سبع سنين وقرأ فاتحة الفراغ وأخذ الحديث عن العلامة محمود حسن الديوبندى وتفقه عليه ولازمه مدة طويلة وقصد « كنكوه » وباع الامام العلامة المحدث رشيد أحمد الكنكوهى وهاجر والده الى المدينة المنورة مع عياله سنة ست عشرة وثلاثمائة وألف فرافقه ، ولقى بمكة الشيخ الأجل امداد الله التهانوى المهاجر الى مكة المكرمة وهو شيخ شيخه واستفاد منه واحتفظ بصحبته ودخل المدينة وأقام هناك على قدم صدق واخلاص وتوكل وتقصف وطلبه شيخه العلامة رشيد أحمد الى « كنكوه » سنة ثمان عشرة وثلاثمائة وألف ومكث سنتين وأجازه الشيخ ، ثم رجع الى الحجاز سنة عشرين وثلاثمائة وألف وتصدر للتدريس فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم محتسبا متطوعا ، يدرس فى الحديث والتفسير والفقه يشتغل به من بعد قيام الليل الى ما بعد العشاء ومكث الى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف يزور فى خلالها الهند ويحضر دروس شيخه العلامة محمود حسن ويعود الى المدينة المنورة الى أن سافر شيخه محمود حسن سنة ثلاث وثلاثين للحج والزيارة ودخل المدينة سنة أربع وثلاثين : فلأزمه الشيخ حسين أحمد وقدم مكة معه وكان ذلك فى أثناء الحرب العالمية وخروج الشريف حسين وبغية على الدولة المتبوعة العثمانية ومعه المولوى حسين أحمد والمولوى عزيز كل والحكيم نصرة حسين الكوروى وغيرهم من أصحابه ، وأسروهم ولأه الأمر فى الحجاز وأسلموهم الى الحكومة الانجليز فنقلتهم الى « مصر » ثم الى « مالطة » حيث وصلوا سلخ ربيع =

= الآخر سنة خمس وثلاثين ولبثوا فيها ثلاث سنين وشهرين ومات الحكيم نصره حسين « بمالطة » وجد الشيخ حسين أحمد في خدمة أستاذه وفي العبادة والمطالعة وحفظ القرآن الكريم وصدر الأمر باطلاق سراحهم لثمان بقين من جمادى الآخر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف وعادوا الى الهند مكرمين ومرض الشيخ محمود حسن مرضه الأخير فكان بجانبه يخدمه ويسهر عليه وأمره الشيخ بالتوجه الى كلكته يشتغل استاذا في المدرسة التي أسسها مولانا أبو الكلام وقد سألته أن يرسل أحد خاصته فأثر الشيخ حسين أحمد رضا شيخه على هوى نفسه فلم يسافر الا وفوجى بنبا وفاته فعاد الى « ديوبند » وقد دفن الشيخ وتوجه الى « كلكته » واشتغل مدة في هذه المدرسة ثم انتقل الى « سلهت » عاصمة ولاية « آسام » ومكث ست سنين يدرس الحديث الشريف ، ويربى النفوس وينفخ في الناس روح الأنفة والاباء وحب الحرية وانتفع به خلائق لا تحصى وحميت حركة التحرير والثورة السياسية في الهند فخاض فيها وأفتى بحرمة العمل في الجيش الانجليزى وسجن في منتصف المحرم سنة أربعين وثلاثمائة وألف وحوكم في « كراتشى » محاكمة مشهورة وحكم عليه بسجن سنتين مع الأشغال بالأعمال الشاقة وأطلق سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة وألف .

ولما اعتزل الشيخ العلامة أنور شاه الكشميرى شياخة الحديث في « ديوبند » وانتقل الى « دابهيل » وقع الاختيار على الشيخ حسين أحمد رئيسا للمعلمين وشيخا للحديث في دار العلوم فانتقل الى ديوبند سنة ست وأربعين وثلاثمائة وألف واستقل بتدريس الحديث ورئاسة المدرسة فحافظت على شهرتها ومركزها وثقة الناس بها وشمر عن ساق الجد والاجتهاد في تدريس الحديث الشريف وفي بث روح النخوة والاباء في المسلمين وجمع بين التدريس والعمل في الحقل السياسى بهمة نادرة وقوة وإرادة وجال في الهند طولا وعرضا يحضر الحفلات ويلقى الخطب والمحاضرات ويتحمل مشاق السفر ويسهر الليالى وهو محافظ على أوقاته وأوراده يجهد نفسه ويحى ليله في المطالبة والتدريس مع بشاشة دائمة وتواضع مفرط واکرام للوافدين وقضاء لحق الزائرين والسائلين . . وبسط في ذكر جهاده وثوراته ضد الانجليز حتى تحررت البلاد ، ثم قال : واعتزل الشيخ السياسة العملية بعد استقلال البلاد وعكف على الدرس والافادة والدعوة الى الله وتربية النفوس لا يتصل بالحكومة ورجالها حتى أنعم عليه رئيس الجمهورية في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وألف برتبة فخرية فرفض ذلك قائلا : انه لا ينسجم مع طريقة أسلافه . وبقي في « ديوبند » يدرس الحديث الشريف ويتجول في الهند يدعو المسلمين الى التمسك بالدين واتباع الشريعة الفراء واقتفاء السنن النبوية واصلاح الحال والاكثار من ذكر الله وقد عطف الله عليه القلوب والنفوس وغرس حبه في

نور الله مرقدہ وأعلى الله مراتبه كثيرا لأن وفاته كانت في الثاني عشر من جمادى الأولى عام ١٣٧٧ هـ بديوبند ، وأما محسنى امام التواضع والانكسار سيدى الشيخ مولانا الحاج الشاه (١) عبد القادر الرائى فورى

= اهل الخير فأقبلوا عليه زرافات ووحدا ، وتقاطر عليه الناس من كل صوب وانهاالت عليه الدعوات وهو يتقبلها بقلب طيب ويتحمل في سبيلها المشاق .. حتى وافاه الأجل في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة وألف وصلى عليه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى في جمع حاشد لا يحصى ودفن بجوار استاذہ الشيخ محمود حسن الديوبندى والامام محمد قاسم النانوتوى .

كان الشيخ حسين احمد من نوادر العصر وأفراد الرجال صدقا واخلاصا وعلو همة وقوة ارادة وشهامة نفس وصبر على المكاره ومسامحة للأعداء يشفع لهم ويسعى في قضاء حوائجهم وثبات على المبدأ ورحابة ذرع وسعة صدر ، وجمع للاشتات من الفضائل والمتناقضات من الأعمال له نزاهة لا ترتقى اليها شبهة وهمة لا تعرف الفتور والكسل ، واشتغال دائم لا يتطرق اليه الملل - كانت له اوقات مشغولة منظمة - وكان في آخر عمره غلبت عليه الحمية الدينية والفيرة للشرع والسنة النبوية فكان لا يتحمل تعريطا فيها ، وقد تعثر به الحدة في ذلك ويطلو صوته ، ويشدد الانكار على من خالف السنة او استخف بشعائر الاسلام ، وكان شديد الحب لاساتذته ومشايخه شديد الفيرة فيهم وكان ينتقد شيخ الاسلام ابن تيمية وينكر عليه فيما تفرد به من المسائل والآراء شديد الانتصار للشيخ محيى الدين ابن عربى .. وكان شديد البغض للانجليز كشيخه محمود حسن شديد الحب والبغض في الله .. الخ ما ذكره مفصلا في النزهة .

(١) هو الامام الكبير والعارف الشهير الشيخ عبد القادر ابن الحافظ احمد السرکودوى ثم الرائى فورى حفظ القرآن الكريم في صباه وقرا الكتب من مبادئ العلوم في وطنه ثم سافر وارتحل لطلب العلم فأقام لذلك بمدارس شتى منها جامعة مظاهر العلوم بسمارنبور ودرس الفقه والتفسير وبقية العلوم ثم بايع الشيخ الكبير عبد الرحيم الرائى فورى ولازمه أربعة عشر سنة حتى توفاه الله سنة ١٣٣٧ هـ وفي هذه المدة خدم شيخه سفرا وحضرا ليلا ونهارا حتى كان من خلص خدامه وخلفائه وقد ناب منابه بعد وفاته في زاويته برائى فور ووقف نفسه لاصلاح العباد وتزكية النفوس وكثرت رغبة الناس اليه ولم يزل يزداد اهل ارادته من العلماء والعامة حتى طار صيته واشتهر اسمه في القرى والامصار وارتحل اليه الصغار والكبار وكان لمجلسه وصحبته تأثير عجيب فلا يزال يجالسه شخص مدة يسيرة الا ويجد =

نور الله مرقدہ فقد عاصرتہ كثيرا جدا اذا أن وفاته كانت فی الرابع من ربيع الأول سنة ۱۳۸۲ ھ بلاهور وقد تشرفت بالحضور فی رحابہ الکریمۃ کثیرا - وقد أدركت من عصر العم المحترم امام الدعوة والتبلیغ سیدی الشیخ مولانا محمد الیاس (۱) کثیرا كذلك لأن وفاة العم الکریم كانت فی الحادی والعشرین من رجب عام ۱۳۶۳ ھ .

= نفسه تواقۃ لذكر الله ومناجاته ترغبا الى الآخرة وترهده عن الدنيا - وكان نور الله مرقدہ یمتاز بالتواضع وفناء الذات فی ذکر الله ومناجاته ومحبتہ وورث عن شیخہ حبہ لنشر القرآن الکریم والترغیب فی تأسيس المدارس لذلك وكان شدید المحبة لأصحاب رسول الله صلى الله علیه وسلم وشدید الکراهیة والانکار علی من یبغضهم وبتقسیم البلاد الى الهند وباكستان انقسم مریدوہ فاتخذ من رائی فور مرکزاً وكان یسافر بین الحین والحين الى باكستان باصرار من مریدیه ومحبيه حتی توفاه الله تعالى فی أثناء سفرة من هذه فی لاهور بباكستان فی وسط ربيع الأول سنة ۱۳۸۲ ھ ودفن فی موطنه دھودیان من أعمال سر کودھا .

(۱) هو الامام الجلیل والداعیة الشہیر العارف بالله مؤسس جماعۃ التبلیغ المنتشرة فی آفاق العالم کلها ولد قدس سرہ سنة ۱۳۰۳ ھ وسمى بالیاس اختر « وهو اسمه التاریخی » ولكنه اشتهر بمحمد الیاس ودرس علی أخیه الشیخ المحدث الجلیل محمد یحیی الكاندهلوی فأخذ عنه التفسیر والحديث والفقه وبقیة العلوم باتقان تام وامعان کامل وسمع صحیح البخاری وسنن الترمذی من العلامة المجاهد شیخ الهند محمود حسن الدیوبندی عدو الانجلیز اللدود ومحاربهم وقد بايعه الشیخ محمد الیاس علی القتال .

وأقام لدى الامام رشید أحمد الکنکوهی عشرين سنة بعد مبايعته فی السلوک فی صباه یرتشف العلم من أخیه الشیخ محمد یحیی ويعمر باطنه بأنفاس الامام الکنکوهی وتربیتہ .

وبعد ارتحال الامام الربانی الکنکوهی الى جوار رحمة ربه العلی سنة ۱۳۲۳ جدد البیعة علی يد أكبر خلفائه العلامة العارف الشیخ خلیل أحمد المحدث السیهارنبوری ولم یزل یستفیض من نفسه الکریمۃ وأنفاسه الشریفۃ حتی اناره الله ظاهرا وباطنا فتزین ظاهره بالشرع المتین وباطنه بالطریق القویم وقد قام بالتدريس فی جامعة مظاهر العلوم سنین عديدة وبعد وفاة أخیه الشیخ مولانا محمد الكاندهلوی انتقل الى کورة حضرت نظام الدین بدلهی ليقوم بأعباء المدرسة التي كان قد أسسها والده مولانا الشیخ محمد اسماعیل ثم رقاها أخوه الشیخ محمد ، ثم ألقى الله فی روعه أن یقوم =

==بإصلاح عباد الله ودعوتهم الى الدين وأن يبذلوا جهودهم وأموالهم ويتركوا
أوطانهم لأصلاح أنفسهم ودعوة العباد الى الله فاجتهد لذلك اجتهدا مريرا .

يجول في الصحارى والبرارى والقرى والمدن راكبا ومشيا
بكل اخلاص وفراغ قلب يريد أن يصل الى عامة المسلمين
ويحرضهم ويوقظهم من غفلتهم يتملق الى كل واحد منهم حتى
وان كان من كان ، يدعوهم ليقوم معه لدين الله ويتحمل ايذاء الناس وسخريتهم
وغير ذلك من المصائب والآلام التى مازالت تأتى على الصديقين من أولياء
الله الصالحين فلا هم له ولا مطلب من أى حركة أو عمل الا ايقاظ الناس
من غفلتهم وتحريضهم على التضحية والعمل لدين الله هذا مع كونه نحيف
الهيئة ضعيف البنية قصر القامة لو رأيت وجده ان ليس فيه الا عدة
عظام فى جلد لا لحم فيه أقر الله عينه فى آخر حياته فشاركه فى عمله هذا
تلاميذه وأصحابه ومريدوه وخاصة نجله العظيم الفريد فى الخصال الحميدة
العلامة الجليل الشيخ محمد يوسف الكاندلوى فانتشروا كلهم فى الآفاق
وزادت الجماعة ولا زالت فى زيادة مستمرة تنشر الخير وتضىء فى الظلمات
لخلق الله حتى يرجعوا الى ربهم وكان الشيخ قدس سره أبيض اللون
يشعشع نور الولاية من جبينه الأزهر تمتلئ القلوب لرؤيته محبة لجمال
باطنه ورعا لكماله وتقواه من ربه وكان عابدا زاهدا قانتا خاشعا جوادا
كريما حلما وقورا صبورا مجتهدا فى الأعمال الصالحة يقوم الليل بمواظبة
مجدا فى الدعوة والتبليغ تظهر الهمة العليا من هامته وتطفح العزيمة من
جبينه شديد الاتباع لهدى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حريصا عليه
فى جميع الأحوال والأحيان قوى الرابطة به وشديد المحبة لأصحابه رضى
الله عنهم كثير الحكاية عنهم وقد أمر ابن أخيه شيخنا الشيخ محمد زكريا
ان يكتب رسالة خاصة فى حكاياتهم رضى الله عنهم ليتداولها المسلمون عامة
حتى يتعرفوا عليهم رضى الله عنهم كان كلامه حكمة ومعرفه كلها نور وبرهان
وقد جمع الشيخ أبو الحسن الندوى بعضها فى رسالة مستقلة بالأردنية
توفى رحمه الله فى سنة ١٣٦٣ هـ وخلف بعده ابنا هو العلامة الجليل
الشيخ محمد يوسف صاحب حياة الصحابة وأمانى الأخبار . وابنة تزوجها
العلامة الكبير شيخ المشايخ الشيخ محمد زكريا الكاندلوى وصديقة جارية
لا مثيل لها هى جماعة منتشرة فى أنحاء العالم اجمع تعمل ليلا ونهارا لآحياء
دين الله على نهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

إذا جمعنا يا جرير المجامع

وقال شعراً بالأوردية ترجمته بالعربية :

١ - ان أصحاب هذه الأجساد النورانية هم الذين اذا رؤوا ذكر الله وهؤلاء هم ورثة النبوة وهؤلاء هم ظل الرحمن جل شأنه .

٢ - هؤلاء الذين لنومهم فضيلة على العبادات وهم الذين يباهى بتقواهم المسلمون .

٣ - هؤلاء هم الذين تليق بشأنهم وراثته النبوة ، وهؤلاء هم الذين حملهم الاعتناء بالشعائر الدينية .

٤ - يعيشون في الدنيا ليست لهم بها أية علاقة يشون في النهر ولا يسس أبدا الماء ثيابهم .

٥ - ان جلسوا في الخلوة تلمذوا بطعم الخلوة وان جاءوا الى خلوتهم فخرص لهم المتكلمون .

وقد وضحت عصور هؤلاء الأكابر كلهم قدس الله أرواحهم لأن
بركة شمس الهداية هؤلاء كانت كل ذرة من منطقة « دواآبة »
مركزا لكل من الشريعة والطريقة •

وكان مستحكما في بال كل شخص ببركتهم أن كلا من الشريعة
والطريقة متلازمة للأخرى • وكان كل واحد من هؤلاء الأكابر نور الله
مراقدهم مصداقا حقا لقول الشاعر الفارسي :

بركفی جام شریعت برکفی سندان عشق
هر هوست کی نداند جام وسندان باختن

لذلك فقد كان راسخا في القلب منذ الطفولة وجود العلاقة الوثيقة
والتلازم الأبدى للشريعة والطريقة لدرجة أنه كان لا يلتفت الى أى
شئ بخلاف ذلك • وهذه قاعدة مسلمة : أن الشئ الذى يرسخ في
القلب من الصغر فانه يكون « كالنقش في الحجر » فان وجود لدوغ
الحية وافتراس الأسد يتيقن به كل شخص بحيث أنه يصعب جدا اخراج
هذا اليقين من القلب • مع أن أكثر الناس لم يشاهدوا الحية وهى تلدغ
ولا الأسد وهو يفترس •

وبعد ذلك في زمن طلبى للعلم عند دراستى لمشكاة المصابيح •
(وهو عامة أول كتاب يدرس في مادة الحديث الشريف بمدارس الهند
وباكستان وبنغلاديش) وفي بدايته قرأت في حديث جبريل المعروف
« وكان لتعليم الأمة أمر دينها » بعد الايمان والاسلام مباشرة قوله « وما
الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن •• الخ » هذه هى
« الطريقة » وهذا هو « التصوف » وهو « السلوك » بعينه •

ومهما سمى هذا « الفن الشريف » فان كل ذلك داخل فيه كما
سأذكر ذلك مفصلا في ذيل (الطريقة) ان شاء الله •

وبعدها كلما درست ودرست في كتب الحديث الشريف أخذ يزداد

رسوخا وثبوتا في القلب الربط الوثيق والتلازم اللازم بين الشريعة والطريقة بحيث لو بلغنى عن أحد شيء في خلاف أحد منهما ظننته جهلا منه أو تجاهلا فان الشريعة المطهرة التي مأخذها : (القرآن الكريم - وتفسيره : أفعال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وأقواله - ولب لبابه : الفقه) - ما بلغنى شيء بخلافه الا ورأيت مما لا يلتفت اليه ولا يعاب به البتة .

وعندما كان يبلغنى قول بعض الجهلة عن العلوم الدينية أن « ماتفهمه من القرآن الكريم مباشرة بفهمك هو الأصل ولا حاجة في ذلك الى كتب التفسير وغيرها ، كنت اراه هراء ونوعا من الجنون - لأنه لو كان الأخذ من القرآن مباشرة أمرا سهلا ميسورا لما كانت هناك حاجة الى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم » وكذلك بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » وانما كان علقت نسخة من المصحف الشريف في وسط الكعبة المشرفة فأخذ الناس منه . وان من أعظم أسرار بعثة الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام أنهم يعرضون للخلق الأوامر الالهية بالصورة العملية .

ومن فضل الله الكريم وله الحمد والشكر سبحانه وتعالى أنه لم يشتهه على في هذا الشأن قط - بل ان كثيرا من المسائل والفروع قد رسخت في الذهن بناء على ذلك بحيث لم يبق فيها أى اشكال أو غموض .

فان النبي صلى الله عليه وسلم جاءت ذاته الشريفة لعرض الشريعة بالصورة العملية ، لذلك فان كل تلك الأشياء التي لم تكن منافية لشأن النبوة صدرت منه صلى الله عليه وسلم شخصيا : كعدم استيقاظه صلى الله عليه وسلم مع جماعة من الصحابة لصلاة الصبح ليلة التعريس مع أن بعض عبيد عبيد عبيدهم يقول : انه من بعد أخذ البيعة على شيخه تبدأ معه من الساعة الثانية بعد نصف الليل حككة في جسمه بحيث لا يستطيع بسببها النوم بعدها (فلم يفته التهجد من بعد البيعة الى الموت) .

وقد اختلف المحدثون في أن قصة نومه صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر كانت مرة واحدة فقط أم عدة مرات ؟ وقد بسطت ذلك في الأوجز (١) وفي رأيي أن ذلك وقع له صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات •

وفي القصة شيء يتعلق بالتصوف أيضا - فانه لم تكن عاداته الشريفة صلى الله عليه وسلم أن يسأل قبل المنام أنه من يوقظنا ؟ وقد ذكر في هذه القصة كما في البخاري « عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال سرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فقال بعض القوم لو عرست بنا يا رسول الله قال : أخاف أن تناموا عن الصلاة ، قال بلال : أنا أوقظكم » الحديث وفي القصة مسألتان في السلوك : أولاهما : قوله صلى الله عليه وسلم : « أخاف أن .. الخ » مع أن عامة العرب كانت تسافر أول الليل ويستريحون آخره • فلم قال في هذه الليلة بالذات : « أخاف أن .. الخ » - علمنا من ذلك أنه بعض الأحيان تنكشف لقلوب المشايخ بعض الحقائق المتعلقة بالمستقبل أو يظهر لهم شيئا منه •

وثانيهما : قول بلال رضى الله عنه « أنا أوقظكم » فذكر في الأوجز : قال المشايخ « هذا كان تنبيها لبلال إذ لم يفوض الأمر الى الله اذا أظهر خوف فوت الصلاة نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أوقظكم » •

ولكن فيه اشكال : أنه عند أكثر العلماء وقعت القصة عدة مرات وهذا القول من سيدنا بلال رضى الله عنه لم يثبت الا مرة واحدة • والجواب ظاهر : وهو أن هذه المرة حصل بسبب قول بلال - وأما في المرات الأخرى فبأسباب أخرى •

وكذلك لم تشكل على الأحاديث التي فيها أنه صلى الله عليه وسلم

(١) « أوجز الممالك الى موطأ مالك » شرح نفيس لكتاب السنة الأول (موطأ مالك) طبع في خمس عشرة مجلد كبار يعد موسوعة حديثية كبرى من نوادر المصنفات تظهر منه مكانة شيخنا الرفيعة وباعه الطويل في هذا الفن الشريف . نشرته المكتبة الامدادية بمكة المكرمة .

حصل له النسيان في الصلاة لأنه صلى الله عليه وسلم قد قال بنفسه :
انى لا أنسى ولكن أنسى لأسن « وقد بسطت على هذا الحديث في
الأوجز في « باب العمل في السهو » .

وكذلك ما صدر من المعاصي الكبيرة من بعض الصحابة رضى الله
عنهم لم يختلج في قلبى منها أى شىء أبدا مع أن المشايخ الكبار بعيد
جدا أن تصدر منهم أمثال هذه المعاصي — هذا وإن أكبر شيخ وأعظم
ولى لا يمكن أن يبلغ الى درجة أدنى واحد من الصحابة رضى الله عنهم
ولكن بفضل الله وكرمه لم تشكل على هذه الروايات أبدا وببركة نعال
الأكابر وببركة الأحاديث الشريفة دائما كان في فكرى أن هذه الأفعال
صدوت منهم رضى الله عنهم تكوينيا لتكميل تعليم الدين .

قال الشاعر الفارسي « تومشق نازكر خون دوعالم میری کردن بر »
أى « تعالى يا حبيبي واقتل العالم كلها واجعلها على رقبتى » فإن هذه
الأنفاس القدسية والذوات الكريمة قدمت أنفسها لرسول الله صلى الله
عليه وسلم قائلة بلسان حالها : هاكم كملوا شريعتكم المطهرة فاننا
مستعدون بأن نترجم أجسادنا ونقطع أيدينا وتجلد أبداننا وتقام علينا
حدود الله حتى يكتمل عرض الشريعة الغراء بالصورة العملية .

وعندى أن هؤلاء السادة هم مصداق الآية الكريمة في القرآن
(فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) وهؤلاء هم مصداق تلك الأحاديث
الشريفة التى ورد فيها أن بعضهم يقال له : اعطوه بدل كل سيئة
حسنة .. الخ .

فقد روى عن أبى ذر رضى الله عنه كما في صحيح مسلم أنه قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انى لأعلم آخر أهل الجنة دخولا
الجنة وآخر أهل النار خروجا منها رجل يؤتى به يوم القيامة (ولا يكون
المراد فى مثل هذا المقام شخصا معينا وإنما يكون المراد طبقة — كل فرد
منها يجازى بمثله كما يدل على ذلك أن الرواية الأخرى فيها لفظ
« الناس » بدل لفظ « رجل » وهو صريح فيما ذكرناه) فيقال اعرضوا

عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال
عملت يوم كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا وكذا - فيقول : نعم -
لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه ، فيقال
له فان لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول : رب قد عملت أشياء
لا أراها ها هنا - فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك
حتى بدت نواجذه •

وفي رواية أخرى أخرجه ابن كثير عن ابن أبي حاتم عن أبي هريرة
رضي الله عنه ، قال ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا (أى تمنوا
في نفوسهم) أنهم قد استكثروا من السيئات « وكذا اخرج عن سلمان
رضي الله عنه قال « يعطى الرجل يوم القيامة صحيفة فيقرأ أعلاها فاذا
سيئاته فاذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فاذا حسناته ثم ينظر في أعلاها
فاذا هي قد بدلت حسنات » اه •

وهنا أمر مهم جدا وهو أن هذا من قبل المنحات الملكية كأن يعفى
القاتل من الشنق أحيانا بالمنحة الملكية (في الدساتير الوضعية) ولكن
لا يجرؤ أحد على القتل على أمل أن ينجو من الشنق بالمنحة الملكية •

ولكن بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم فاني أوقن بأن جميعهم ان
شاء الله داخلون في هذا - لأن تفصيل قصص معاصيهم الواردة في
الأحاديث يدل على أنهم يستحقون هذه المنح الملكية •

انظر سيدنا ماعزا رضي الله عنه يصدر منه الزنى فيأتى الى الرسول
صلى الله عليه وسلم ويقول يا رسول الله : طهرنى وأقم على كتاب الله
والرسول صلى الله عليه وسلم يرده ويعرض عنه ويقول له : ويحك ارجع
فاستغفر الله وتب عليه فيذهب عنه قليلا ثم يضطرب ويرجع ويعيد ما قاله
فيرض عنه صلى الله عليه وسلم كما أعرض في الأولى ويأمره بالرجوع
والاستغفار والتوبة الى الله وهكذا •• أربع مرات •• الرسول صلى الله
عليه وسلم يعرض عنه ويأمره بالاستغفار ويعيده ، وهو يرجع في كل مرة

ويقول له طهرني يا رسول الله - وبعد المرة الرابعة يأمر برجمه وعلى القواعد الشرعية •

وبعدها يأتي رجلان من الصحابة ويقول أحدهما لصاحبه : انظر الى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم الكلب فسكت عنهما (أى الرسول صلى الله عليه وسلم) ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال : أين فلان وفلان ؟ فقالا : نحن ذان يا رسول الله ، قال : انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا : يا نبي الله من يأكل من هذا ؟ قال : فما نلتما من عرض أخيكما آتفا أشد من أكل منه ، والذي نفسى بيده انه الآن لفي أنهار الجنة ينقمس فيها ، وفي بعض الروايات كما في مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال عنه : « لقد تاب توبة لو قسمت بين مائة لوسعتهم » •

وهكذا انظر قصة المرأة الغامدية رضى الله عنها - تأتي الى الرسول صلى الله عليه وسلم وتقول له يا رسول الله طهرني فيقول لها ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبى اليه فتقول رضى الله عنها أراك تريد أن ترددنى كما رددت ما عز به مالك ، قال : وما ذاك ؟ قالت : انها حبلى من الزنا فقال لها : حتى تضعى ما فى بطنك • فرجعت حينئذ وأتت بعد ولادته فردها صلى الله عليه وسلم حتى ترضعه وتقطمه فلما فطمته أته بالصبي فى يده كسرة خبز - ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم برجمها وحسب القواعد الشرعية - وعند الرجم يأتي خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله صلى الله عليه وسلم سبه اياها فقال مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، رواه مسلم وغيره • قال النووى فى شرح مسلم : فيه ان المكس من أقبح المعاصى والذنوب الموبقات وذلك لكثرة مطالبات الناس وظلاماتهم وغير ذلك •

وفى بعض هذه الروايات لمسلم أن سيدنا عمر رضى الله عنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم : تصلى عليها يا نبي الله وقد زنت ؟ فقال صلى الله

عليه وسلم : لقد تابت توبة لو قست بين سبعين من أهل المدينة لو سعتهم
وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى ؟ •

وقد وردت في كتاب الحدود في كتب الحديث روايات عديدة لهذه
القصص • هل فينا أحد مهما عظم مقامه من يضطرب هذا الاضطراب على
ارتكاب المعاصي •

يقول سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : ان المؤمن يرى ذنوبه
كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه وان الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر
على أنفه فقال به هكذا أى بيده فذبه عنه • « رواه البخارى — كذا في
المشكاة » •

ان الله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة يعلم معاصي الجميع
وأحوالهم التى يكونون عليها بعد ارتكاب المعاصي — وترى أن الله سبحانه
وتعالى مع صدور بعض المعاصي منهم يصدر فى شأن الصحابة رضى الله
عنهم قرارات فى أماكن شتى من كتابه العزيز بالرضا عنهم منها :
(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان
رضى الله عنهم ورضوا عنه واعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين
فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) •

ونقل فى الدر المنثور عن ابن زيد فى تفسير قوله « والذين اتبعوهم
بإحسان » أنه قال هم : من بقى من أهل الاسلام الى أن تقوم الساعة •

لذلك فان الطعن فى الصحابة رضى الله عنهم أو المشايخ العظام أو
إساءة الأدب معهم اذا صدرت منهم معصية ما يسبب الحرمان والعياد
بالله • لأن الله تعالى راض عن هؤلاء وأنت ساخط عليهم •

وقد وردت فى القرآن العزيز آيات عديدة فيها بشارات الرضوان
والمغفرة للصحابة رضى الله عنهم — وهذه المعاصي يعلمها أيضا علام
الغيوب — ولكن الله أعلم بأحوالهم سبحانه فبشرهم مع وجود هذه
المعاصي ووعدهم بالمغفرة ودخول الجنة والرضوان عليهم — فالطعن فى

الصحابة أو اساءة الأدب معهم والحال هذا يعتبر جرأة عظيمة وحماسة مهلكة .

وأشد منه أن يتجرأ أحد بحجة ابتلاء هؤلاء السادة بهذه الهفوات على ارتكاب المعاصي - لأن العفو عنهم رضى الله عنهم قد ثبت بالآيات القطعية الصريحة فالوقوع فى المعصية بحجة وقوعهم فيها مهلكة عظيمة وطامة كبرى يقول البارى جل شأنه عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » .

وقد فسر الفسوق : بالمعصية الكبيرة - والعصيان بالصغيرة فالصحابة رضى الله عنهم قد عفى عنهم الكبائر والصغائر ان شاء الله فالطعن فيهم لمعاصيهم خطر عظيم والجرأة على المعصية بحجة ابتلائهم بها أخطر وأهلك .

قبيل فتح مكة اطلع حاطب بن بلتعة أهل مكة بغزو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رسالة أرسلها - وعثر على هذه الرسالة فغضب عمر رضى الله عنه (وكان له ذلك) فقال ايذن لى يا رسول الله فأضرب عنق هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم انه شهد بدرا وما يدريك لعل الله نظر الى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية الحنبلى الحرانى رحمه الله فى العقيدة الواسطية ص ١٤٢ ما لفظه : (ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم الله به فى قوله تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) وطاعة للنبي صلى الله عليه وسلم فى قوله (لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والاجماع من فضائلهم ومراتبهم ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو

صلح الحديدية وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل • ويقدمون المهاجرين على الأنصار ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بل لقد رضى الله عنهم ورضوا عنه وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة • • ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون ان هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه والصحيح منه هم فيه معذورون اما مجتهدون مصيبون واما مجتهدون مخطئون وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الاثم وصغائره بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة لهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم ان صدر حتى أنهم يغفر لهم السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم • • ثم اذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه أو غفر له سابقته أو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذي هم أحق الناس بشفاعته أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه — فاذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين ان أصابوا فلهم أجران وان أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور — ثم ان القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الايمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح — ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقينا انهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم • وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله •

وما ذكره شيخ الاسلام حق وعدل — فالآيات القرآنية قد وردت بكثرة في بيان مناقب وفضائل هؤلاء السادة النجباء وفي بيان المغفرة لهم وتكفير السيئات عنهم رضى الله عنهم اجمعين — يقول عز وجل (للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون • والذين تبوأوا

الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) •

ويقول أيضا (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب) ومثل هذه الآيات التي فيها ذكر المغفرة لهؤلاء الكرام والتكفير عن سيئاتهم حتما بصيغة التأكيد كثيرة ولكن مع الأسف نجد أن بعض الحمقى يتبجحون في حقهم وعلى المثل الهندي (المدعى كسلان والشاهد نشيط) ويتقولون عليهم أنهم •• وأنهم ••

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، ومن أحق من الصحابة بولاية الله عز وجل ، ويقول صلى الله عليه وسلم أيضا « الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا (أى للطعن فيهم) من بعدى فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، من آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » •

يقول الامام الحافظ أبو عبد الله الذهبي الشافعي رحمه الله تعالى في كتابه الكبائر « وانما يعرف فضائل الصحابة رضى الله عنهم من تدبر أحوالهم وسيرهم وآثارهم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد موته من المسابقة الى الايمان والمجاهدة للكفار ونشر الدين واطهار شعائر الاسلام وأعلاء كلمة الله ورسوله وتعليم فرائضه وسننه ولولاهم ما وصل إلينا من الدين أصل ولا فرع ولا علمنا من الفرائض والسنن سنة ولا فرضا ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئا •

فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خرج من الدين ومرق من ملة المسلمين لأن الطعن لا يكون الا عن اعتقاد مساوئهم واضمار الحقد فيهم وانكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم ومالرسول الله صلى الله عليه

وسلم من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبهم ، ولأنهم أَرْضَى الوسائل من المأثور والوسائط من المنقول ، والطعن في الوسائط طعن في الأصل ، والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول ، وهذا ظاهر لمن تدبره وسلم من النفاق ومن الزندقة والالحاد في عقيدته - وحسبك ما جاء في الأخبار والآثار من ذلك كقول النبي صلى الله عليه وسلم « أن الله اختارني واختار لي أصحابا فجعل لي منهم وزراء وأنصاراً وأصهاراً فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً » .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال اناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : انا نسب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اني الله اختارني واختار لي أصحابي وجعل لي أصحابا واخوانا وأصهاراً وسيجيء قوم بعدهم يعيبونهم وينقصونهم فلا تواكلوهم ولا تشاربوهم ولا تتكحلوهم ولا تصلوا عليهم ولا تصلوا معهم » انتهى .

وقد ذكر الحافظ الذهبي رحمه الله روايات أخرى أيضا في كتابه الكبائر ونقل عن العلماء قولهم : من ذم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وتتبع عثراتهم وذكر عيبا وأضافه اليهم كان منافقا .

وهذه الرسالة المختصرة لا يمكن أن تحصى كل الآثار التي وردت فيمن طعن في الصحابة رضى الله عنهم أو أظهر معايبهم أو نشرها أو انتقصهم .

وكذلك والحمد لله لم يختلج في قلبي شيء من ناحية الروايات المتعلقة بقصة « فدك » وكم بلغ سمعى من الاشكالات والاعتراضات المتعلقة بها ولكنى كنت دائما أفكر أن بضعة الرسول صلى الله عليه وسلم التى قضت أيامها في حياة والدها زاهدة قاتلة متزهة عن زخارف الدنيا وشهواتها تتحمل الشدائد بنفسها حتى تأثر جسمها الشريف من حملها قرب الماء هل يعقل ويتصور من مثلها رضى الله عنها أنها تنكب على حطام

الدنيا بعد والدها حتى أنها تترك لأجله مكالمة الخليفة الصديق رضى الله عنه ؟ .. حاشا لله ..

إن هذه المخاصمة بين الزهراء والصديق رضى الله عنهما وكذا بقية مشاجرات الصحابة رضى الله عنهم أجمعين بقى صدرى منشرحا بالنسبة لها جميعا أنها كانت مظهرا للقوة الايمانية الكامنة فى أصحابها .

فالسيدة فاطمة والسادة على والعباس رضى الله عنهم ما كان يقربهم حب الدنيا الزائفة . وكيف يتصور مع أننا نجد أن عبيد عبيدهم تكون قلوبهم خالية منه بل ومبغضة إياها .

وانما هذه المشاجرات كلها كانت ايمانية اعتقادية علمية — فالمسألة هى : أنه هل يورث الأنبياء أم لا ؟

الشيخان : الصديق والفاروق رضى الله عنهما كانا يريان العموم فى قوله « ما تركنا صدقة » — وهؤلاء السادة كانوا يرون فيه الخصوص . فكانت هذه أبحاثا علمية اجتهادية بحتة ..

أما أن السيدة فاطمة رضى الله عنها لم تكلم الصديق رضى الله عنه كما ورد فى بعض الروايات — قالت الشراح : أن المراد به أى لم تكلمه فى أمر فذلك بمعنى أنها حزنّت على سؤالها ثم لم تكلمه بعد فى هذا الأمر — وقد أيدّه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى بعدة روايات .

هذا رأى شراح الحديث المكرمين — أما هذا الفقير فكان فى رأيه دائما أن مطالبتها رضى الله عنها المال « فذلك » لم يكن قطعا « وحاشاها » لحب فى المال وانما كانت المطالبة أصلا فقط لتنفيذ الأمر الشرعى فى هذه المسألة — انها كانت ترى شرعا أنها مستحقة لهذا المال اذن فيجب أن ينفذ أمر الشرع المتين — فلذا نرى أنه عندما رفض الصديق رضى الله عنه تنفيذ هذا الحق الشرعى « على رأيها » امتنعت أن تكلمه وغضبت لله تعالى فى ذلك — وهذا عندى القمة فى التصلب فى دين الله عز وجل وهم جميعا رضى الله عنهم أهل ذلك ولذا تجد أن السادة : العباس وعلى رضى

الله عنهما عرضا هذه المسألة على سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته أيضا لأنه كان من الممكن أن يكون رأى عمر واجتهاده موافقا لرأيهما فى هذه المسألة - ولكن حدث أن رأى عمر أيضا كان نفس رأى الصديق رضى الله عنه •

وهكذا مشاجرات الصحابة رضى الله عنهم بعد ذلك - فلم يكن عصر الخلفاء الثلاثة الأول رضى الله عنهم مناسبا لها لأن عصور الخلفاء الثلاثة تعرضت لأمر أخرى هامة (وليس هذا موضع بيان تفصيلها) وعندما كملت كل هذه الأمور بقى من الخلفاء الراشدين عصر سيدنا على رضى الله عنه حيث كان من الضرورى أن تنحل فيه مشكلة « مخالفة الخليفة » أيضا ولتكميل هذه الناحية بالصورة العملية « تنمة لما ذكرنا » فى عصر الخلفاء الراشدين المهديين أيضا كان لابد أن توجد هذه الأمور فى هذا العصر المبارك - لذا لم يشكل على قط أبدا أن هذه المشاجرات التى حدثت بين الصحابة رضى الله عنهم كانت حبا فى الجاه أو السلطة أو الدنيا والمال أو العصبية القبلية •

بل الحق الذى لا مرية فيه أن هذه المشاجرات والمقاتلات كانت فى الحقيقة علامات باهرة للقوة الايمانية والحمية الدينية الكامنة فى صدورهم رضى الله عنهم أجمعين •

فالشئ الذى رأوه أنه الحق والصواب من الناحية الشرعية لم يبالوا فى التمسك به وحفظه على صورته والثبات عليه حتى وان أدى ذلك الى الحروب الدامية والتضحية بالروح والنفائس العظيمة وكل ذلك فى حب الله واحقاقا للحق •

وأما الأحق الذى يظن أن هذه الأمور صدرت منهم بسبب الضعف الطبعى أو تعصبا لقبيلته أو حبا فى سلطة نعوذ بالله فانى لم ألتفت اليه ولا يعبأ بمثل هذا القول كل من تعمق نظره فى تراث الحديث الشريف •

وقد بسط هذا العاجز في رسالته « الاعتدال في مراتب ^(١) الرجال »
في موضوع مشاجرات الصحابة هذا .

أنظر وقعة الجمل « وكانت فيها السيدة عائشة رضى الله عنها في جهة
وفي الأخرى سيدنا على كرم الله وجهه » كانت حربا ضروسا استشهد فيها
ما يقرب من عشرين ألف شخص . ولكن عندما بدأت المعركة وكانت
الحرب على وشك الاشتعال الرهيب تقدم سيدنا على رضى الله عنه على
الجمع ونادى على الزبير رضى الله عنه فجاءه وتقدم اليه ، فتعانقا وتباكيا
ثم قال على : ما الذى أتى بك لقتالنا ؟ فقال الزبير : دم عثمان . الى آخر
ما تحدثا . . هذا اللقاء العجيب تراه بين ندين وخصمين متواجهين
للقاتل بالسيوف في ميدان الحرب ؟ . . ثم كانت المعركة . وانتصرت جماعة
سيدنا على رضى الله عنه . وقبض على كثير من الجماعة الأخرى فأصر
رجال من طائفة على رضى الله عنه على قتل هؤلاء المقبوض عليهم — ولكن
سيدنا عليا رضى الله عنه لم يوافق بل قبل منهم البيعة وعفى عنهم .

جعل أموالهم غنيمة ولكن لم يرض بأسرهم — فأصر الناس بأنك
ما دمت جعلت أموالهم غنيمة فأسرهم ، ولكنه امتنع ، وعندما أصرُوا
عليه وألحوا في ذلك . قال لهم : اذن من منكم يأسر أمه عائشة ؟ ويجعلها
أمة مملوكة لديه . فقالوا : نستغفر الله — هذا لا يمكن . فقال كرم الله
وجهه : وأنا أستغفر الله .

هل نحن أيضا نكرم خصومنا بشيء من مثل هذا — الخصم الذى
نقاتله بالسيوف بعيد ولكن هل الخصم الذى نتخاصم معه في بعض الأمور
البسيطة جدا هل نستطيع أن نكرمه بمثل هذا ؟

في نفس هذه المعركة عند نهايتها عندما جرح وسقط جمل السيدة

(١) الرسالة طبعت بالاردنية وتحت الترجمة بالعربية وستظهر عن
قريب ان شاء الله .

عائشة الصديقة رضى الله عنها « وهى زعيمة الفريق الآخر فى المعركة » .
يضطرب سيدنا على رضى الله عنه ويقول : انظروا هل أصيبت أم المؤمنين ؟
ثم يتقرب من جملها وتقدم اليها وسألها : هل أصابك شىء يا أماء سامحك
الله ؟ فتقول له رضى الله عنها : وأنت غفر الله لك .

هكذا كانت معاملة الخصوم عندهم — وهكذا كان اكرام المتقاتلين
لبعضهم ونحن اذا تيسر لنا التمكن من أحد خصومنا فما يكون حالنا ؟
هل تجد منا نفسه أو أمواله أو أعراضه أو أى شىء آخر ينتسب اليه أبة
رحمة أو شفقة ؟

وقعة صفين الشهيرة التى وقعت بين سيدنا على وسيدنا معاوية رضى
الله عنهما — ذكر عدة من المؤرخين أنه كان الفريقان يتقاتلان فى النهار —
وبالليل يشترك أهل الفريقين فى تجهيز وتكفين الموتى من الفريقين . وكان
إذا احتاج شخص من أحد الفريقين الى تبين بعض الأحكام والمسائل
أرسل رسولا الى بعض من فى الفريق الآخر فيستفهم منه المسألة — فلم
يؤثر الخلاف على اعتمادهم الدينى على الآخر — فى أثناء هذه الوقائع
أراد قيصر الروم أن يهجم على المسلمين فكتب سيدنا معاوية رضى الله عنه
اليه فى رسالة بآئك ان فعلت ذلك فانى سأتصالح مع صاحبى ثم سأكون فى
مقدمة جيشه الذى سيخرج لقتالك وتترك القسطنطينية كالفحمة سوداء .

وتفصيل هذه القصة أن قيصر الروم أرسل رسالة الى سيدنا معاوية
رضى الله عنه يذكر له فيها أن عليا (كرم الله وجهه) قد نكد عليه فان ترى
أرسل لمددك جيشا لقتال على — فانظروا بماذا رد عليه معاوية كتب له :
أيها الكلب النصرانى أتريد أن تستغل الخلاف بينى وبين على — والله لو
تقدمت نحو على لقتاله لتجدن معاوية أول المقاتلين فى جيشه « أو كما
قال — هكذا كانوا رضى الله عنهم لأن أمورهم كلها كانت لله جل شأنه
ونقل أيضا عن سيدنا معاوية كما فى البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٩ أنه
رضى الله عنه قال : والله انى لأعلم أنه (أى على كرم الله وجهه) خير منى
وأفضل وأحق بالأمر منى — ولكن أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما

وأنا ابن عمه وأنا أطلب بدمه وأمره الى فقولوا له (أى لعلى رضى الله عنه) فليسلم الى قتلة عثمان وأنا أسلم له أمره .. » انتهى

وقد حدثت قضية فى عهد معاوية رضى الله عنه فى ولايته أن رجلا رأى أحدا يزنى بامرأته فلم يستطع الصبر وقتله - وجاءت القضية الى سيدنا معاوية فلم يستطع الفصل فيها وأشككت عليه اذ القاتل جزاؤه القصاص ولا شك - ولكن هذه الحال التى حصل فيها القتل يصعب غض النظر عنها - فكتب معاوية الى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما أن يتحقق فى هذه المسألة من على رضى الله عنه .. الخ .

هل نحن أيضا نعتزف بالجهل والتقصير أمام مخالفينا وخصومنا السياسيين أو غيرهم هل نرجع اليهم فى تحقيق مسألة ليست من المسائل المتنازع فيها ؟

انا مع الأسف نرى أن خصمنا قوله لا يعتبر به ورأيه لا يعتمد عليه وهو شخصا لا يستحق أبدا أن يرجع اليه أحد أو يستفتيه فى شىء ما .

ولسيدنا معاوية رضى الله عنه قصص كثيرة وشهيرة ذكر بعضها عزيزى الكريم الشيخ محمد يوسف نور الله مرقده فى « حياة الصحابة » منها ما أخرج أبو نعيم عن أبى صالح قال دخل ضرار بن ضمرة الكنانى على معاوية رضى الله عنه فقال له صف لى عليا ، فقال : أو تعفينى يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا أعفيك ، قال : أما اذ لا بد فانه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، ينفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يدنينا اذا أتيناه ويجيبنا اذا سألناه ، وكان مع تقربه الينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له ، فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه - وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه - يسيل

في محرابه قابضا على لحيته يتململ تمللم السليم ويبكى بكاء الحزين ،
فكأنى أسمع الآن وهو يقول : يا ربنا - يا ربنا - يتضرع اليه ، ثم يقول
للدنيا : الى تغرت ؟ الى تشوفت ؟ هيهات هيهات غرى غرى ، قد بتتك
ثلاثا ، فعمرك قصير ومجلسك حقير وخطرك يسير - آه آه من قلة الزاد
وبعد السفر ووحشة الطريق • فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها
وجعل ينشفها بكمه - وقد اختنق القوم بالبكاء - فقال : كذا كان
أبو الحسن رحمه الله - كيف وجدك عليه يا ضرار ؟ قال : وجد من ذبح
واحدها في حجرها لا ترقاً دمعها ولا يسكن حزنها ، ثم قام فخرج اه •

وبما أن الاحسان الذي ذكرناه بأعلاه كان جزءا لا يتجزأ من الدين •
فكان لابد وأن يتكلم بيانه أيضا في هذا العصر المبارك « عصر الخلفاء
الراشدين » وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا دار الحكمة
وعلى بابها » فان أكثر سلاسل وطرق التصوف والسلوك والحكمة جاءت
بواسطة سيدنا على كرم الله وجهه •

ان هؤلاء الذين يظنون أن التصوف كله مأخوذ عن الرهبان
وأشباههم هم في الحقيقة جهلة تماما عن الدين الحنيف وتعاليمه الشاملة
الكاملة • فان بداية التصوف وأصوله وقواعده انما هو منه صلى الله عليه
وسلم ومن عهده الكريم وأما تسلسله بصورة خاصة ومميزة بدأ من عصر
سيدنا على رضي الله عنه كما سنذكره في محله ان شاء الله • وهذا
الموضوع يحتاج الى بسط وتوضيح - وليت صحتى ساعدتنى لكتبت
عنه بوضوح وتفصيل •

ولا يفهم مما ذكرت أن هذا المقصر لم يشكل عليه أى شئ في أى
حديث وفي أى مقام أبدا - لا • انما الذى حصل هو أنه عندما كان
يشكل على شئ في الحديث ولا أستطيع فهمه أو حل غامضه حملت ذلك
بيقين على قصور فهمى وقلة علمى •

لقد ذكرت قصة ابنتى الصغيرة في رسالة « آب بيتى » بالاردوية -
أنها عندما كانت تدرس في بداية أمرها القاعدة البغدادية - ودرست في

احدى الجداول بها : ألف فتحة آ ونون فتحة ن = آن ، وباء ألف فتحة با ونون فتحة ن = بان ، وهكذا تان ثان جان ، وفي آخر الجدول عندما أقرأتها والدتها همزة ألف فتحة آ نون فتحة ن = آن ، ثارت الطفلة واعترضت لم هذا ؟ كيف نقول « آن » ولا نقول « همزان » — لأنه حسب القاعدة المستمرة من أول حرف الى هنا يجب أن يكون : همزة ألف فتحة همزا ونون فتحة ن = همزان ، فقالت لها والدتها : اذا جاء أبوك فاسألها ، وهكذا أفلتت الأم نفسها منها — وبعد مجيئي عجزت أنا أيضا عن افهامها •

فقلت لها : « ان عقلك الآن صغير وعندما تكبرين فستفهمين بنفسك ان شاء الله » فهكذا ان ورد لى أى اشكال فى حديث ما أو حال أتذكر جوابى لبنيتى الصغيرة هذه « بأن عقلك الآن صغير » •

العمل بالقرآن

ان هذا الفقير قد ذكر في رسالته « الاعتدال في مراتب الرجال » و « فضائل القرآن » موضوعاً مهماً وهو أن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « من أراد العلم فعليه بالقرآن فان فيه علم الأولين والآخرين » .

ولكن التمعن في القرآن واستنباط الأحكام والعلوم منه له شروطه وآدابه يجب التقيد والاهتمام بها — وليس كحال زماننا أن كل من تعلم عدة كلمات من العربية وأتقن كتابة موضوع أو مقالة وأكثر من هذا بعضهم لا يعرف اللغة العربية حتى وانما يتفهم القرآن بواسطة التراجم في لغته تجده يدخل رأيه في شرح معانى القرآن الكريم واستنباط الأحكام والعلوم منه مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم حذر عن ذلك أشد تحذير وقال : من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ وان أصاب « ولكن مدعى التقدم اليوم يأتون لكل آية من القرآن الكريم بمعنى جديد — ضاربين أقوال السلف الصالحين بالحائط — في عصرنا هذا يريد كل شخص أن يصبح جامعاً للفضائل والكمالات بحيث أنه لو استطاع أن يحرر عدة عبارات باللغة العربية بل ولو استطاع أن يسطر مقالة بلغته الأردوية أو غيرها في المجالات والجرائد تجده كأنه في التصوف أصبح أستاذاً للجنيد وفي الفقه صار مجتهداً مستقلاً ويأتي في تفسير القرآن ما شاء من آراء غريبة وشاذة لا يبالي هل قال به أحد من السلف الصالح أم لا ؟ أو أن رأيه هذا هل يخالف شيئاً من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ انه متنور ومفكر عظيم له الحق أن يقول ما يريد ويتبجح في شرح القرآن بما شاء ويتقول على الله بما يشتهي فمن ذا الذى يرد عليه ومن ينكر على ضلالاته ومن يتجراً على بيان هفواته وسقطاته وسفاهاته . . من ؟ وان تجراً أحد بتوفيق الله وقال يا ناس ان هذا يعارض ما جاءنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ويخالف ما بلغنا عن سلفنا الصالح الخ . تجدهم

يحكمون عليه أنه ضيق الفكر ، ليس بمحقق ، رجعى ، لا يفهم من الدين
الا القشور قاصر عن التحقيقات البديعة - ولا يقدر الظروف وتقدم
الزمان .. الخ .

وأما من يتجراً على دين الله فيمسخه ويهذى بأن ما قاله السلف
الصالحون الى يومنا هذا كله خطأ ويأتى فى الدين بكل جديد وحديث
فانه المحقق والمفكر الاسلامى وهو فيلسوف الاسلام و ... و ..

مع أن العلماء أهل هذا الفن اشترطوا للتفسير الاتقان لخمس عشرة
من العلوم سأذكرها باختصار حتى يعلم أنه لا يمكن الوصول الى بطن
القرآن الكريم والاستنباط منه لكل من هب ودب - وهذه العلوم :

أولها : « اللغة » حيث يفهم بها مفردات القرآن - يقول مجاهد رحمه
الله : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقول فى القرآن بدون أن يعلم
كلام العرب « ولا يكفى أن يعلم بعض اللغات فقط لأنه أحيانا تكون
للفظ معانى كثيرة فاذا كان المرء لا يعلم منها الا معنى أو معنيين فقط
ويكون المعنى المراد سواهما فحينئذ الطامة .

ثانيا : يجب أن يكون عالما بالنحو لأنه بتغيير الاعراب تتغير المعانى
ومعرفة الاعراب موقوفة على علم النحو وقد بلغنا أن أحدهم فسر قوله
تعالى « وكفى الله المؤمنين القتال » بأن « يكفى الله تعالى من المؤمنين عمل
واحد فقط وهو القتال » .

ثالثا : يجب أن يكون عالما بالصرف لأنه باختلاف الصيغ وبناءات
الأفعال تختلف المعانى يقول ابن فارس : من فاته علم الصرف فقد فاته
شئ كثير .

وقد ذكر العلامة الزمخشري المعتزلى فى عجائب التفسير أنه فسر
أحدهم قوله تعالى « يوم ندعوا كل أناس بامامهم » لعدم معرفته بعلم
الصرف - أن المراد هو : « يوم ندعو الناس كلهم بأسمائهم » فظن أن
لفظ « امام » جمع « الأم » مع أنه لا يأتى جمع الأم « امام » .

رابعاً : يجب أن يكون عالماً بالاشتقاق ، لأن اللفظ حينما يكون مشتقاً من مادتين مختلفتين يكون معناهما مختلفين ، مثل كلمة « مسيح » فإن اشتقاقها يكون من « المسح » أيضاً وهو لمس الشيء ومسح اليد المبلولة على الشيء - وأيضاً من « المساحة » فيكون معناه مسح الأرض •

وخامساً : يجب أن يكون عالماً بعلم المعانى •

سادساً : يجب أن يكون عالماً بعلم البيان فيه يعرف ظهور الكلام وخفائه وتشبيهه وكنايته •

سابعاً : علم البديع فيه يعلم امتياز الكلام من حيث التعبير ، وهذه الثلاثة الأخيرة يقال لها البلاغة وهى من العلوم المهمة فى حق المفسر للقرآن الكريم اذ بها يعرف اعجاز القرآن الذى هو كله معجز •

ثامناً : يجب أن يكون عالماً بعلم القراءات • اذ يعلم بالقراءات المختلفة المعانى المختلفة ويعلم ترجيح بعض المعانى على غيرها •

تاسعاً : يجب أن يكون عالماً بعلم العقائد أيضاً اذ توجد فى القرآن الكريم بعض الآيات لا يجوز اطلاق معناها الظاهر على البين عز اسمه فيحتاج فيها الى التأويل حسب العقيدة الصحيحة كقوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » •

عاشراً : يجب أن يكون عالماً بأصول الفقه أيضاً فيه يعلم وجوه الاستدلال والاستنباط •

حادى عشر : ويجب أن يكون عالماً بأسباب النزول أيضاً اذ به يتضح معنى الآيات ، وأحياناً لا يمكن فهم المعنى الحقيقى للآية الا بمعرفة سبب نزولها •

ثانى عشر : يجب أن يكون عالماً بناسخ القرآن ومنسوخه حتى تتميز الأحكام المنسوخة عن المعمول بها •

ثالث عشر : يجب أن يكون عالما بعلم الفقه اذ باحاطة الجزئيات
تعرف الكليات •

رابع عشر : يجب أن يكون عالما بالأحاديث التي وردت كتفسير
للآيات القرآنية المجملة •

وبعد هذه كلها الخامس عشر : هو ذاك العلم الوهبي الذي هو عطية
ربانية كريمة يكرم الله بها خواص عباده واليه أشار الحديث الشريف « من
عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » •

وقد ذكر الأصوليون أنه للعمل على الشريعة الغراء يجب تعلم أصولها
وهي : القرآن والحديث والاجماع والرابع القياس وهو مستنبط من
الأصول الثلاثة الأولى •

ثم للعمل على القرآن الكريم يجب تعلم أربعة أمور : —

— أولها : النظم القرآني من حيث الصيغة واللغة وهي أربعة أقسام : —
الخاص والعام والمشارك والمؤول •

ثانيا : وجوه البيان • وهي أربعة : الظاهر والنص والمفسر والمحكم
ومقابلها أربعة أيضا وهي : الخفى والمشكل والمجمل والمتشابه •

ثالثا : أن يعلم استعمال نظم القرآن — وهي أربعة أيضا : الحقيقة
والمجاز والصريح والكناية •

رابعا : أن يطلع على طرق معرفة مراد القرآن — وهي أربعة أيضا :
عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص واقتضاء النص •

وبعد هذا كله هناك أمر مستقل يشتمل الجميع وفيه أربعة أمور
أيضا : —

١ — أن يعلم مأخذ الاشتقاق •

٢ — أن يعلم المفاهيم الاصطلاحية •

٣ - أن يعلم ترتيبها •

٤ - أن يعلم الأحكام المرتبة عليها •

فيجب أن يعلم من الأمر مثلاً أين هو للوجوب وأين للجواز وأين للاستحباب وأين للتكرار فقط ، وفي القرآن الكريم يأتي لفظ الأداء أحياناً بمعنى القضاء وأحياناً يأتي لفظ القضاء بمعنى الأداء ، والأمر أحياناً يكون مطلقاً وأحياناً يكون مقيداً - والأمر المقيد له أربعة أقسام ... الخ هذه الأمور مذكورة مفصلة منقحة في كتب أصول الفقه نقلناها هنا مختصراً من « نور الأنوار » •

وورد في سنن أبي داود عن سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه قال : « ان من ورائكم فتناً يكثُر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والكبير والصغير والعبد والحر فيوشك قائل أن يقول ما للناس لا يتبعونى وقد قرأت القرآن ما هم بمتبعي حتى ابتدع لهم غيره فاياكم وما ابتدع فان ما ابتدع ضلالة » •

ان أولئك الذين يفتخرون أنهم نشروا القرآن ومعانيه في العالم بالنظر الى هذه الرواية في خطر شديد - ان ترجمة القرآن الكريم لفهم معناه والاتعاظ بالمواعظ منه والتذكر لاشك في أنه كله خير وبركة •

ولكن استنباط الأحكام منه بدون الحصول على علوم القرآن لا يجوز قطعاً الا بعد الحصول على هذه العلوم المذكورة بأعلاه •

ذكر الحافظ السيوطي في الدر المنثور عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال في قوله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء » أن المراد به معرفة القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه •

الحديث

لقد صرح الأصوليون أنه يجب لفهم الحديث والعمل به أن يكون المرأ
عالمًا بجميع تلك العلوم التي ذكر وجوب تعلمها فيما سبق مفصلاً للعمل
بالقرآن - وعلاوة عليها بما أن القرآن الكريم قطعى - والأحاديث فيها
أمور قطعية مثل الصلوات الخمس وركعات الصلوات وغير ذلك وفيها
أيضاً ما هو ظنى - هذه يجب للعمل عليها تعلم عدة أمور - ذكر الحافظ
ابن حجر العسقلانى فى نخبه الفكر وشرحه نزهة النظر « وهى رسالة فى
أصول الحديث » بذيّل أقسام الحديث « فالخبر إما أن يكون له طرق بلا
عدد معين أو مع حصر بما فوق الاثنين أو بهما أو بواحد فالأول المتواتر
المفيد للعلم اليقيني بشروطه والثانى المشهور وهو المستفيض على رأى
والثالث : العزیز - وهو أن لا يرويه أقل من اثنين عن اثنين - والرابع :
الغريب ، وهو ما ينفرد بروايته شخص واحد ، وكلها سوى الأول آحاد -
وفىها المقبول والمردود لتوقف الاستدلال بها على البحث عن أحوال روايتها
دون الأول ، ثم الغرابة إما أن تكون فى أصل السند أو لا ، فالأول الفرد
المطلق والثانى الفرد النسبى ، وخبر الآحاد بنقل عدل تام الضبط متصل
السند غير معلل ولا شاذ هو الصحيح لذاته ، والمعلل : ما فيه علة خفية
قادرة ، والشاذ : ما يخالف فيه الراوى من هو أرجح منه ، وتتفاوت رتبة
أى الخبر بتفاوت هذه الأوصاف ، ثم الصحيح إما أن يكون صحيحاً
لذاته - أو صحيحاً لغيره ان وجد فيه قصوراً ووجد ما يجبر ذلك القصور ،
فان خف الضبط فالحسن لذاته وبكثرة طرقه يصحح فان جمعا فللتردد
فى الناقل حيث التفرد والا فباعتبار اسنادين - وزيادة راويهما مقبولة مالم
تقع منافية لمن هو أوثق ، فان خولف بأرجح فالراجح المحفوظ ومقابله
الشاذ ومع الضعف فالراجح المعروف ومقابله المنكر ، والفرد النسبى
ان وافقه غيره فهو المتابع وان وجد متن يشبهه فهو الشاهد وتتبع الطرق
لذلك هو الاعتبار « اهـ . والمقصود أقسام الحديث هذه يجب العلم

بها حتى يعرف درجة الحديث ثم قال الحافظ « ثم المقبول ان سلم من المعارضة فهو المحكم وان عورض بمثله فان أمكن الجمع فمختلف الحديث أولا وثبت المتأخر فهو الناسخ والآخر المنسوخ » اهـ ثم ذكر بالتفصيل الأمور التي يعرف فيها النسخ وأن أصرحها ما ورد في النص ومنها ما يعرف بالتاريخ وهكذا ، ثم قال : والا فالترجيح » اهـ •

وقد ذكر الحازمي في كتاب الاعتبار أن وجوه الترجيح : خمسون وقال العلامة السيوطي في تدريب الراوي : ان بعض العلماء جعلها مائة فان الحافظ العراقي ذكر في كتابه « النكت » مائة وجه •

والعلامة السيوطي عددها في تدريب الراوي الى مائة ، ثم قال : وهي أكثر من ذلك •

وسياتي كلام شيخ الاسلام ابن تيمية مفصلا — الذي ذكر فيه عشرة أسباب لترك العمل بالحديث وعدم الاحتجاج به وقال بعدها :

فهذه الأسباب العشرة ظاهرة ، وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل بالحديث لم نطلع نحن عليها فان مدارك العلم واسعة ، ولم نطلع نحن على جميع ما في بواطن العلماء •

والعالم قد يبدى حجته ، وقد لا يبدىها ، واذا أبدأها فقد تبلغنا وقد لا تبلغنا ، واذا بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه وقد لا ندركه اهـ •

وسياتي كلامه مفصلا بكامله ان شاء الله •

ثم يذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله أنه في حالة عدم وجود أي وجه من وجوه الترجيح : التوقف عن العمل بأخذ الحديثين — ثم المردود اما أن يكون لسقط أو طعن ، والسقط اما أن يكون من مبادئ السند من مصنف أو من آخره بعد التابعي أو غير ذلك — فالأول : المعلق ، والثاني : المرسل ، والثالث : ان كان باثنين فصاعدا مع التوالي فهو المعضل والا فالمنقطع ثم قد يكون واضحا أو خفيا فالأول : يدرك بعدم التلاقي : ومن

ثم احتيج الى التاريخ ، والثانى : المدلس .. ثم الطعن : ويكون بعشرة أشياء بعضها أشد فى القدح من بعض .. الخ ما ذكره .

وللعمل بالأحاديث يجب الحصول على أصول الحديث باهتمام وما ذكرته من كلام الحافظ انما هو أنموذج بسيط لبعض الأنواع - وقد ذكر الحافظ رحمه الله بعدها أبحاثا فى الحديث المقلوب والمضطرب والمصحف والمحرف والمرفوع والمقطوع والمسند والعلو المطلق والعلو النسبى والموافقة ثم فيه بدل المساواة والمصافحة والنزول والاقران والمديح ورواية الاكابر عن الأصاغر والسابق واللاحق والمسلسل والمتفق والمفروق والمؤتلف والمختلف والمتشابه وغيرها من الابحاث التى يجب تعلمها على طالب علم الحديث الشريف .

ولا يكفى أن يطالع كتابا أو كتابين من كتب الحديث أو يقرأ عدة مقالات فى الحديث أو أصوله أو تاريخ تدوينه ثم يظن بذلك أنه أصبح محدثا فيستنبط من الأحاديث الشريفة ما شاء من الأحكام وما راق له من المسائل والعلوم - وقد ذكر الحافظ فى رسالته هذه أنه لا يمكن احصاء جميع الأبحاث فيها ويجب الرجوع للتفصيل الى المطولات - فلا يكفى مطالعة كتيبات عن الحديث أو منشورات ورسائل مبسطة عن أصوله حتى يصبح محدثا فان الأمر صعب وعظيم وليس بالسهل الميسور - كما انه لا يمكن لمن طالع القرآن المترجم أو التفسير الميسر وتعلم شيئا من اللغة وقرأ عدة كتيبات ومقالات مختصرة مجملة عن التفسير وعلومه أن يدعى أنه أصبح مفسرا للقرآن بل يجب أن يكون قد تحصل على العلوم التى ذكرناها سابقا بالتفصيل ويخشى على من مارس هذا الفن الشريف بدون الحصول على العلوم اللازمة أن يقع فى أخطاء مهلكة خطيرة .

وقد ذكر عن رجل من مدعى العمل بالحديث أنه كان دائما اذا بال واستجمر قام فصلى الوتر فسأله بعضهم عن سبب ذلك فقال لقد ورد فى الحديث : من استجمر فليوتر ، مع أن المراد أن من استجمر فليجعل عدد

الحجارة المستجبر بها وترا - ففهم هذا أن المراد من الوتر هو « صلاة الوتر » .

وكذلك كان بعضهم يمنع جاره من أن يسقى مزرعته من بئرهِ ويمنعه عن ذلك بشدة ويحتج بقوله صلى الله عليه وسلم « ولا يسقى أحدكم ماءه زرع غيره » ففهم من الحديث هذا المعنى .

مع أن المراد من قوله صلى الله عليه وسلم هذا أنه لو كانت امرأة مثلاً أمة مملوكة حاملاً من شخص فتملكها آخر فعلى هذا الأخير أن لا يجامعها . فالمراد بالماء هنا : المنى - ويعنى بالزرع فرجها .

وغيرها أمثلة كثيرة ذكر بعضها ابن الجوزي في كتابه تلبيس ابليس وفي سنن أبي داود أن شخصاً قال لعمران بن الحصين رضى الله عنه : يا أبا نجيد انكم لتحدثوننا بأحاديث ما نجد لها أصلاً في القرآن فغضب عمران ، وقال للرجل : أوجدتم في كل أربعين درهماً درهماً ومن كل كذا وكذا شاة شاة ومن كذا وكذا بعيراً كذا وكذا وجدتم هذا في القرآن ؟ قال : لا . قال : فعمن أخذتم هذا أخذتموه عنا وأخذناه عن نبي الله صلى الله عليه وسلم وذكر أشياء نحو هذا .

فعلينا من هذا أنه لا بد من الحصول على علم الحديث للعمل بالقرآن وللحديث لا بد من تعلم الأمور المذكورة بالتفصيل فيما سبق وفي خاتمة هذا الموضوع أحب أن أورد رباعيات الإمام محمد بن اسماعيل البخاري المعروفة التي بينها للمحدث وقد ذكرتها في مقدمة الأوجز ومنها سأنقل هنا أيضاً إن شاء الله .

فإن المحدثين وضعوا قواعد شديدة للتوغل في علم الحديث ولحصول البصيرة في هذا الفن المبارك والكتابة والكلام فيه ، كما وضعوا قواعد وشروطاً لطالب الحديث أيضاً وذكروا للمحدث والمعلم شروطاً وحدوداً أشد

وأصعب منها - أرى أن الموضوع يطول وبدون قصد مني إلا أني أذكر هنا هذه الحكاية العجيبة للإمام البخاري رحمه الله للضرورة الوقتية

حيث سيظهر منها أن السلف رحمهم الله تعالى كم كانوا يشددون على طالب هذا العلم الشريف « الحديث » وكيف كانوا يوجبون عليه المجاهدة والتضحية فاذا كان هذا حال طالب العلم فما بالك بالمحدثين والمشيخة فقد ذكر جمع من المشايخ بأسانيدهم عن أبي المظفر محمد بن أحمد بن حامد بن الفضل البخارى يقول : لما عزل أبو العباس الوليد بن ابراهيم بن زيد الهمداني عن قضاء الري ، ورد بخارى سنة ثمان عشرة وثلاثمائة لتجديد مودة كانت بينه وبين أبي الفضل البلعمي ، فنزل في جوارنا ، فحملني معلمي أبو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الختلي اليه فقال له : أسألك أن تحدث هذا الصبي عن مشايخك ، فقال : مالي سماع ، قال : فكيف وأنت فقيه : فما هذا ؟ قال : لأنني لما بلغت مبلغ الرجال تأقت نفسي الى معرفة الحديث ورواية الأخبار وسماعها ، فقصدت محمد بن اسماعيل البخارى ببخارى صاحب التاريخ والمنظور اليه في علم الحديث ، وأعلمته مرادى وسألته الاقبال على ذلك ، فقال لي : يا بني لا تدخل في أمر الا بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره ، فقلت : عرفني رحمك الله حدود ما قصدتك له ، ومقادير ما سألتك عنه ، فقال لي : اعلم أن الرجل لا يصير محدثا كاملا في حديثه الا بعد أن يكتب أربعا مع أربع ، كأربع مع أربع ، مثل أربع في أربع ، عند أربع بأربع ، على أربع عن أربع لأربع ، وكل هذه الرباعيات لا تتم الا بأربع مع أربع فاذا تمت له كلها هان عليه أربع ، وابتلى بأربع ، فاذا صبر على ذلك أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع واثابه في الآخرة بأربع قلت له : فسر لي - رحمك الله - ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات عن قلب صاف بشرح كاف وبيان شاف طلبا للأجر الوافي .

فقال : نعم ، الأربعة التي يحتاج الى كتبها هي أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وشرائعه ، والصحابة رضی الله عنهم ومقاديرهم ، والتابعين وأحوالهم ، وسائر العلماء وتواريخهم مع أسماء رجالهم وكناهم وأمكناتهم وأزمנתهم ، كالتحميد مع الخطب والدعاء مع التوسل والبسملة مع السورة والتكبير مع الصلوات ، مثل المسندات والمرسلات والموقوفات والمقطوعات ، في صغره وفي ادراكه وفي شبابه وفي كهولته ، عند فراغه وعند شغله وعند فقره وعند غناه ، بالجبال والبحار والبلدان والبرارى ، على الأحجار

والأخزاف والجلود والأكتاف الى الوقت الذى يمكنه نقله الى الأراق ،
عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه وعن كتاب أبيه يتيقن أنه
بخط أبيه دون غيره ، لوجه الله تعالى طالبا لمرضاته والعمل بما وافق
كتاب الله عز وجل منها ونشرها بين طالبها ومحبيها والتأليف فى احياء
ذكره بعده •

ثم لا تتم له هذه الأشياء الا بأربع هى من كسب العبد ، أعنى معرفة
الكتابة واللغة والصرف والنحو ، مع أربع هى اعطاء الله تعالى ، أعنى •
القدرة والصحة والحرص والحفظ ، فإذا تمت له هذه الأشياء كلها هان
عليه أربع : الأهل والمال والولد والوطن ، وابتلى بأربع : بشماتة الأعداء
وملامة الأصدقاء وطعن الجهلاء وحسد العلماء •

فإذا صبر على هذه المحن أكرمه الله عز وجل فى الدنيا بأربع : بعز
القناعة وبهيبة النفس وبلذة العلم وبحياة الأبد ، وأثابه فى الآخرة بأربع :
بالشفاعة لمن أراد من اخوانه وبطل العرش يوم لا ظل الا ظله ويسقى
من أراد من حوض نبيه صلى الله عليه وسلم بمجاورة النبيين فى أعلى
عليين فى الجنة فقد أعلمتك يا بنى مجملا لجميع ماسمعت من مشايخى
متفرقا فى هذا الباب _ فاقبل الآن الى ما قصدت اليه أودع» اه •

الفقه

وتعريف الفقه الذى ذكره الفقهاء الكرام عامة هو :

« العلم بالأحكام الشرعية الفرعية المكتسب من أدلتها التفصيلية »
وقد روى عن الامام أبى حنيفة رحمه الله فى تعريف الفقه بأنه :

« معرفة النفس مالها وما عليها » •

ولكن تعريف الامام هذا شامل للعقائد والأخلاق والأعمال الظاهرة كلها • ولكن المتأخرين أطلقوا على متعلقات الاعتقادات اسم « علم الكلام أو التوحيد » ، وعلى متعلقات الأخلاقيات اسم علم الأخلاق « أو التصوف » ، وجعلوا الفقه خاصا بمتعلقات الأعمال الظاهرة •

وقد نقل مولانا الشيخ اعزاز على رحمه الله فى مقدمته على « كنز الدقائق » عن الحاوى القدسى أنه قال : اعلم أن معنى الفقه فى اللغة الوقوف والاطلاع ، وفى الشريعة : الوقوف الخاص ، وهو الوقوف على معنى النصوص وإشاراتها ودلالاتها ومضمراتها ومقتضياتها • وقال فى موضع آخر : الفقه قوة لتصحيح المنقول وترجيح المعقول ، وأما مأخذ الفقه : فالكتاب والسنة والاجماع والقياس « كما نقلنا فى البداية عن نور الأنوار » •

لذلك يجب للفقه أيضا تعلم كل ما ذكرناه بالتفصيل بذيلى « القرآن » و « الحديث » وقال حكيم الأمة الشيخ أشرف على التهانوى فى الكشف ما ترجمته : « ان الشريعة اسم لمجموعة الأحكام التكليفية فشملت الأعمال الظاهرة والباطنة جميعها وفى اصطلاح المتقدمين كانوا يرون لفظه « الفقه » مرادفة لها — كما نقل عن الامام أبى حنيفة فى تعريف الفقه أنه قال : هو « معرفة النفس ما لها وما عليها » ثم فى اصطلاح المتأخرين

صار الفقه يطلق على العلم المتعلق بالأعمال الظاهرة فقط وأما العلم المتعلق بالأعمال الباطنة فيطلق عليه اسم « التصوف » أو « الطريقة » وقد ذكر مثل هذا الكلام في « امداد الفتاوى » أيضا وللعلامة العارف الشيخ عبد الوهاب الشعراني كتاب أعجبت به كثيرا وهو « الميزان الكبرى » كنت أطلعه في أواخر أيام طلب العلم وأوائل أيام تدريسي باستمرار - وموضوع الكتاب أن الأئمة المجتهدين رحمهم الله في الحقيقة ليس بينهم أي اختلاف - أما الاختلاف المشاهد في الظاهر فهو باعتبار أحوال الناس فمثلا الامام أبو حنيفة ترك رفع اليدين باعتبار زمنه والامام الشافعي قال بالرفع بحسب زمانه - فالامام أبو حنيفة كان زمنه من القرون المشهود لها بالخير - وبما أن حقيقة رفع اليدين ، هو : طرح الدنيا وراء الظهر - ففي زمنه رحمه الله كان المرء اذا طرح الدنيا مرة واحدة في البداية برفع اليدين كانت الدنيا ومشاغلها لا ترجع اليه بعدها الى تمام الصلاة ، وأما في زمن الامام الشافعي وولادته كانت في عام وفاة الامام أبي حنيفة - كانوا اذا طرحوا الدنيا في البداية رجعت اليهم ثانيا فيطرحوها مرة بعد مرة برفع اليدين ، ففي رأيه أن الشخص الذي يكون حاله كما كانت عليه عامة الأحوال في زمن الامام أبي حنيفة بحيث اذا رفع يديه في البداية لم تعد اليه الدنيا حتى نهاية الصلاة فهذا له أن يعمل بقول أبي حنيفة والذي يكون حاله كحال زمن الامام الشافعي فعليه أن يعمل بقوله وهكذا يرى أن نقض الوضوء بمس الذكر انما هو للخاصة والأكابر وأما عدم نقضه فهو للعامة - مع أن الاحتياط عند الحنفية أيضا هو الوضوء منه وذلك للخروج عن الخلاف (الميزان ص ١٣٠ ، ١٦٠) وله أبحاث طريفة وعجيبة في كتابه هذا وقد رسم في كتابه هذا أيضا في موضع أشكالا لقباب - وأشكالا مختلفة متعددة تتعلق باختلاف الأئمة بناء على مراقباته ومكاشفاته وضرب بهذه الأشكال أمثلة لما رآه في مكاشفاته نذكر منها هنا مثالين فقط :

وهذا مثال طرق هذه الأئمة المجتهدين إلى ابواب الجنة وإن كل من عمل بهذه الطريقة وصل إلى باب الجنة

طريق أبي حنيفة إلى باب الجنة	طريق الإمام الصادق إلى باب الجنة	طريق الإمام الشافعي إلى باب الجنة	طريق الإمام أحمد إلى باب الجنة	طريق إمام الأئمة داود إلى باب الجنة	طريق إمام الأئمة مالك إلى باب الجنة	طريق إمام الأئمة أبو الليث إلى باب الجنة	طريق إمام الأئمة أبو حنيفة إلى باب الجنة	طريق إمام الأئمة أبو حنيفة إلى باب الجنة	طريق إمام الأئمة أبو حنيفة إلى باب الجنة
باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة

وهذا مثال قباب الأئمة المجتهدين على نحو الحياة في الجنة الذي هو مظهر بحر الشريعة المطهرة في الدنيا وإنما ذكرنا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قباب الأئمة الأربعة لأنهم ما نالوا هذا المقام إلا باتباع شريعة فكان من كمال نعيمهم في الجنة شهود ذاتة صلى الله عليه وسلم فتأملته فهدى الله تعالى :

قبلة النبي صلى الله عليه وسلم	قبلة أبي حنيفة رضي الله عنه	قبلة مالك رضي الله عنه	قبلة الشافعي رضي الله عنه	قبلة أحمد رضي الله عنه
----------------------------------	--------------------------------	---------------------------	------------------------------	---------------------------

وذكر في ذيل المثال الثاني ما ملخصه : اني أتيت بالأئمة الأربعة فقط من الأئمة المجتهدين لأن لهم ميزة خاصة وهي أن مذاهب هؤلاء الأربعة فقط دونت وحفظت ورتبت وعمل بها من أول أيامهم إلى يومنا هذا باستمرار دون بقية الأئمة المجتهدين - فحصلت لهم نيابة خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هداية الأمة المحمدية وقيادتها إلى شرعه صلى الله عليه وسلم ولهم نسبة خاصة به صلى الله عليه وسلم بحيث يقال عنهم بأنهم لم يفارقوه صلى الله عليه وسلم لا في الدنيا ولا في الآخرة - وهذا الشكل الذي رسمت عليه القباب ليس قياسا من رأيي إنما هو بالضبط على الشكل الذي رأيته عليه في الجنة في بعض أحوالي . فالحمد لله رب العالمين .

لقد ذكر الإمام الشعراني رحمه الله اسم الإمام أبي حنيفة في الجدول

الأعلى وفي القبة الأولى وقال : ان ذلك على أساس الكشف الذي حصل له لأنه رحمه الله كان من أصحاب الكشف .

وفي رأي أنه من وجود ذلك أن أزمنة الأئمة الأربعة أيضا على هذا الترتيب الذي انكشفت له القباب عليه فولادة الامام أبي حنيفة رحمه الله كانت في سنة ثمانين من الهجرة ووفاته سنة خمسين ومائة وعاش سبعين سنة .

والامام مالك رحمه الله كانت ولادته في سنة خمس وتسعين ووفاته سنة تسع وسبعين ومائة ، وعاش أربعاً وثمانين سنة .

والامام الشافعي رحمه الله كانت ولادته سنة خمسين ومائة وتوفي سنة أربع ومائتين وعاش أربعاً وخمسين سنة .

والامام أحمد رحمه الله كانت ولادته سنة أربع وستين ومائة وتوفي سنة واحد وأربعين ومائتين وعاش سبعا وسبعين سنة .

ثم ان الامام الأعظم أبا حنيفة رحمه الله من المعلوم أنه يقال له « الأعظم » بسبب فضائله . وفي رأي أنه من ناحية عمره أيضا يعتبر الأعظم بالنسبة لغيره .

وتكملة للفائدة أذكر أزمنة أئمة الحديث الستة المشهورين أيضا :

الامام البخاري ولد عام ١٩٤ هـ وتوفي عام ٢٥٦ هـ وعاش ٦٢ سنة

الامام مسلم ولد عام ٢٠٤ هـ وتوفي عام ٢٦١ هـ وعاش ٥٧ سنة

الامام أبو داود ولد عام ٢٠٢ هـ وتوفي عام ٢٧٥ هـ وعاش ٧٣ سنة

الامام الترمذي ولد عام ٢٩٠ هـ وتوفي عام ٢٧٩ هـ وعاش ٧٠ سنة

الامام النسائي ولد عام ٢١٥ هـ وتوفي عام ٣٠٣ هـ وعاش ٨٨ سنة

الامام ابن ماجه ولد عام ٢٠٦ هـ وتوفي عام ٢٧٣ هـ وعاش ٦٤ سنة

واغلب هذه التواريخ والسنين مأخوذة من كتاب الاكمال لصاحب

المشكاة .

الاجتهاد

وعن الاجتهاد حرر الفاضل الجليل الشيخ المفتى محمد شفيع العثماني في جواهر الفقه ص ١٢٢ : ان علماء السلف حددوا للعالم الذي ينبغي تقليده (أى المجتهد) معيارا ، يقول الامام الكبير الشاه ولي الله المحدث الدهلوى قدس سره في كتابه « عقد الجيد » : حقيقة الاجتهاد على ما يفهم من كلام العلماء : استفراغ الجهد فى ادراك الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية الراجعة كلياتها الى أربعة أقسام : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، ويفهم من هذا أنه أعم من أن يكون استفراغا فى ادراك حكم ما سبق التكلم فيه من العلماء السابقين أولا ، وافقهم فى ذلك أو خالف ، ومن أن يكون ذلك باعانة البعض فى التنبيه على صور المسائل والتنبيه على مآخذ الأحكام من الأدلة التفصيلية أو بغير اعانة منه — فما يظن فيمن كان موافقا لشيخه فى أكثر المسائل — لكنه يعرف لكل حكم دليلا ويطمئن قلبه بذلك الدليل وهو على بصيرة من أمره — أنه ليس بمجتهد ظن فاسد ، وكذلك ما يظن من أن المجتهد لا يوجد فى هذه الأزمنة اعتمادا على الظن الأول بناء على فاسد .

وشرطه : أنه لا بد له أن يعرف من الكتاب والسنة ما يتعلق بالأحكام ، ومواقع الاجماع وشرائط القياس وكيفية النظر وعلم العربية والناسخ والمنسوخ وحال الرواة ولا حاجة الى الكلام والفقه « أى الاصطلاحى » وهذا الذى ذكرناه من شرط الاجتهاد مبسوط فى كتب الأصول ولا بأس أن نورد كلام البغوى فى هذا الموضع ، قال البغوى : والمجتهد من جمع خمسة أنواع من العلم : علم كتاب الله عز وجل ، وعلم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقاويل علماء السلف من اجماعهم واختلافهم ، وعلم اللغة ، وعلم القياس وهو طريق استنباط الحكم من الكتاب والسنة اذا لم يجده صريحا فى نص كتاب أو سنة أو اجماع ،

فيجب أن يعلم من علم الكتاب الناسخ والمنسوخ و . . (ثم ذكر ما سبق ذكره في ذيل « العمل بالقرآن ») ثم قال : ويعرف من السنة هذه الأشياء — ويعرف منها الصحيح والسقيم و . . (ثم ذكر ما سبق ذكره في ذيل « العمل بالحديث ») ثم قال : وكذلك يجب أن يعرف من علم اللغة ما أتى في كتاب أو سنة في أمور الأحكام دون الإحاطة بجميع لغات العرب ، وينبغي أن يتخرج فيها بحيث يقف على مرامى كلام العرب فيما يدل على المراد من اختلاف المحال والأحوال ، لأن الخطاب ورد بلسان العرب فمن لم يعرفه لا يقف على مراد الشارع . ويعرف أقاويل الصحابة والتابعين في الأحكام ومعظم فتاوى فقهاء الأمة حتى لا يقع حكمه مخالفا لأقوالهم فيكون فيه خرق لإجماع — وإذا عرف من كل من هذه الأنواع معظمة فهو حينئذ مجتهد — ولا يشترط معرفة جميعها بحيث لا يشذ عنه شيء منها — وإذا لم يعرف نوعا من هذه الأنواع فسيبيله التقليد اهـ .

وذكر العلامة ابن قدامة الحنبلي رحمه الله في كتاب المغنى ج ١١

ص ٣٨٣ .

(فمن شرط الاجتهاد معرفة ستة أشياء : الكتاب والسنة والاجماع والاختلاف والقياس ولسان العرب أما الكتاب فيحتاج أن يعرف منه عشرة أشياء : الخاص والعام والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه والمجمل والمفسر والناسخ والمنسوخ في الآيات المتعلقة بالأحكام وذلك نحو خمسمائة ولا يلزمه معرفة سائر القرآن فأما السنة فيحتاج الى معرفة ما يتعلق منها بالأحكام دون سائر الأخبار من ذكر الجنة والنار والرقائق ويحتاج أن يعرف منها ما يعرف من الكتاب ويزيد معرفة التواتر والآحاد والمرسل والمتصل والمسند والمنقطع والصحيح والضعيف ، ويحتاج الى معرفة ما أجمع عليه وما اختلف فيه ، ومعرفة القياس وشروطه وأنواعه وكيفية استنباطه الأحكام ومعرفة لسان العرب فيما يتعلق بما ذكرنا ليتعرف به استنباط الأحكام من أصناف علوم الكتاب والسنة وقد نص أحمد على اشتراط ذلك للفتيا) اهـ .

وقال الحافظ ابن القيم في اعلام الموقعين ج ١ ص ٤٦ :

قال الشافعي فيما رواه عنه الخطيب في كتاب الفقيه والمتفقه له : لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله الا رجلا عارفا بكتاب الله بناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ، وتأويله وتنزيله ، ومكية ومدنية ، وما أريد به ويكون بعد ذلك بصيرا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناسخ والمنسوخ ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن ويكون بصيرا باللغة ، بصيرا بالشعر وما يحتاج اليه للسنة والقرآن . ويستعمل هذا مع الانصاف ويكون بعد هذا مشرفا على اختلاف أهل الأمصار وتكون له قريحة بعد هذا .

فاذا كان هكذا فله أن يتكلم ويفتي في الحلال والحرام واذا لم يكن هكذا فليس له أن يفتي .

وقال صالح به أحمد : قلت لأبي : ما تقول في الرجل يسأل عن الشيء فيجيب بما في الحديث وليس بعالم في الفقه ؟ فقال : ينبغي للرجل اذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالما بالسنن عالما بوجوه القرآن ، عالما بالاسانيد الصحيحة - وذكر الكلام المتقدم .

وقال علي بن شقيق : قيل لابن المبارك : متى يفتي الرجل ؟

قال : اذا كان عالما بالأثر بصيرا بالرأى .

وقيل ليحيى بن أكثم : متى يجب للرجل أن يفتي ؟ فقال : اذا كان بصيرا بالرأى بصيرا بالأثر .

قلت : يريدان بالرأى القياس الصحيح والمعاني والعلل الصحيحة التي علق الشارع بها الأحكام ، وجعلها مؤثرة فيها طردا وعكسا . اهـ

ويقول الامام الجليل ولي الله الدهلوي في عقد الجيد أيضا ص ٥ : واذا عرف من كل من هذه الأنواع معظمه فهو حينئذ مجتهد . . وقد

صرح الرافعي والنووي وغيرهما ممن لا يحصى كثرة أن المجتهد المطلق الذي الذي مر تفسيره على قسمين : مستقل ومنتسب ، ويظهر من كلامهم أن المستقل يمتاز عن غيره بثلاث خصال : احداها التصرف في الأصول التي عليها بناء مجتهداته ، وثانيتهما : تتبع الآيات والأحاديث والآثار لمعرفة الأحكام التي سبق بالجواب فيها واختيار بعض الأدلة المتعارضة على بعض ، وبيان الراجح من محتملاته والتنبيه لما أخذ الأحكام من تلك الأدلة .

والثالثة : الكلام في المسائل التي لم يسبق بالجواب فيها أخذا من تلك الأدلة .

- والمنتسب : من سلم أصول شيخه واستعان بكلامه كثيرا في تتبع الأدلة والتنبيه للمأخذ - وهو مع ذلك مستيقن بالأحكام من قبل أدلتها ، قادر على استنباط المسائل منها قل ذلك منه أو أكثر - وانما تشترط الأمور المذكورة في المجتهد المطلق .

وأما الذي هو دونه في المرتبة فهو مجتهد في المذهب وهو مقلد لامامه فيما ظهر فيه نصه لكنه يعرف قواعد امامه وما بنى عليه مذهبه ، فاذا وقعت حادثة لم يعرف لامامه نصا فيها اجتهد على مذهبه ، وخرجها من أقواله وعلى منواله ودونه في المرتبة مجتهد الفتيا ، وهو المتبحر في مذهب امامه المتمكن من ترجيح قول على آخر ووجه من وجوه الأصحاب على آخر ، والله أعلم . اهـ .

وقد ذكر العلامة الجليل ابن عابدين الشامي في رسالة « شرح عقود رسم المفتى » أن الفقهاء سبع طبقات : -

الأولى : طبقة المجتهدين في الشرع كالأئمة الأربعة ومن سلك مسلكهم في تأسيس قواعد الأصول واستنباط أحكام الفروع عن الأدلة الأربعة من غير تقليد لأحد لا في الفروع ولا في الأصول .

الثانية : طبقة المجتهدين فى المذهب كأبى يوسف ومحمد وسائر أصحاب أبى حنيفة القادرين على استخراج الأحكام عن الأدلة المذكورة على حسب القواعد التى قررها أستاذهم فانهم وإن خالفوه فى بعض أحكام الفروع لكنهم يقلدونه فى قواعد الأصول •

الثالثة : طبقة المجتهدين فى المسائل التى لا رواية فيها عن صاحب المذهب كالحصاف وأبى جعفر الطحاوى وأبى الحسن الكرخى وشمس الأئمة الحلوانى وشمس الأئمة السرخسى وفخر الاسلام البزدوى وفخر الدين قاضى خان وغيرهم فانهم لا يقدرّون على مخالفة الامام لا فى الأصول ولا فى الفروع لكنهم يستنبطون الأحكام من المسائل التى لا نص فيها عنه على حسب أصول قررها ومقتضى قواعد بسطها •

الرابعة : طبقة أصحاب التخرىج من المقلدين كالرازى وأضرابه فانهم لا يقدرّون على الاجتهاد أصلاً لكنهم لاحظاتهم بالأصول وضبطهم للمأخذ يقدرّون على تفصيل قول مجمل ذى وجهين وحكم محتمل لأمرين منقول عن صاحب المذهب أو عن أحد من أصحابه المجتهدين برأيهم ونظرهم فى الأصول والمقايسة على أمثاله ونظائره من الفروع •

الخامسة : طبقة أصحاب التخرىج من المقلدين كالقدودى وصاحب الهداية وشأنهم تفضيل بعض الروايات على بعض آخر بقولهم هذا أولى وهنا أصح رواية وهذا أوضح وهذا أوفق للقياس وهذا أرفق للناس •

السادسة : طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين الأقوى والقوى والضعيف — وظاهر الرواية وظاهر المذهب والرواية النادرة كأصحاب المتون المعتبرة كصاحب الكنز وصاحب المختار وغيرهم •

السابعة : طبقة المقلدين الذين لا يقدرّون على ما ذكر ولا يفرقون بين الغث والسمين ولا يميزون الشمال من اليمين اهـ •

وقال شيخ الأدب مولانا اعزاز على رحمه الله فى بحثه عن الاجتهاد : —

ان الاجتهاد معناه اصطلاحاً « استفراغ الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعى » •

ثم ذكر شرائط الاجتهاد التى ذكرناها سابقاً - ثم قال : هذه الشروط هى آلة المجتهد ومن ادعى الاجتهاد وهو خال عنها فمثله كمثل من يدعى أن فى قوته صعود السماء بلا معراج لما علمت من الأدلة المقدمة ، ولا بد بعد ذلك أن يحصل عنده ملكة بسبب ممارسته هذه العلوم والتأمل فى الأدلة يتمكن بها من استنباط الأحكام من أدلتها • ولا بد بعد هذه الملكة من تأسيسه قواعد يخرج عليها استنباطاته وتقريراته كقواعد الشافعى وباقى الأئمة - وهذه القواعد هى التى أعجزت الناس عن بلوغ حقيقة مرتبة الاجتهاد • اذ لا يكفى فى الاجتهاد معرفة ما تقدم بدون حصول الملكة المذكورة تأسيس القواعد المذكورة ، فمن جهل شيئاً مما تقدم أو علم جميعه ولم تحصل له هذه الملكة المتقدمة أو حصلت ولم يؤسس بها قواعد وادعى الاجتهاد فقد أخطأ وعليه البيان والاثبات •

اذ السيوطى مع احاطته لما ادعى الاجتهاد قام عليه أهل عصره فقد قال المناوى وقد قامت عليه أى السيوطى بذلك القيامة ولم تسلم له فى عصره ، وطلبوا أن يناظروه فامتنع ، ثم قال المناوى بعد ذلك : وكتبوا له حيث تدعى الاجتهاد فعليك بالاثبات ليكون الجواب على قدر الدعوى فتكون صاحب مذهب خامس •

قال العلامة الشهاب ابن حجر المكى : لما ادعى الجلال ذلك قام عليه معاصروه ورموه عن قوس واحد ، وكتبوا له سؤالاً فيه مسائل أطلق الأصحاب فيها وجهين وطلبوا منه انه ان كان عنده أدنى مراتب الاجتهاد وهو اجتهاد الفتوى فليتكلم على الراجح من تلك الأوجه بدليل على قواعد المجتهدين - فرد السؤال من غير كتابة واعتذر بأن له أشغالا تمنعه عن النظر فى ذلك •

قال الشهاب : فتأمل صعوبة هذه المرتبة أعنى اجتهاد الفتوى الذى هو أدنى مراتب الاجتهاد يظهر لك أن مدعيها فضلاً عن مدعى الاجتهاد المطلق

في حيرة من أمره وفساد في فكره وانه ممن ركب متن عمياء وخطب خطب عشواء ، قال : ومن تصور تصور مرتبة الاجتهاد المطلق استخفى من أن ينسبها لأحد من أهل هذه الأزمنة بل قال ابن الصلاح ومن تبعه : انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة - ولا ابن الصلاح نحو الثلاثمائة فتكون انقطعت من نحو ستمائة أى الى زمن السيوطي - بل نقل ابن الصلاح عن بعض الأصوليين أنه لم يوجد بعد عصر الشافعي مجتهد مستقل الى هنا هـ •

ثم قال : واذا كان بين الأئمة تراء طويل في أن امام الحرمين وحجة الاسلام الغزالي وناهيك بهما - هل هما من أصحاب الوجوه الذين هم أقل من المجتهدين أولا ؟ فما ظنك بغيرهما - بل قال الأئمة عن البحارنة لم يكن من أصحاب الوجوه - هذا مع قوله :

لو ضاعت نصوص الشافعي لأمليتها من صدرى •

فاذا لم يتأهل هؤلاء الأكابر لرتبة الاجتهاد المذهبي فكيف يسوغ لمن لم يفهم أكثر عباراتهم على وجهها أن يدعى ما هو أعلى من ذلك وهو الاجتهاد المطلق سبحانه هذا بهتان عظيم - وفي الأنوار عن الامام الرافعي : القوم كالمجمعين على أن لا مجتهد اليوم • انتهى مختصرا وله كلام طويل تقيس جدير بالمطالعة •

وقد نشرت مجلة « الداعي » الصادرة من ديوبند للمحدث المحقق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي تقع الله بعلومه المسلمين كلمة جليلة جامعة ومختصرة يقول فيها ما ملخصه : ان الاجتهاد الذي يقول عنه العلماء أنه قد أغلق بابه منذ سنة كذا وكذا - المراد به : الاجتهاد المطلق • وقد صرح به ابن الصلاح وابن حجر المكي • بل ان ابن الصلاح رحمه الله نقل عن بعض الأصوليين أنه لم يوجد أى مجتهد بعد الامام الشافعي رحمه الله - ويقول الامام عبد الوهاب الشعراني أنه لم يدعى الاجتهاد المطلق أحد بعد الأئمة الأربعة سوى الامام ابن جرير الطبري ولكنه لم تقبل منه هذه الدعوى - هذا من الناحية التاريخية - وأما انه هل من الممكن أن يوجد مجتهد مطلق مستقل بعد الأئمة الأربعة أم لا ؟ فيقول الامام الشعراني

رحمه الله : نعم يمكن ذلك — لأن الله قادر على كل شيء — ولا دليل على
عدم امكان هذا .

ويقول العلامة الشيخ عبد الحى اللكنوى رحمه الله : ان من يدعى أنه
لا يمكن وجود مجتهد بعد الأئمة الأربعة فهذا خطأ وغير صحيح — وانما
لو ادعى أنه لم يوجد الى الآن من بعد الأئمة الأربعة من ادعى الاجتهاد
وسلم له الجمهور ذلك ، فهذا مسلم ولا شك فيه « اهـ .

حصر الأئمة المجتهدين المتبوعين في أربعة

يقول الامام الجليل الشاه ولي الله المحدث الدهلوى فى « عقد الجيد » ص ١٤ : اعلم أن فى الأخذ بهذه المذاهب الأربعة مصلحة عظيمة وفى الاعراض عنها كلها مفسدة كبيرة ونحن نبين ذلك بوجوه : -

أحدها : أن الأمة اجتمعت على أن يعتمدوا على السلف فى معرفة الشريعة فالتابعون اعتمدوا فى ذلك على الصحابة - وتبع التابعين اعتمدوا على التابعين ، وهكذا فى كل طبقة اعتمد العلماء على من قبلهم ، والعقل يدل على حسن ذلك . لأن الشريعة لا تعرف الا بالنقل والاستنباط ، والنقل لا يستقيم الا بأن تأخذ كل طبقة عن قبلها بالاتصال ، ولا بد فى الاستنباط أن تعرف مذاهب المتقدمين لئلا يخرج عن أقوالهم فيخرق الاجماع ويبنى عليها ، ويستعين فى ذلك كل بمن سبقه لأن جميع الصناعات كالصرف والنحو والطب والشعر والحدادة والنجارة والصياغة لم تيسر لأحد الا بملازمة أهلها - وغير ذلك نادر بعيد لم يقع وان كان جائزا فى العقل ، واذا تعين الاعتماد على أقاويل السلف فلا بد من أن تكون أقوالهم التى يعتمد عليها مروية بالاسناد الصحيح أو مدونة فى كتب مشهورة وأن تكون مخدومة بأن يبين الراجح من محتملاتها - ويخصص عمومها فى بعض المواضع ، ويقيد مطلقها فى بعض المواضع ، ويجمع المختلف منها ويبين علل أحكامها ، والا لم يصح الاعتماد عليها وليس مذهب فى هذه الأزمنة المتأخرة بهذه الصفة الا هذه المذاهب الأربعة . اللهم الا مذهب الامامية والزيدية وهم أهل البدعة لا يجوز الاعتماد على أقاويلهم .

وثانيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتبعوا السواد الأعظم ولما اندرست المذاهب الحققة الا هذه الأربعة كان اتباعها اتباعا للسواد الأعظم - والخروج عنها خروجا عن السواد الأعظم .

وثالثها : أن الزمان لما طال وبعد العهد ، وضيعت الأمانات لم يجز أن

يعتمد على أقوال علماء السوء من القضاة الجورة والمفتين التابعين لأهوائهم حتى ينسبوا ما يقولون الى بعض من اشتهر من السلف بالصدق والديانة والأمانة اما صريحا أو دلالة وحفظ قوله ذلك • ولا على قول من لا ندري هل جمع شروط الاجتهاد أولا - فاذا رأينا العلماء المحققين في مذاهب السلف عسى أن يصدقوا في تخريجاتهم على أقوالهم واستنباطهم من الكتاب والسنة ، وأما اذا لم نر منهم ذلك فهيئات اه •

ويقول العلامة الشيخ المفتي محمد شفيع الديوبندى في جواهر الفقه ص ١٣١ في رده على سؤال أنه لماذا يقلد الأئمة الأربعة فقط ؟ وألم يوجد في السلف امام على درجتهم ليقلد ؟ وهل ورد حكم تقليد الأئمة الأربعة في أى نص ؟

فأجاب نور الله مرقدہ : - أن انتهاء سلسلة التقليد على الأئمة الأربعة ليس بأمر عقلى ولا شرعى بل انه اتفاقى محض حيث أنه بمشيئة الله عز وجل اندرست جميع المذاهب سوى هذه المذاهب الأربعة وأصبحت وكأنها لم تكن - ووجود خمسين أو مائة مسألة منقولة عن أحدهم لا يمكن أن يقال عليها انها مذهب فلان يقلده الناس لأنهم لو قلدوهم في هذه الخمسين أو المائة مسألة فماذا يفعلون في الآلاف وعشرات الآلاف من المسائل والأحكام الأخرى ، وعندما رأينا أن جميع المذاهب سوى هذه الأربعة قد اندرست • لم يبق لدينا سبيل سوى جسر التقليد في هذه الأربعة اضطرارا لذا تجد ابن خلدون في مقدمة تاريخه عند الكلام على مذهب الظاهرية يقول: ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمتة وانكار الجمهور على منتحليه ولم يبق الا في الكتب المجلدة •

وفيها أيضا صرح بقوله « ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون عن سواهم ... الخ » اه •

واتفق الجميع على هذا ، ولم يبق فيه أى خلاف بينهم - وعندما كثرت الاصطلاحات المختلفة في العلوم وصعب الوصول الى مرتبة الاجتهاد « لعدم وجود الشروط اللازمة له » وعندما خيف أن ينسب الاجتهاد الى غير أهله والى الذين لا يعتمد على دينهم ولا على رأيهم - فحينئذ صرح

العلماء بالعجز عن الاجتهاد وقيّدوا الناس على أن يخصصوا لهم واحدا من هؤلاء الأئمة الأربعة للتقليد - ومنعواهم من تقليد امامين منهم أيضا في وقت واحد فانه تلاعب وتلفيق - وأما غير هؤلاء المتبوعين من الأئمة فلم يبق الا نقول أقوالهم في الكتب - وليست لهم كتب فقهية مستقلة دونت فيها أقوالهم وآراؤهم ، وبدأ كل مقلد بعد تصحيح الأصول واتصال السند بالعمل بمذهب امامه ، وانحصر حصول الفقه في هذا الزمان على تقليد مذهب هذا الامام فقط .

والآن في هذا الزمان دعوى أى مدع للاجتهاد مردودة غير مسلمة وتقليده مهجور ومتروك . وقد اتفق أهل الاسلام في هذا الزمان على تقليد الأئمة الأربعة .

يقول الامام ابن الهمام في « فتح القدير » : انعقد الاجماع على عدم العمل بالمذاهب المخالفة للأئمة الأربعة .

ويقول العلامة ابن حجر المكي رحمه الله في « فتح المبين شرح الأربعين » : أما في زماننا فقال أئمتنا : لا يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة : الشافعى ومالك وأبى حنيفة وأحمد « اهـ .

فأصبحت مطالبة أحدهم الدليل على أنه لم انحصر التقليد في الأئمة الأربعة فقط في غير محله - ومثال ذلك مثال شخص كان له أولاد كثيرون ومات بعضهم حتى أنه عندما مات الأب لم يبق من أولاده هؤلاء أحياء الا أربعة فقط - فحتما سينحصر ارث الأب في هؤلاء الأولاد الأربعة الأحياء فقط . مع أنه كان للأب المتوفى أولاد غيرهم أيضا - ولكنك لا تجد أحدا يعترض على أنه لم انحصر ارث الأب في الأولاد الأربعة فقط ، ولو اعترض أحد فرضا فلا يكون الجواب الا أن هذه هي مشيئة الله وقضاؤه سبحانه المجى والميت .

وقال العلامة الفاضل الملاجيون رحمه الله في « التفسير الأحمدى » : والانصاف أن انحصار المذاهب في الأربعة انما هو فضل المهي وقبولية من عند الله تعالى لا مجال فيها للتوجيهات والأدلة « (جواهر الفقه) .

التقليد

مادام قد انغلق باب الاجتهاد وانحصرت المذاهب في مذاهب الأئمة الأربعة فوجب اذن تقليدهم — والذين يقولون عن التقليد أنه شرك يجهلون حقيقة التقليد — فان التقليد « نفوذ بالله وحاشا » ليس بشيء مستقل في مقابل سنة الرسول صلى الله عليه وسلم — بل ان التقليد هو استسلام للأحكام التي استنبطها الأئمة الكرام من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وآثار الصحابة رضي الله عنهم — لأن التقليد عرف بقولهم : « انه قبول غير المجتهد لقول المجتهد في الأحكام الفقهية الفرعية ولا يطالبه بالدليل عليها معتمدا على أن المجتهد لديه دليل عليها » .

وقد روى الامام أبو داود في سننه عن جابر رضي الله عنه قال خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لي رخصة في التيمم قالوا ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات . فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال : قتلوه قتلهم الله تعالى الا سألوا اذ لم يعلموا فانما شفاء العي السؤال انما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو ليصب . . . الخ الحديث .

أنظر هؤلاء أفتوا على ظاهر لفظ قوله تعالى « فلم تجدوا ماء » مع أن الاجتهاد والفتوى لها شروط كثيرة وقد ذكرناها في السابق — لذا قال شيخ الاسلام ان تيمية رحمه الله في فتاواه ج ٢٠ ص ٢٠٣ : والذي عليه جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز في الجملة ، والتقليد جائز في الجملة . . وأن الاجتهاد جائز للقادر على الاجتهاد والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد ويقول في مقام آخر ج ٢٠ ص ٢٠٩ : « واتباع شخص لمذهب شخص بعينه لعجزه عن معرفة الشرع من غير جهته انما هو مما يسوغ له ، ليس هو ما يجب على كل أحد اذا أمكنه معرفة الشرع بغير ذلك الطريق » اهـ .

وذكر العلامة أبو الوليد الباجي المالكي شارح الموطأ في كتابه « الحدود في الأصول » - عن التقليد أنه قبول قول من يقلده بدون دليل وان علم دليله - وهو « أى التقليد » فرض في حق من لا يقدر على الاجتهاد .

وذكر الامام الكنكوهي نور الله مرقدته في رسالة له نقلها الشيخ محمد شفيع « المفتي الأعظم بباكستان رحمه الله في كتابه « جواهر الفقه » يقول: قولكم : « ان اعتقاد وجوب التقليد الشخصي بدعة سيئة » أقول : ان التقليد الشخصي مباح عندكم كما اعترفتم بذلك في أعلاه ولكنكم لم تفهموا أنه ما معنى المباح وقد خالفتم بقولكم هذا الأخير المنقول والمعقول معا ، فان التقليد نفسه « أى التقليد المطلق » فرض لقوله تعالى « فاسألوا أهل الذكر » الآية . ولقوله صلى الله عليه وسلم « انما شفاء العي السؤال » وهذا بدهى أيضا لأن الدين لا يمكن أن نحصل عليه بدون التعلم اذ لا علاقة للعقل والحس فيه « أى بدون النقل » لذا فان التقليد مطلقا فرض « أى على الذى لا يقدر على الاجتهاد » أعتقد أنكم أيضا تقرون بهذا والا أثبتناه لكم - ثم التقليد له صورتان : الأولى التقليد الشخصي والأخرى التقليد غير الشخصي - لأنهما جزءان لجنس واحد وان شئت فقل عنه « جنس وله نوعان » أو أنه « مطلق وله فردين مقيدين » أو أنه « كلى وله جزءان » قرر عنها كما تشاء . وعلى كل فهما نوعان من التقليد لتحقيق التقليد المطلق الذى هو فرض .

والآن أسألك : اذا كان الشئ أصله فرض فكيف يكون أحد نوعيه الذى يتحقق الأصل به مباحا - يا عبد الله ان الفرض والمباح حكمان مباينان لبعضهما - فكيف يكون أحد نوعى الجنس من غير نوع الجنس الآخر فكر قليلا يا أخى : ان التقليد المطلق فرض - فهل يكون التقليد الشخصي مباحا مع أن التقليد الشخصي هو أحد النوعين لتحقيق التقليد المطلق . فعلم أن سوء الفهم كله نشأ من هنا .

لذا فافهم أن التقليد بنوعيه فرض ان كان شخصا أو غير شخصي - وليس أيا منهما مباح - الا أنه بما أن هناك تخير في امثال أمر التقليد

فلك الخيار أن تختار أى النوعين شئت - فان اخترت أحد نوعيه
فلا حاجة الى النوع الآخر - انما اذا لم تختار أى واحد من النوعين فانك
تؤثم - وقيل لهذا التخيير انه مباح مجازا - وليس أن التقليد الشخصى
بذاته مباح ، ومثاله : ان فى كفارة القسم مثلا تكون نفس الكفارة فرضا -
والتخيير فى الاطعام والكسوة والرقية - فان أدبت أحد الثلاثة برأت من
القسم وان لم تؤد أحد الثلاثة فتؤثم • • وهكذا حال جميع الكليات •

فان المطلق الشرعى يكون فرضا - ويقال لأحد أنواعه مباحا باعتبار
الاباحة فى اختيار أحد أنواع تحقيقه اه - والرسالة طويلة جدرة
بالمطالعة •

ونقل عن الامام النانوتوى نور الله مرقده أنه قال فى احدى رسائله :
(أما بالنسبة للتقليد فلا ريب فى أن دين الاسلام واحد - والمذاهب
الأربعة كلها حق - ولكن كما أنه فى الطب مثلا سواء كان الطب « اليونانى
أو الهيموييتك أو الطب الحديث فالأطباء المعترف بهم يحق لكل شخص
أن يتعالج عند من شاء منهم وكل واحد منهم أهل ليعالج المرضى • ولكن
عند اختلاف آراء الأطباء فى معالجة شخص ما يكتفى بعلاج واحد منهم
فقط كليا وفى كل شىء « فعلى رأيه تؤخذ الأدوية وعلى رأيه يكون نوعية
الغذاء وعلى رأيه تترك بعض الأشياء وهكذا » ويترك العمل بآراء بقية
الأطباء ويتعين العلاج على رأى واحد فقط وهذا واقع ومشاهد ومعلوم
لدى الجميع » • فهكذا أيضا بالنسبة للأئمة عند اختلافهم يتبع أحدهم
كليا وفى كل شىء يكتفى باتباعه دون غيره من الأئمة •

وكما أنه يحدث فى الطب أن بعض المرضى يترك العلاج عند بعض
الأطباء ويذهب الى طبيب آخر ويتعالج لديه فيجعل علاجه كليا عند هذا
الأخير هكذا حدث لبعض المشايخ فى السابق أنهم تركوا مذهباً لوجه من
الوجوه والتزموا بمذهب آخر واتبعوه • ولكن لم يفعلوا أن أخذوا شيئاً
من هذا المذهب وشيئاً من هذا فيفتحوا بعملهم باباً خامساً للمذهبية ،
فالامام الطحاوى مثلا كان شافعيًا ثم صار حنفيًا - وبالجملة فلا مخرج

من التقليد لذلك ترى أنه وجد ملايين العلماء والمحدثين وكلهم أخذ بالتقليد . انظر الامام الترمذى ما أعظم شأنه فى العلم والحديث والتفقه وهو صاحب السنن مع كماله وفضله هذا كان مقلدا : وسننه خير دليل على ذلك . فاذا كان أمثال هؤلاء مع كمالهم مقلدين فالترمذى قلد الامام الشافعى والطحاوى والامام محمد الشيبانى والامام أبو يوسف قلدوا الامام أبا حنيفة - فأى عالم بعد هؤلاء تراه اليوم يستغنى عن التقليد .

ثم ان وجد هناك عالم كبير لم يقلد اماما مثالا - فما يغنى ذلك ؟

أولا : من يسمع لواحد أو اثنين من العلماء مقابل ملايين العلماء أى عاقل تسأله يقول لك : ان ما ذهب اليه العالم كله بصغيره وكبيره حتما هو الحق . ثم وهل من المعقول أن نختار نحن الجهلاء مسلك العلماء . وهذا مثاله مثال المريض الجاهل يرى أحد الأطباء مرض فعالج نفسه بنفسه ولم يتعالج عند طبيب آخر - ففكر هذا الجاهل أيضا أن يختار نفس الطريقة وأراد أن يعالج نفسه بنفسه ورأيه واستغنى عن الأطباء فأسألك بأنه ماذا يقال عن هذا الشخص ؟ عاقل أم مجنون .

فهكذا اذا رأى جاهل عالما يترك التقليد فأراد بذلك أن يستغنى هذا الجاهل أيضا عن التقليد فلا أقول الا أن العلم لم يكن من قبل لدى هذا والآن بعمله هذا دل على أن لا عقل له أيضا .

واليوم المنتسبون الى العلم والذين يقال لهم علماء أكثرهم ان لهم أقل كلهم فى حكم الجهلاء . بل ان بعض العلماء فى الحقيقة أجهل من الجهلاء تراهم يتأبطون كتابا أو كتابين ويخرج ليحفظ الناس وبينه وبين العلم بعد المشرقين يظن نفسه عالما وهو جاهل . فان العالم هو من يستطيع على الأقل أن يدرس الطلبة كل كتاب من جميع أبواب العلوم » (جواهر الفقه ص ١٣٥) .

وفى مكاتيب شيخ الاسلام حسين أحمد المدنى نور الله مرقده رسالة طويلة باسم الشيخ أبى الليث أمير « الجماعة الاسلامية » السابق ردا على

رسائله يذكر فيه ما ترجمته بالعربية « أن مولانا محمد حسين البتالوى رحمه الله وكان من أئمة اللامذهبيين المتحمسين ومدافعا قويا للامذهبية وناشرها في الهند يقول في مجلته « اشاعة السنة » المجلد الثانى « بعد تجربة خمس وعشرين سنة علمنا أن الناس الذين يصيرون مجتهدين مع كونهم جهلاء « غير علماء » ويتركون التقليد مطلقا تجدهم في النهاية ينفضون أيديهم حتى من الاسلام فبعضهم يختار المسيحية وبعضهم يختار الالحاد فلا يتقيدون بدين ولا مذهب ، وما الفسق والخروج عن أحكام الشريعة الا النتيجة الأولى للتحرر وعدم التقييد . ان هؤلاء الفسقة نراهم يجاهرون بترك الجمعة والجماعات وحتى يتركون الصلاة والصوم بأصله . فلا تقوى ولا ورع ولا احتراز حتى عن الربا والخمر وغيرها من الكبائر المحرمات - ومن يتحاشى منهم عن هذه المحرمات الظاهرة لمصالح دنيوية تراهم يتخبطون في الفسق المخفى ليلا ونهارا فيستأسرون النساء بطرق ملتوية في عقودهم ويتحصلون على أموال الله وعباده وحقوقهم بحيل محرمة وطرق باطلة . . صحيح أن أسباب الكفر والارتداد والفسق كثيرة في العالم - ولكن بالنسبة لخروج المتدينين عن الدين والتدين ، وابتلائهم بالفسق والفجور يعتبر ترك التقليد مع عدم وجود العلم سببا هاما ومصيبة عظيمة » انتهى مختصرا ومترجما قلت : وما ذكره شيخ الاسلام المدنى عن الشيخ محمد حسين البتالوى كان بعد أن مر الشيخ البتالوى بتجارب كثيرة في حياته .

وقد نقلت في « سوانح قاسمى ص ٢٣ له قصة أخرى قبل هذه بمدة وهى أن الشيخ محمد حسين البتالوى كتب للامام الكبير للشيخ قاسم النانوتوى بأنى أرغب فى التحدث اليكم فى بعض الأمور بخلاوة حيث لا يحضرنا أحد ولو كان من تلاميذكم المخصوصين فوافق الامام النانوتوى على ذلك وكتب له بأن يتفضل فحضر وقلل الباب عليهما وبدأ الحديث فقال الامام : ان ما نتحدث فيه يجب أن يلاحظ فيه أمران : أحدهما : أن المسألة المبحوث فيها تبينون أنتم فيها مذهب الحنفية وأنا على أن آيين الدلائل الشرعية عليه . وثانيهما : انى مقلد للامام أبى حنيفة رحمه الله لذلك فما تعترضون عليه من الأقوال أو ما تحتجون به على يجب أن يكون

للإمام نفسه ولا يكون حجة على أن الشامي « ابن عابدين » قال كذا أو أن صاحب فتح القدير قال كذا الخ فاني لست بمقلد لهؤلاء - فوافق - وتحادثا في مسائل « الفاتحة خلف الإمام ورفع اليدين والتأمين بالجبر وغيرها من المسائل الكثيرة » وحسب ما تقرر كان يبين الشيخ مذهب الأحناف والإمام يثبت بالدلائل المفصلة - فكان الشيخ البتالوي أحيانا عند سماعه للأدلة يندهش ويتعجب لحسن الاستدلال وقوة الحجة فيتواجد لذلك ويتمايل ويقول سبحان الله .. سبحان الله - منبها مما سمع وعند الانتهاء من الحديث قال الشيخ محمد حسين البتالوي بتأثر : أتعجب ياسيدي .. مثلكم ويكون مقلدا ؟ « أي مع هذا العلم الجهم والفهم والذكاء وقوة الاستنباط كيف ترضون بالتقليد دون الاجتهاد » فأجاب الإمام قدس الله روحه ببساطة : وأنا أتعجب ! مثلك ولا يكون مقلدا ؟ » انتهى مختصرا .

قلت : لقد سمعت هذه القصة من بعض الأكابر وسمعت فيها أن الإمام النانوتوي قال في آخرها في جواب الشيخ البتالوي « انه يكفي حجة ودليلا لكون التقليد واجبا قولكم هذا في » والله أعلم .

كان أحد زملائي في الدراسة بمظاهر العلوم بعد التخرج قد توظف بسكتبتها ثم لقلة الراتب « لأن الرواتب كانت حينئذ قليلة جدا » ترك الوظيفة وانتقل الى مدينة عليكرة وتوظف لدى طبيب هناك كان من جماعة أهل الحديث « وهم جماعة لا يتقيدون بتقليد أحد من الأئمة الأربعة المتبوعين وانما يدعون التمسك بالحديث الشريف والرجوع اليه في جميع الأحكام » وبعد عدة أيام وصلتني منه رسالة يذكر لي فيها بالتفصيل النعيم الذي يتمتع به هناك فالراتب مريح جدا والطبيب الذي يعمل لديه يحبه ويكرمه ويجلسه معه على مائدته الخ ذلك وفي آخر الرسالة ذكر أنه واقع هناك في مشكلة عويصة وهي أن الدكتور المذكور في صلاته عندما يرفع رأسه من الركوع يرفع يديه ثم ما يزال رافعا إياهما الى أعلى حتى يسجد على نفس هذه الحال . وهو بما أنه متعود على هذه العملية فلا يشق عليه ولكن صاحبنا هذا عندما يسجد على تلك الطريقة غالبا ما يحدث أنه يضر

ساقطا على الأرض • وذكر أنه قال للدكتور أن الشيخ نذير حسين والشيخ
ثناء الله يذكران في فتاواهما خفض اليدين بعد رفعهما ولكن الدكتور رد عليه
بشدة واستنكار قائلا : اننى لست مقلدا للشيخ نذير حسين أو الشيخ ثناء
الله ولو كنت مقلدا أحدا فلم لا أقلد الامام أبا حنيفة الذى يفوق هؤلاء فى
العلم والعمل والتقوى بمراحل — وانما دلنى على حديث عن الرسول
صلى الله عليه وسلم واحتج على به • وبعد رواية هذه القصة بتفصيلها
طلب منى هذا الزميل أن أبحث له عن حديث فيه خفض اليدين بعد رفعهما
فى القومة حتى تحل مشكلته •

وفى تلك الأيام كنت مشغلا بتدريس الحديث الشريف • وفى هذه
الساعة لا الرسالة أمامى ولا أذكر الموضوع بالضبط وانما أذكر أنى نقلت
له بعض روايات أبى حميد الساعدى رضى الله عنه من صحيح البخارى
وغيره التى فيها « فاذا رفع رأسه استوى حتى يعود كل فقار مكانه » •

تقليد الامام الاعظم أبى حنيفة رحمه الله

ان عامة أهل الهند والباكستان يلتزمون بمذهب الامام أبى حنيفة رحمه الله تعالى . وذلك لأن فاتحى الهند الأوائل كانوا عامة حنفىوا المذهب فى الفقهيّات . فوصل معهم الى هذه الديار مع الاسلام المذهب الحنفى أيضا .

وهناك وجوه أخرى أيضا أدت الى ترجيح المذهب الحنفى وقد ذكرت بعضها بالتفصيل فى مقدمتى لأوجز المسالك الى موطأ مالك ومن جملتها : -

ان عهد الامام الأعظم أقرب الى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من بقية الأئمة المتبوعين رحمهم الله تعالى كما سبق أن بينا حيث ذكرنا بالتفصيل عصور الأئمة الأربعة والمحدثين . فقد ولد الامام أبو حنيفة سنة ثمانين من الهجرة النبوية أى فى القرن الذى توفى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أن للثلاثيات أهمية عظيمة فى صحيح البخارى وغيره من كتب الحديث وقد ألقت رسائل مستقلة فى الثلاثيات وحدها . والثلاثى هو الحديث الذى يكون فى سنده بين المحدث وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة رواة فقط أولهم شيخ المحدث والثانى التابعى والثالث الصحابى .

والامام أبو حنيفة رحمه الله على قول الحنفية تابعى رواية أيضا فلم يتبق الا الصحابة رضى الله عنهم وهم كلهم عدول .

والذين يقولون عن الامام أبى حنيفة أنه كان من أتباع التابعين فعليه أيضا يكون الفقه الحنفى « ثنائيا » أحدهما صحابى « وهم كلهم عدول » والآخر تابعى فان أستاذ الامام أبى حنيفة تابعى ، وكل واحد أعلم من غيره بحال أستاذه . لذلك فالطعن فى روايات الحنفية والحكم عليها بالضعف جهل بالفن ، فان الروايات التى يأتى فيها راو ضعيف فى الدرجة الثالثة

أو الرابعة لا تطعن به روايات الحنفية • وقد قال شيخ الاسلام ابن تيمية في فتاواه ح ٢٠ ص ٢٣٩ « بل الذين كانوا قبل جمع هذه الدواوين أعلم بالسنة من المتأخرين بكثير لأن كثيرا مما بلغهم وصح عندهم قد لا يبلغنا الا عن مجهول أو باسناد منقطع أن لا يبلغنا بالكلية فكانت دواوينهم صدورهم التي تحوى أضعاف ما في الدواوين وهذا أمر لا شك فيه من علم القضية » اهـ •

ثم يلاحظ أن الامام البخارى رحمه الله أورد في صحيحه اثنين وعشرين رواية ثلاثية - عشرون منها عن تلاميذ الامام أبى حنيفة أو عن تلاميذ تلاميذه رحمه الله - فاحدى عشر رواية منها عن مكى بن ابراهيم وهو تلميذ الامام أبى حنيفة مباشرة - فقد حكى الموفق عنه أنه دخل الكوفة ولزم أبا حنيفة وسمع منه الحديث والفقه وأكثر عنه الرواية ويحبه جدا شديدا - حتى قال اسماعيل بن بشر : كنا فى مجلس المكى فقال حدثنا أبو حنيفة فصاح رجل غريب حدثنا عن ابن جريح ولا تحدثنا عن أبى حنيفة • • فقال المكى أنا لا تحدث السفهاء خرجت عليك أن تكتب عنى قم من مجلسى فلم يحدث حتى اقيم الرجل من مجلسه ثم قال حدثنا أبو حنيفة ومربه • هـ •

ثم ست روايات عن أبى عاصم النبيل الضحاك بن مخلد وهذا أيضا تلميذ للامام أبى حنيفة •

وثلاث روايات عن محمد بن عبد الله الأنصارى - وهذا تلميذ الامام زفر وكذلك تلميذ للامام أبى يوسف القاضى أيضا وبقي روايات لا أعلم هل هما من تلاميذ الامام أو أحد تلامذته أم لا ؟ والله أعلم •

وقد ذكرت فى مقدمة الأوجز عن الامام الشعرانى رحمه الله انه قال : قد من الله على بمطالعة مسانيد أبى حنيفة الثلاثة من نسخة صحيحة عليها خطوط الحفاظ فرأيت أنه لا يروى حديثا الا عن خيار التابعين العدول الثقات الذين هم من خير القرون كالأسود وعلقمة وعطاء وعكرمة ، ومجاهد ومكحول والحسن البصرى وأضرابهم فكل الرواة الذين بينه وبين الرسول

صلى الله عليه وسلم عدول ثقات أعلام خيار وليس فيهم كذاب ولا متهم بالكذب اهـ •

وقد بسطت في مقدمة الأوجز الكلام عن فقه الامام أبى حنيفة رحمه الله ذكر فيها في الفائدة التاسعة : فيما يبنى عليه مذهبه ، قال ابن حجر : يتعين عليك أن لا تفهم من أقوال العلماء عن أبى حنيفة وأصحابه أنهم أصحاب الرأى أن مرادهم بذلك تنقيصهم ولا نسبتهم الى أنهم يقدمون رأيهم على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا على قول أصحابه لأنهم برآء من ذلك فقد جاء أبى حنيفة من طرق كثيرة مملخصه أنه أولا يأخذ بها في القرآن فان لم يجد فبالسنة فان لم يجد فبقول الصحابة فان اختلفوا أخذ بما كان أقرب الى القرآن أو السنة من أقوالهم ولم يخرج عنهم فان لم يجد لأحد منهم قولاً لم يأخذ بقول التابعين بل يجتهد كما اجتهدوا اهـ

وقال ابن المبارك رواية عنه : إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين وإذا جاء عن الصحابة اخترنا ولم نخرج عن أقوالهم وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم ، وعنه أيضا : عجا للناس يقولون أفتى بالرأى ، ما أفتى الا بالأثر ، وعنه أيضا : ليس لأحد أن يقول برأيه مع كتاب الله ولا مع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مع ما أجمع عليه أصحابه ، وأما ما اختلفوا فيه فنتخير من أقاويلهم أقربهم الى كتاب الله أو الى السنة •

وسمعه رجل يقايس آخر في مسألة فصاح : دعوا هذه المقايسة فان أول من قاس ابليس — فأقبل اليه أبو حنيفة فقال : يا هذا وضعت الكلام في غير موضعه ، ابليس رد بقياسه على الله تبارك وتعالى أمره فكفر بذلك وقياسنا اتباع لأمر الله تعالى لأننا نرده الى كتابه وسنة رسوله وأقوال الأئمة من الصحابة والتابعين فنحن ندور حول الاتباع فكيف نساوى ابليس لعنة الله فقال له الرجل : غلطت وتبت فنور الله قلبك كما نورت قلبى اهـ •

وقال ابن حجر : الفصل الأربعون في رد ما قيل انه خالف فيه صرائح الأحاديث الصحيحة من غير حجة وهذا باب واسع جدا . . ثم قال : وسبب صدور ذلك منهم « أي القائلين » أنهم استروحوا ولم يتأملوا قواعده وأصوله . ثم ذكر ابن حجر الأصول مفصلا وقد ذكرتها في الأوجز فنذكر منها : أن خبر الواحد لا يقبل اذا خالف الأصول المجمع عليها ، ومنها عمل الراوى بخلاف مرويه لأنه يدل على النسخ أو نحوه ، ومنها تفرده في عموم البلوى بأن يحتاج كل واحد الى معرفته لأن العادة تقضى باستفاضة نقل مثله فانفراد واحد به قدح فيه ومنها وروده في حد أو كفارة لسقوطهما بالشبهة واحتمال خطأ الراوى المنفرد به شبهة ، ومنها طعن بعض السلف فيه ، ومنها وقوع الاختلاف في الصحابة في مسألة ورد فيها خبر الواحد ولم يحتج أحد منهم به فاعراضهم عن الاحتجاج به مع شدة عنايتهم بالأحاديث دليل على نسخه أو نحوه . ومنها مخالفته لظاهر عموم القرآن لأن أبا حنيفة لا يرى تخصيص عمومه ولا نسخه بخبر الواحد لأنه ظنى وذاك قطعى - وتقديم أقوى الدليلين واجب ومنها مخالفته للسنة المشهورة ، . . واذا تقرر ذلك علم منه نزاهة أبي حنيفة مما نسب اليه أعداؤه والجاهلون لقواعده ، بل لمواقع الاجتهاد من أصلها من تركه لخبر الآحاد لغير حجة وانه لم يترك خبرا الا لدليل أقوى عنده وأوضح . اهـ .

قال ابن حزم الظاهري : جميع الحنفية مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة : أن ضعيف الحديث عنده أولى من الرأي اهـ .

وحكى العلامة الشعراني رحمه الله عن شقيق البلخي : كان أبو حنيفة من أورع الناس وأعلم الناس وأعبد الناس وأكرم الناس وأكثرهم احتياطا في الدين وأبعدهم عن القول بالرأى في دين الله وكان لا يضع مسألة في العلم حتى يجمع أصحابه عليها ويعقد عليها مجلسا فاذا اتفق أصحابه كلهم على موافقتها للشريعة قال لأبي يوسف وغيره : ضعها في الباب الفلاني اهـ . وتقدم في بيان مرتبته في الحديث : اذا وردت عليه المسألة . قال : ما عندكم من الآثار ؟ فاذا رووها وذكر ما عنده اختار الأكثر انتهى ما في مقدمة الأوجز

وقد بسط الكلام في مقدمة الأوجز على الاعتراضات على الامام
أبي حنيفة وأما أصله هذا أن خبر الواحد يجب أن لا يكون مخالفا لظاهر
القرآن ولا مخالفا للسنة المشهورة - فهو في الحقيقة قول عمر بن الخطاب
رضي الله عنه في قصة طلاق فاطمة بنت قيس حين روت أنها شكت الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن زوجها طلقها فلم يوجب لها رسول
الله صلى الله عليه وسلم تفقة ولا سكنى فقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي
الله عنه بعد سماعه هذا الخبر منها قوله « ما كنا لندع كتاب ربنا وسنة
بيننا صلى الله عليه وسلم لقول امرأة لا تدري أحفظت أم لا » .

إذا صح الحديث فهو مذهبي

هذه مقولة مشهورة للأئمة الأربعة رضى الله عنهم نقلت عنهم بألفاظ مختلفة ولكن الحافظ نقل أثناء بحث مفصل في فتح الباري في باب رفع اليدين إذا قام من الركعتين قولاً لابن دقيق العيد في رده على ابن خزيمة : وأما كونه مذهباً للشافعي لكونه قال : إذا صح الحديث فهو مذهبي ففيه نظراً هـ ، قال الحافظ : « ووجه النظر أن محل العمل بهذه الوصية ما إذا عرف أن الحديث لم يطلع عليه الشافعي أما إذا عرف أنه اطلع عليه ورده أو تأوله بوجه من الوجوه فلا » اهـ •

وكلام الحافظ ابن حجر رحمه الله صحيح - فقد أورد الامام مالك في الموطأ رواية لابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع من الركوع رفع يديه ومع هذا رأى الامام مالك ومقولته في المدونة معلومة وشهيرة : أن رفع اليدين فيما سوى تكبيرة الاحرام ضعيف عنده ، وأيضاً يقول رحمه الله انه لم يجد رفع اليدين في قيام أو قعود • غير تكبيرة الاحرام وقد بسط عنه في الأوجز • وقد أورد شيخنا في بذل المجهود في « باب السارق يسرق مرارا » عدة روايات في قتل السارق في هذه الحال ثم نقل بعدها عن الشيخ ابن القيم رحمه الله أنه سئل الامام أحمد بن حنبل رحمه الله : لم تركته فقال لحديث عثمان « لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث » • الخ - أى انه ليس في هؤلاء الثلاث السارق مرارا - وبسط في البذل عنه وقد أردت أن أبين هنا فقط أن الامام أحمد قد وصلت اليه روايات قتل السارق ولكنه لم يعمل بها • وفي الماء : مذهب الامام أحمد « القلتين » مع أنه يقول عن حديث بئر بضاعة انه صحيح كما في المغنى ج ١ ص ٢٥ • فثبت أن كلام الحافظ المذكور بأعلاه صحيح •

وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية أيضاً في رسالته « رفع الملام عن الأئمة الاعلام » عشرة وجوه لترك امام من الأئمة للحديث الشريف من

جملتها أن يكون الحديث قد بلغه لكنه لم يثبت عنده ، واشتراطه في خبر الواحد العدل الحافظ شروطا يخالفه فيها غيره ، واعتقاده أن الحديث معارض بما يدل على ضعفه أو نسخه أو تأويله أن كان قابلا للتأويل وهكذا ذكر عشرة وجوه وأسباب لترك الحديث ثم قال : فهذه الأسباب العشرة ظاهرة •

وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل بالحديث لم نطلع نحن عليها فان مدارك العلم واسعة ، ولم نطلع نحن على جميع ما في بواطن العلماء •

والعالم قد يبدى حجته وقد لا يبدىها ، واذا أبداها فقد تبلغنا وقد لا تبلغنا •

واذا بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه وقد لا ندركه سواء كانت الحجة صوابا في نفس الأمر أم لا « انتهى •

وهذا واضح على كل من له ممارسة بالحديث الشريف - فان كلا من الأئمة الأربعة وصلت اليه أحاديث صحيحة وصريحة ولكنه لم يأخذ بها لبعض الدلائل القوية الأخرى - ونفس (رفع اليدين) فيها روايات كثيرة صحيحة لم يأخذ بها أى أحد من الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل الحديث - وتفضيل البحث في الأوجز •

(تنبيه) :

هناك أمر مهم جدا يجب التنبيه عليه بشدة - وهو أنه يجب على كل مقلد لامام من الأئمة أنه اذا لاحظ شيئا يخالف رأى امامه أن لا يطعن بل انه يجب أن لا يرد في قلبه حتى تصور الطعن في أحد من الأئمة أو السادة المحدثين أو الاستخفاف بأقوالهم وآرائهم أو اساءة الأدب معهم بأي صورة وعلى أى حال •

وقد ألف شيخ الاسلام ابن تيمية رسالة هذا موضوعها وهى « رفع

الملام عن الأئمة الاعلام» وهى نفيسة وبديعة فى هذا المضمون وموجودة فى فتاواه وقد طبعت مستقلة أيضا يقول فيها : يجب على المسلمين بعد موالاته الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم — موالاته المؤمنين كما نطق به القرآن خصوصا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم فى ظلمات البر والبحر ، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم .. فان علماء المسلمين خيارهم ، فانهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمته والمحيون لما مات من سنته ، بهم قام الكتاب وبه قاموا — وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا .

وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة — المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً — يعتمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شىء من سنته دقيق ولا جليل ، فانهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن اذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر فى تركه .

ثم ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية عشرة أسباب لترك الحديث وقال بعدها « فهذه الأسباب العشرة ظاهرة وفى كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة فى ترك العمل بالحديث لم نطلع نحن عليها ، اهـ وقد رد فى رسالته على الطاعنين فى الأئمة المجتهدين وبين أن المجتهد مع خطئه له أجر وذلك لأجل اجتهاده وخطؤه مغفور له وان أصاب فله أجران — وأما أن أفتى واجتهد على جهله فانه يؤثم ويقول : بخلاف الذين أفتوا المشجوج فى البرد بوجوب الغسل فاغتسل فمات فانه صلى الله عليه وسلم قال « قتلوه قتلهم الله ، هلا سألوا اذا لم يعاموا ؟ انما شفاء العمى السؤال » فان هؤلاء أخطأوا بغير اجتهاد اذ لم يكونوا من أهل العلم » اهـ

وقد ورد فى الفتاوى للشيخ ابن تيمية أنه سئل عن الشيخ عبد القادر الجيلانى هل هو أفضل المشايخ ؟ وعن الامام أحمد بن حنبل أنه أفضل الأئمة ؟ فأجاب يبحث نفيس جدير بالمطالعة قال فيه : فمن ترجح عنده

تقليد الشافعي لم ينكر على من ترجح عنده تقليد مالك ، ومن ترجح عنده
تقليد أحمد لم ينكر على من ترجح عنده تقليد الشافعي ونحو ذلك ..
ثم قال ان كان الرجل مقلدا فليكن مقلدا لمن يترجح عنده أنه أولى بالحق ،
فان كان مجتهدا اجتهد واتبع ما يترجح عنده أنه الحق ولا يكلف الله نفسا
الا وسعها وقد قال تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم » لكن عليه أن لا يتبع
هواه ولا يتكلم بغير علم .

وقد ذكر الشيخ ابن تيمية في فتاواه أيضا ج ٢٠ ص ٣٠٤ « ومن ظن
بأبي حنيفة أو غيره من أئمة المسلمين أنهم يتعمدون مخالفة الحديث
الصحيح لقياس أو غيره فقد أخطأ عليهم وتكلم اما بظن واما بهوى - فهذا
أبو حنيفة يعمل بحديث التوضيء بالنبيذ في السفر مخالفة للقياس وبحديث
القهقهة في الصلاة مع مخالفته للقياس اهـ الخ .

وفي (تذكرة الرشيد) بالاردوية نقل الشيخ مولانا عاشق الهى فى بيان
أحوال تدريس الامام الربانى الشيخ الكنكوهى قدس الله روحه أنه كان
يقول : « انى أحب المذهب الحنفى محبة خاصة وأنا مطمئن على حقانيته »
.. ومع هذا كان لا يمكن عند ترجيح المذهب الحنفى على غيره بالدلائل
والحجج أن يحصل أى نوع من الالهانة أو التنقيص للمذهب الآخر أو
إساءة أدب مع صاحب المذهب وكان قدس الله روحه اذا لاحظ ميلان
أحد الطلبة الى شىء من ذلك قومه وأصلحه قولاً وعملاً - حتى أنه كان
لا يجذ تعدى الحد فى التقليد نفسه أيضا -

فكان يحدث أحيانا أن بعض الطلبة فى شدة تعصبهم يسىء الظن
ببعض المحدثين فيغير الامام الربانى أسلوبه رأساً ويأتى بما يصلح ذاك
بحكمة بالغة .

وكان اذا سمع من أحد الطلبة كلمة اعتراض أو تنقيص فى ذات أحد
من المحدثين كنت ترى أن أثر الكراهية من ذلك قد بدى على وجهه -
وحينئذ وفى نفس الساعة وفى نفس الدرس يترك بيان وجوه ترجيح مذهب
الحنفية ويشرع فى بيان وجوه مذاهب المحدثين الآخرين كالبخارى وغيره

رحمهم الله حتى يحصل حسن الظن بالسادة المحدثين رحمهم الله أجمعين
وقد نقلت في رسالتي « آب بيتي » بالاردوية في الجزء السادس منها -
قصة نقلها حكيم الأمة العارف التهانوي أن أحد العلماء تأثر من درس
الامام الكنكوهي قدس الله روحه فقال متحمسا : ان الحديث أيضا اذا جاءك
صار حنفيا « وكان قصده : أنه ما من حديث الا وتؤيد به للحنفية ، ولو
كان الامام الشافعي أيضا حيا لما استطاع أن يرد عليك حجتك ، فزجره
الامام الرباني بشدة وقال : ما هذا الذي قلته يا هذا - ان الامام الشافعي
رضي الله عنه لو كان حيا هل تراني كنت تجرأت أن أتفوه بحضرته وماذا
تراني أقول له - انما كنت قلدته وتركت تقليد الامام أبي حنيفة لأنه لا
يناسب في حين وجود المجتهد الحي أن أقلد مجتهدا غير حي » اهـ هكذا نقل
الشيخ التهانوي ويذكر هذا العاجز في رد الامام الرباني على هذا الشخص
حسب ما سمعته من بعض الأكابر أنه قال : لو كان الامام الشافعي
حيا - لكان تقريرى هذا كله اشكالا علميا واهنا ولرد عليه الامام
الشافعي بحجته » ♦

وفي عهد تدريس هذا الفقير في مظاهر العلوم ^(١) كان عامة يشرع في

(١) جامعة « مظاهر العلوم » الدينية بـسهارنبور - بالهند - الشهيرة
في الآفاق ، قد أنجبت رجالا عظماء خدموا الاسلام والعلم في شتى الميادين
وخاصة في خدمة الحديث الشريف ذكر الشيخ أبو الحسن الندوي في
« القراءة الراشدة » في تاريخها ما ملخصه : في سنة ١٢٨٣ هـ افتتح رجال
من أهل العلم والدين وفي مقدمتهم مولانا سعادت علي السهارنفوري الفقيه
المشهور في مدرسة سهارنفور وفي شوال من العام المذكور تولى رئاسة
التدريس بها الاستاذ الكبير مولانا محمد مظهر النانوتوى ربه تسمت المدرسة
بمظهر العلوم وزيدت فيها ألف لتتم عن عام بناء بناية المدرسة الخاصة بها
يعنى عام ١٢٩٣ هـ على حساب الجمل وفي هذه السنة بدأ المحدث الكبير
الشيخ أحمد علي السهارنبوري صاحب حاشية البخارى الشهيرة يدرس
كتب الحديث في المدرسة ويشرف على شئونها ، ثم تبوأ رئاسة التدريس
الشيخ الصالح والاستاذ الكبير مولانا خليل أحمد الاتبهي توى صاحب بذل
المجهود في حل أبي داود سنة ١٣١٤ هـ فأخذت المدرسة زخرفها وبلغت
أوجها في كثرة الطلبة وانتشار الصيت وانتظام الدروس ولم تزل مظاهر
العلوم متمتعة من أول يومها بحماية أعلام الهند في الدين والصلاح وحازت
ثقة المتدينين فكانت تلو دار العلوم ديوبند في كثرة الطلبة ونبوغ الاساتذة

الدرس من أول كل عام يوم الأربعاء وكان هذا الفقير بعد ذلك وإلى
الأرباء الأخرى في الأسبوع القادم يبدأ في بيان مقدمة العلم ومقدمة
الكتاب ومتفرقات أخرى - آخرها بحث « آداب الطالب » وأبين فيه
عشرة أشياء بكل اهتمام وكان حينئذ عهد الشباب والقوة والعزيمة -
« والشباب شعبة من الجنون » كنت أبين للطلبة هذه العشرة أشياء في أول
العام الدراسي شفها - ثم طوال بقية العام ان رأيت أحدا خالف في أحدها
كنت أقوم إليه من مقعدي وأصفعه كفا ساخنا ثم أرجع إلى مكاني بدون
أن أتقوه بأي كلمة - فكان الطلبة المستمرون من أول العام يفهمون لم
حدث هذا - ولكن الضيوف الواردين من غير الطلبة أو الطلبة القادمين
من مدارس وجامعات أخرى وكانوا كثيرا ما يحضرون - يتعجبون من
هذا المنظر فيضرب طالب في درس الحديث ولا كلمة ولا عتاب ثم يرجع
الشيخ إلى مجلسه هكذا؟ - وكان هؤلاء بعد الدرس يسألون الطلبة
المداومين عن السبب فيجيئونهم بأنه ربما كان المضروب نائما أو أنه اتكأ
بمرفقه على الكتاب أو نحوه .. وهذه الأشياء العشر أذكر منها :

- ١ - اخلاص النية •
- ٢ - المواظبة على الدرس ولا تجد في دفتر حضوري لتلك الأيام أمام
اسم أي طالب حرف (غ) طوال سنوات عديدة •
- ٣ - وجوب التراص في الصف .. أي أن الطلبة الجالسين يجب أن
يجلسوا متراسين في الصف وبكل أدب وحزم •
- ٤ - لا نوم في الدرس بتاتا •

== وقد خرجت عددا كبيرا من العلماء والصالحين والرجال العاملين في ميادين
العلم والدين ولعلماء مظاهر العلوم آثار جليلة في شرح كتب الحديث وخدمة
هذا الفن الشريف - وتمتاز مظاهر العلوم وأساتذتها وطلبتها ببساطة في
المعيشة والقناعة بالكفاف وحسن السمات والتواضع والاقبال الكلي على
العلم والدرس والاشتغال بخاصة النفس » انتهى كلام الشيخ الندوي
مختصرا - قلت وبجامعة مظاهر العلوم مكتبة زاخرة بكتب التراث النقيصة
وفيهما مخطوطات نادرة أيضا .

٥ - لا يتكئ أحد على الكتاب •

٦ - المواظبة على أن لا يفوت الطالب أى حديث فى الدرس أمام الشيخ ، وعدم الحضور للدرس جملة كانت أخطر جريمة •

٧ - كان من عادتي أنه عندما تأتى فى الحديث فى كتاب الحدود وغيرها الكلمات الفاحشة والسب وغيرها كنت أترجمها من العربية الى الاردوية بالمعنى الصريح فى الأردوية مباشرة وبدون أى اغماز أو كناية وأوضح معناها جيدا فكان يشترط وبكل شدة أن لا يضحك أحد من الطلبة أثناء ذلك بتاتا وانما يجب الحزم والوقار التام حينئذ - وذلك لأنه كان فى رأى دائما أنه كما أن هذه الكلمات فى اللغة الأردوية بمفهومها هى كذلك فى اللغة العربية أيضا فلم أتصور أن لسانى القدر النجس أظهر من لسان سيد الكونين صلى الله عليه وسلم أو من لسان الصديق الأكبر وغيره رضى الله عنهم فان ما تلفظوا به ولم يترددوا فيه كيف أتصور أنها سب وبذاءة ولا أترجمها بحذافيرها بالاردوية ؟ - فمثلا عندما يرد فى الحديث الشريف لفظه « أنكتها » أو لفظه « أمصص بذر اللات » ونحوها فأنى أترجمها فى الدرس بالاردوية بكل صراحة بالألفاظ الدالة على نفس المعنى بدون كناية باللغة الأردوية - وهكذا .. ومع هذا كله كان مفهوما لدى الطلبة بشدة أن لا يضحكوا لذلك بل يلتزموا بالحزم والوقار التام •

٨ - أن يعامل جميع أئمة الفقه بكل أدب واحترام ولا يعترض على أى منهم اطلاقا ولا يتلفظ بشئ يسىء الأدب فى حقهم بل ولا يتصور الطالب فى قلبه اساءة الأدب مع أحدهم - ان بعض الحمقى بناء على تمسكه بالمذهب الحنفى نجده يحمل على بقية الأئمة المتبوعين وبعض السفهاء يحمل على أئمة الحديث بكلمات ناقدة وهذا مما يؤسف له جدا وكنت دائما أكرهه •

٩ - احترام الأساتذة واکرامهم ليس ظاهرا فقط بل ويحترمهم بقلبه والاحرام العلم .. وكذلك اكرام كتب الحديث الشريف أيضا داخل فيه •

هذه العشرة ذكرتها هنا مختصرا حسب ما تذكرتها - ولقد نشر العزيز محمد شاهد سلمه الله تقرير درسي لصحيح البخاري وذكر فيه هذه الأشياء كلها ببعض التفصيل • وقد ذكرتها أيضا مفصلة في رسالتي « آب يتي » بالاردوية في الجزء السادس منها - وفيها أيضا « الهيئة الشخصية » فقد كنت أشدد فيها أيضا وكنت أهتم بأمر اللحية جدا وأتشدد فيه - وكان من المستحيل أن يشترك مقصر اللحية في الدرس طالبا مداوما •

وحدث مرة أن كان أحدهم يقصر لحيته ويشترك في كل الدروس وعند جميع المدرسين فلم ينتبهوا لذلك - وقلت له : لقد شطبت اسمك من درس أبي داود (وكنت حينئذ أدرس سنن أبي داود) ولكنه مع ذلك استمر يداوم على الدرس - وفي امتحانات ربيع السنة كان اسمه في دفاتر حضور جميع المدرسين الا دفتر أبي داود فظن الناظم أنه ترك سهوا - فسألني - وكنت موجودا في صالة الامتحانات فقلت له : لم يترك اسمه سهوا - وانما لأنه كان يقص لحيته شطبت اسمه من درسي ، ومع أن نظام المدرسة كان لا يسمح للمدرس أن يشطب اسم أحد من الطلبة فالناظم وحده هو الذي كان له حق الشطب ولكن شفقة أكابري على كانت تجعلني أشطب اسم من أرى من الدفتر بنفسى لسبب كهذا وأقول للطالب بأني قد شطبت اسمك وان شئت فاذهب واشتكني لفضيلة الناظم •

ان محبة أكابري وسادتي هؤلاء وشفقتهم جعلتني جريئا عليهم رفع الله درجاتهم وأعلى مراتبهم لديه وأعفى عني وغفر لي تقصيراتي بفضله وكرمه •

وبعد هذه القصة بسنة أو سنتين وصلتني رسالة من نفس هذا الشخص الذي كنت شطبت اسمه بأنه يرغب في مبايعتي في الطريق فرديت عليه بأنك قد جربت سوء خلقى ولاحظت تشددى ثم ان سيدى العارف التهانوى وسيدى شيخ الاسلام المدنى وسيدى العارف الشيخ الرائى بورى

وغيرهم من الأكابر وخلفائهم الكرام موجودون فبايع منهم من شئت فانهم جميعا خير منى على كل حال وأفضل من كل ناحية وأيضا أحسن منى خلقا فرد على برسالة أخرى قال فيها : ان قاسيا مثلى لا يمكن اصلاحه الا بمثلك » ♦

لقد طال الحديث فى الموضوع مع أن المقصود كان بيان أن هذا الفقير كان يشدد دائما فى درس الحديث الشريف على أن اساءة الأدب سواء كانت مع أئمة الفقه أو مع أئمة الحديث أو الأساتذة والمشايخ انما هى جريمة شنيعة جدا يجب الاحتراز عنها ♦

الطريقة

لقد سبق ذكر أن جبريل عليه السلام سأل الرسول صلى الله عليه وسلم : ما الاحسان ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه .. الخ الحديث .

والطريقة في الواقع هي اسم ثان للاحسان المذكور - أو أنها الطريقة التي يمكن بها الحصول على صفة « الاحسان » - وهو الذي يقال له التصوف أو السلوك - أو سمه بما شئت - فانما هي تعبيرات وآلفاظ مختلفة والمقصود واحد .

ان جدى مولانا الشيخ محمد اسماعيل الكاندهلوى طلب من الامام الربانى الكنكوهى قدس الله روحه أن يختلى به ليكلمه - وهناك قال له : انى كنت قد بايعت فى الطريقة مولانا الشيخ محمد يعقوب الدهلوى وأخذت الوصايا والتعليمات من مولانا الشيخ مظفر حسين الكاندهلوى .. وكانت تعليمات الشيخين المذكورين على الطريقة النقشبندية - وبالعمل على تعليماتهما وخلال ثمانية أيام فقط كانت لطائف الستة تدور كالبكرة - ولكنى من صغر سنى كنت مغرما باتباع السنة المطهرة فى جميع الشئون والمحافظة على الاذكار الواردة فى الأحاديث فى جميع الأحوال كالذهاب الى الخلاء والخروج الى السوق والدخول الى المساجد والخروج وغير ذلك فكنت اهتم بهذه الأذكار كثيرا جدا - لذلك لم يشغف قلبى بأعمال المشايخ كثيرا فكنت أعمل المراقبة أحيانا ، ففى عشرة أيام مرة أو فى أسبوعين مرة وهكذا - فهذا حالى والآن وقد طرأ الضعف لكبر السن وأرغب أن تكرمونى ببعض التعليمات فى الطريق - فسأله الامام الكنكوهى : هل الأعمال التى تحافظ عليها هذه حصلت لك فيها درجة الاحسان ؟ فقال : نعم حاصلة فقال له الامام الربانى حينئذ : اذن فلا حاجة لك الى أية تعليمات لأن الاشتغال بأشغال الصوفية بعد الحصول

على مرتبة الاحسان مثاله كمن يدرس كتاب « كريما » (١) بعد أن يكون قد فرغ من دراسة كتاب « كلستان بوستان » (٢) — وهذا ظاهر أن هذا فيه تضييع محض للوقت — لذا فإن اشتغالك بأشغال المشايخ ما هو الا تضييع للوقت ومعصية « كذا نقل في ارواح ثلاثة » بالاردوية ص ٢٩٩ وقد سمعت هذه القصة من أكابرى أيضا وسمعت فيها أن الامام الكنكوهى قال : ان مثله كمثّل رجل حافظ للقرآن ثم يقول انى لم أقرأ القاعدة البغدادية فاقرئونى اياها .

ونقل عن الامام الكنكوهى قدس الله روحه فى مقام آخر انه قال « ان قوة الرسول صلى الله عليه وسلم الروحانية كانت لدرجة أن أعتى كافر كان يتحصل على مرتبة الاحسان بعد اقراره بالشهادتين مباشرة — ونظير ذلك أن الصحابة رضى الله عنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم كيف تتخلى وكيف تتعزى أمام الله — وهذه هى النهاية العظمى ، وكانوا لا يحتاجون الى أنواع المجاهدات والرياضات وانما يتحصلون على هذه القوة الروحانية بالفيض النبوى الشريف « صلى الله عليه وسلم » ولكنها كانت أقل درجة من الرسول صلى الله عليه وسلم — وهكذا كانت موجودة فى التابعين رحمهم الله ولكن أقل درجة من الصحابة رضى الله عنهم وثم فى اتباع التابعين كانت أيضا موجودة هذه القوة الا أنها كانت قد ضعفت جدا — ولجبر هذا النقض أوجد المشايخ السلف المجاهدات والرياضات — فمضت الى مدة من الزمن كوسائل غير مقصودة بذاتها — ولكن كلما ابتعد الزمن عن خير القرون كلما صار يدخل اليها شان المقصودية — ثم بين حين وآخر كانت تضاف اليها أشياء أخرى أيضا حسب الضرورة فنتج من ذلك كله أن دخلت الى الدين بدعات علمية وعملية واعتقادية كثيرة — وقد اجتهد الصوفية المحققون فى اصلاح هذه المفاسد ولكن نتج عن ذلك أن قلت البدعات جدا فقط ولكنها لم تنته كليا — وذكر قدس روحه فى المصلحين الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ شهاب الدين السهروردى

(١) من الكتب التى تدرس فى الابتدائية للغة الفارسية .

(٢) من كتب الادب الكبيرة فى اللغة الفارسية .

ومجدد الألف الثاني الشيخ السرهندي والسيد أحمد بن عرفان الشهيد
البريلوي قدس أرواحهم باختصاص وقال ان هؤلاء قد أصلحوا كثيرا
ولكن لم تطلع المفاسد بالكلية .

وقال أيضا : ان الحق تعالى شأنه قد كشف لهؤلاء السادة طريق
السنة المطهرة - ثم قال : ان من بركات طريق السنة الشريفة أن الشيطان
قلما يستطيع قطع الطريق على السالك فمن الواضح على الجميع أنه
لو اهتم شخص بالأمور التي كان يهتم بها نبينا صلى الله عليه وسلم
كالصلاة مع الجماعة ونحوها وبالغ في الاهتمام بالفرائض والواجبات
والسنن المؤكدة فلا هذا الشخص يتوسوس في نفسه أنه أصبح وليا
ولا الناس يعتقدون فيه أنه من الأولياء الكاملين ولكن لو اهتم شخص
بالأمور التي لم يهتم بها صلى الله عليه وسلم كصلوات الضحى والاشراق
والنوافل بعد المغرب وغيرها فانه هو أولا يظن في نفسه أنه أصبح وليا
والآخرون أيضا يرونه من الأولياء .

ومما قاله أيضا « ان الشارع عليه السلام جعل «الاحسان» هو
المطلوب ولكن الصوفية جعلوا بدله « الاستغراق » مقصودا » اهـ .

وبذيله حتى حكيم الأمة التهانوي نور الله مرقده : قوله : « قال
الصحابة » .. الخ . أقول روى البخاري في كتاب التفسير عن ابن عباس
رضي الله عنهما قال اناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا الى السماء
وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا الى السماء فنزل ذلك . أي قوله تعالى
« ألا أنهم يثنون صدورهم » .. الآية فيهم ، وقوله : « ولكن الصوفية
جعلوا بدله .. الخ » أقول : المراد نفس الصوفية غير المحققين - كذا في
(أرواح ثلاثة) اهـ .

لقد ذكرت في البداية أن أكابري عندهم التصوف والاحسان شيء
واحد وهو جزء من الشريعة الغراء ومؤلفات أكابري مليئة بذلك وقد شدد
على ذلك سيدي الشيخ أحمد السرهندي مجدد الألف الثاني في رسائله
وقد نشرت أنا ثلاثة رسائل لسيدي السرهندي : أولاها منه الى الأنجال أي

أبناء شيخه ومرشده الخواجه « الباقي بالله » وهى رسالة طويلة ومهمة جدا
جديرة بالمطالعة ذكر فيها :

ان حصول التصفية والتزكية مرتبط بأداء الأعمال الصالحة التى تكون
لرضاء الله تعالى وهذه موقوفة على بعثة الأنبياء - اذن فلا يتمكن من
حقيقة التصفية والتزكية بدون البعثة - وأما الصفاء الذى يحصل عليه
أهل الفسق والكفر فهو فى الحقيقة صفاء النفس وليس بصفاء القلب
وصفاء النفس لا يقود الا الى الضلال والخسران •

وفى حالة صفاء النفس هذه ما يحصل لأهل الكفر والفسق من كشف
لبعض الأمور الغيبية فانه استدراج « ثم شدد رحمه الله جدا على تصحيح
العقائد وذكر بعدها » : ثم بعد تصحيح العقائد لا مفر من تعلم الأحكام
الفقهية - ويجب تعلم الفرائض والواجبات والحلال والحرام والسنة
والمندوب والمشتبه والمكروه من الأمور وكذلك يجب العمل بمقتضى علم
الفقه وبعد التمكن من الاعتقاد والعمل الصحيحين « وهما كالجناحين »
ثم ان شمل المرء التوفيق الربانى فحينئذ سلوك طريق الصوفية وهذا
السلوك ليس للحصول على شىء زائد وجديد على هذا الاعتقاد والعمل -
بل المقصود منه تحصيل اليقين والاطمئنان من ناحية المعتقدات ذاتها بحيث
لا يمكن ازالته بتشكيك أى مشكك فيها وبحيث لا يبطل بورود أية شبهة
كانت •

ثم هناك فائدة أخرى من السلوك وهى الحصول على السهولة لأداء
الأعمال وازالة الكسل والعصيان الناتجة عن النفس الأمارة بالسوء •

ليس المقصود من سلوك طريق الصوفية أن تحصل للمرء مشاهدة
الصور والأشكال الغيبية أو معاينة أهل الأنوار - فان هذا كله داخل فى
اللهو واللعب - ثم ما مضرة هذه الصور والأنوار الحسية التى نشاهدها
ونعائنها فى كل ساعة ولماذا يتركها الشخص ويتعب نفسه فى الرياضات
والمجاهدات المتعبة متمنيا الصور والأنوار الغيبية اذ أن هذه الصور
الحسية وتلك الصور الغيبية وهذه الأنوار وتلك الأنوار انما هى كلها

مخلوقة وآيات تدل على وجود الله تعالى عز شأنه « لقد ذكر هذا المقصر
في البداية أن ما علمه جبريل عليه السلام (أى في حديث جبريل) ١ هـ
كان أول شيء فيه الايمان (أى الاعتقادات) والثانى : الاسلام (أى
الأعمال الشرعية) والثالث : الاحسان - (يعنى السلوك) وقد ذكر بهذا
الترتيب أيضا في رسالة السيد المجدد السرهندى قدس الله روحه هذه
مفصلا - وقد بين قدس سره في رسالة أخرى أن الشريعة كفيلا بجميع
السعادات الدنيوية والأخروية وأن الطريقة والحقيقة خادمة للشريعة حيث
يقول : ان الشريعة ثلاثة أجزاء : العلم والعمل والاخلاص ، وما لم تتحقق
هذه الأجزاء الثلاثة كلها لا تتحقق الشريعة وبتحقيق الشريعة تحصل
على رضا الله سبحانه وتعالى - ورضا الحق عز وجل هذا أعلى وأرفع
وأعظم من جميع السعادات الدنيوية والأخروية (ورضوان من الله أكبر)
فالشريعة هى الضامنة لجميع سعادات الدارين فلم يبق اذن أى مطلوب
يحتاج الحصول عليه سوى الشريعة ، والطريقة والحقيقة التى امتاز بها
الصوفية كلاهما تعملان لتكميل الجزء الثالث من الشريعة أى الاخلاص -
اذن فالغرض من تحصيلها ما هو الا تكميل الشريعة وليس أى أمر آخر
على الاطلاق - وأما ما يحصل للصوفية من أحوال ومواجيد وعلوم
ومعارف سوى الشريعة أثناء السلوك فهذه ليست بمقاصد وانما شأنها
شأن الخيالات التى تربي بها أطفال الطريقة - وانما ينبغى أن يتقدم عن
كل هذه الأشياء الى مقام الرضا .

اذ أنه هو المقام الذى تنتهى اليه مقامات الجذب والسلوك فليس
هناك أى مقصود من عبور منازل الطريقة والحقيقة سوى الحصول على
الاخلاص - والاخلاص مستلزم لرضا البارى عز وجل ويوصل واحد
من الألف بعد العبودية من التجليات والمشاهدات العرفانية الى مقام الرضا
والاخلاص العظيم .

وعميان البصيرة يظنون أن الأحوال والمواجيد هى المقاصد وأن
المشاهدات والتجليات هى المطالب لذلك تجدهم أسارى فى سجون الأوهام
والخيالات ومحرومون من كمالات الشريعة المطهرة ، الا أنه صحيح أن

الحصول على مقام الاخلاص ومرتبة الرضا مرتبط بتحقيق هذه الأحوال والمواجيد والعلوم والمعارف ، لذلك فان هذه الأحوال والمواجيد مقدمات للمقصود وليست المقصود نفسه - وقد توضحت لى هذه الحقيقة ببركته صلى الله عليه وسلم بعد أن سرت فى هذا الطريق مدة عشر سنوات كاملة وتجلى لى شاهد الشريعة كما هو حقه مع أنى والحمد لله لم أكن من البداية أسيرا للأحوال والمواجيد ولم يكن نصب عينى أى هدف سوى تحقيق حقيقة الشريعة ولكن ظهرت لى حقيقة الأمر بكل وضوح بعد عشرة كاملة من السنين •

فالحمد لله على ذلك حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه مباركاً عليه ، « تجليات ربانى » ص ٥٣ ، قلت : وأنا أحمد الله وأشكره سبحانه أن هذا العاجز أيضا أجاب مولانا الشيخ حبيب الرحمن اللدهيانوى رئيس جماعة الأحرار على سؤاله المتعلق بحقيقة التصوف : « ان التصوف ما هو الا اسم لتصحيح النية » كما ذكرت ذلك مفصلا فى رسالة « آب يتي » (بالاردوية) وذكرت هناك قصص أخرى فى نفس الموضوع •

وقد شدد الخواجه محمد معصوم النقشبندى رحمه الله أيضا فى رسائله على هذا الأمر أيضا كثيرا فيقول فى الرسالة رقم (٦٠) : —

« ان كمالات الولاية نتيجة لصورة الشريعة ، وكمالات النبوة ثمرة لحقيقة الشريعة ، فاذن ليس هناك أى كمال من كمالات الولاية أو كمالات النبوة يكون خارج دائرة الشريعة أو مستغنيا عن الشريعة » •

ويقول فى رسالة أخرى قدس روحه : « بعد تصحيح العقائد من الضرورى جدا موافقة رأى أهل السنة والجماعة الصائب (المأخوذ من الكتاب والسنة) وأيضا لا مفر أبدا من أداء الفرائض والواجبات واجتناب المحرمات •• ان أساس الاسلامية على خمسة أشياء » وقد مر ذكرها فى حديث جبريل « فان عدم وجود أحد هذه الخمسة خرب بيت الدين وكان ناقصا - وبعد تصحيح العقائد والأعمال الصورية (الظاهرية) يأتى سلوك طريق الصوفية وهذا أيضا ضرورى حتى تتحصل معرفة الحق

سبحانه - وينجو من خطر الأهوار النفسية ، لا أستطيع أن أفهم أن الشخص الذى يكون خاليا من معرفة وليه (أى الله عز وجل) ويجهله سبحانه كيف يعيش هذا المسكين وكيف يستأنس بالأشياء الأخرى دونه سبحانه » •

ويقول نور الله مرقدہ فى رسالة أخرى له « ان أخى ملا حسن على حرر شبهة على رسالة أرسلتها الى الأخ عبيد الله بك وطلب منى جوابا لها ، والشبهة هى أن امتياز الحسن والقبيح يكون فى مقام الشريعة ، فقد رأى مكتوبا فى بعض الرسائل المؤلفة « أن فى الطريقة يكون الصلح مع الجميع والصدقة مع الكل » الخ • وهى شبهة غريبة وفاسدة فكيف تكون مقارنة الطريقة بالشريعة ؟ ومن أين جاءت المساواة بينهما حتى تقارن بينهما - ان الشريعة قد ثبتت بالوحى القطعى الذى لا شك فيه ولا ريب أبدا ، لا تبديل لأحكامها ولا تغيير فنفس الأحكام باقية مستمرة الى قيام الساعة والعمل بمقتضى الشريعة واجب ولا بد منه لجميع العامة والخاصة - ولا يمكن للطريقة أن تجرؤ على رفع أى حكم من أحكام الشريعة الغراء أو تحرر أحدا من أهل الطريقة من التكاليف الشرعية الكريمة • وان من عقائد أهل السنة والجماعة القطعية أن المرء بحالته المتغيرة بعقله بحواسه لا يصل قطعا أبدا الى درجة تسقط عنه التكاليف الشرعية ومن اعتقد بخلاف هذا فقد خرج عن دائرة الاسلام فالحب والولاء للجماعة التى يعادىها الله عز وجل ويأمرنا فى حقهم بالغلظة والشدة يعتبر خروجا على الاسلام - فان هذا الأمر ودعوى محبة الله ورسوله لا يمكن أن يجتمعا فى قلب واحد لأن اطاعة المحبوب ومحبة أحباب المحبوب ومعاداة أعداء المحبوب من لوازم المحبة ، نعم صحيح أنه بعض السالكين ترد لهم بعض الأمور التى تكون فى الظاهر مخالفة للكتاب والسنة فعلى السالك فى أنه لا يفلت منه رأس جبل الشريعة فى هذه الساعة فيشد عليه بالنواجذ ويعمل بخلاف كشفه ووجدانه مقلدا أهل السنة والجماعة على اعتقادهم وعملهم - فى بعض الأحيان تجاول أوساخ طريق السلوك بنداء « انى أنا الله » أن تحول السالك المسكين عن المطالب العليا وتدعوه لعبادتها • فى هذه الساعة يجب على السالك المستقيم أن يقول

كما قال الخليل ابراهيم عليه الصلاة والسلام « لا أحب الآفلين » وبموجب « وجهت وجهي » يفر الى ميدان غيب الغيب ويتابعه صلى الله عليه وسلم في كل خفض ورفع حتى لا يقع في أسر زيف البصر » (مكتوب خواجه معصوم رقم ٧٣) •

وبمناسبة ما أشار اليه سيدي الخواجه معصوم في رسالته هذه - نقل في آب بيتي رقم ٥ ص ١٩٧ برواية الامام النانوتوي عن كتاب « الأرواح الثلاثة » أن أحد المشايخ وهو الخواجه أحمد جام وكان معروفا عنه أنه - مستجاب الدعوات أتت اليه امرأة بابت لها أعمى وطلبت منه أن يمسح على عينيه بيده ليشفى من عميه وكانت تغلب عليه حينئذ حالة العبودية فقال لها بعجز وانكسار بأني لست أهلا لذلك وأنا من أنا ؟ وأصرت المرأة فأجابها بنفس الجواب وهكذا تكرر الطلب من ناحية المرأة ثلاث أو اربع مرات والشيخ يجيبها بنفس الجواب فعندما وجدها لا تقبل منه عذرا ومصرة على طلبها قام وغادر المكان قائلا ان هذا كان من أعمال عيسى عليه السلام أنه كان يرىء الأكمه والأبرص وأما أنا فلست كذلك - ولم يتعد الشيخ كثيرا حتى ألهم « من أنت ومن عيسى ومن موسى ارجع وامسح على وجه الأعمى لا أنت تبرئه من عماء ولا عيسى ولا غيره وانما « ما مي كنيم » (أى نحن نفعل) وبعد سماعه لهذا الالهام رجع وأخذ يكرر عبارة (ما مي كنيم .. ما مي كنيم) حتى وصل الى الأعمى ومسح على وجهه فارتد بصيرا » •

بعد رواية هذه القصة قال الامام النانوتوي نور الله مرقده : ان بعض الحمقى يظنون في هذه الأحوال أنه يقول (ما مي كنيم) أى (نحن نفعل) عن نفسه مع أن هذا لا يكون قولهم هم وانما يكون ذلك قول الحق تعالى ، فعندما يسمع أحدهم شعرا حسنا من مغن حسن الصوت تجده لتلذذه به يكرر ذاك الشعر مرات وكرات ويتلذذ بذلك - فهكذا هنا أيضا كان يكرر نفس عبارة الالهام (ما مي كنيم) تلذذا بها •

ويقول الشيخ العارف التهانوي رحمه الله في حاشيته لهذه القصة :

قوله : انه قول الحق تعالى الخ • أقول : ان أحسن تأويل لقول منصور
الحلاج « أنا الحق » هو هذا ، (آب يتي جزء ٥ ص ١٩٧) • •

وقد ذكرت في آب يتي رقم (٥) عبارات كثيرة عن المشايخ مثل هذه
ثم ذكر هناك بعدها : ان الغرض من هذا التحرير أن المرء يجب عليه أن
يشغل نفسه في محاسبتها واصلاحها دائما ولا يضيع وقته في الطعن في
الآخرين والبحث عن عيوبهم خاصة الأكابر منهم والعلماء المعتمدين
فلا يتشبث بالطعن فيهم - وعلى كل فانه لا اتباع لأحد أبدا مهما كان
بخلاف الشرع وأنت لست مسئولا عن أقوالهم وأفعالهم » •

ويقول الخواجه معصوم في رسالة أخرى له :

وينبغي أن يشد العزم على أداء الأحكام الشرعية باهتمام اجعلوا الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر منهاج حياتكم واهتموا باحياء السنن المتروكة 4
واسعوا لاختفاء كل ما يرد للقلب من واردات ولا يتكل على الأحلام
والرؤيات فانه ان رأى شخص في منامه أنه أصبح ملكا أو قطبا لعصره
فما الفائدة ؟ فان الملك والقطب انما هو من تحصل على منصب الملوكية
أو منصب القطبية في خارج المنام - وبالفرض لو أصبح أحد ملكا في هذه
الحياة الظاهرة وسخر له الكون فأية مكرمة هذه وأية فضيلة ؟ وهل ينجو
بذلك من عذاب القبر وعذاب الآخرة وهو الأصل •

ان أولى العزم من الرجال لا يلتفتون الى مثل هذه الأمور وانما
يجتهدون دائما في مرضيات الباري عز وجل ويسعون في فناء نفوسهم
واختفاء الواردات الغيبية •

آمل من أصدقائي أمثالكم أن لا تغفلوا عني وتسالوا لهذا الفقير من
الباري عز اسمه الرحمة والمغفرة » (مكتوبات خواجه معصوم ص ١٧٤) •

ويقول في رسالة أخرى نور الله مرقدہ :

« الآن لبعثنا عن عهد النبوة وقرب القيامة صارت البدعة تنتشر

وتحيط ظلماتها أغلب العالم - وأصبحت السنة نادرة وغريبة وأصبحت أنوارها مستورة فشدوا أزرهم لأحياء السنن المتروكة ونشر العلوم الشرعية واتخذوا هذا الأمر الوسيلة العظمى للحصول على رضا الباري جل شأنه واعلموا أن في هذا قرب الجناب المحمدي أيضا فقد ورد في الحديث الشريف أنه صلى الله عليه وسلم قال : من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد » .

والدرجة الأولى لأحياء السنة هي أن يبدأ أولاً العمل بها شخصياً ،
والدرجة العليا : أن يجتهد لنشر اشاعة السنة في الآخرين ليعملوا بها .
(مكتوبات خواجه محمد معصوم ص ٢٩٠) ويقول الشيخ التهانوي نور الله مرقدته في مؤلفه « تعليم الدين » ص ١٨٢ : في بحثه اصلاح خطأ من يظن أنه لا حاجة للفقراء الى اتباع الشريعة .

ورد في الفتوحات أن كل حقيقة تخالف الشريعة فهي مردودة وزندقة وفيه أيضا أن من قال ان هناك سبيل آخر الى الله غير ما بينه الشرع فقد كذب ، لذا فلا يتخذ شيخاً من لم يكن لديه أدب ، وأيضا « ليس لنا سبيل الى الله الا ما ورد في شرعه والا ما بينه الشرع الكريم » .

ويقول بايزيد البسطامي رحمه الله « ان رأيت شخصا قد أعطى الكرامات حتى انه يطير في الهواء فلا تقتربه حتى ترى حاله في الأمر والنهي وحفظ الحدود والتمسك بالشريعة » .

وعن الجنيد رحمه الله أن كل سبيل مسدود الا من مشى مقتفياً خطى الرسول صلى الله عليه وسلم . . وفي الفتوحات أنه من لم يعلم أمر الله فلا مقام له عند الله لأن الله لم يتخذ جاهلاً ولياً ، وفيه أيضا أن عمل السوء مع العلم خير من العمل بالجهل ، ويقول الشيخ التهانوي : وذلك لأن العالم لو أخطأ أو ساء عمل فانه لن يسوء الى درجة أن يبلغ به الى الكفر أو الشرك وبما أنه عالم لا باسائة فيرجى منه التوبة بخلاف الجاهل فأحيانا حتى الأعمال الضرورية كالصلاة والصوم تكون فاسدة وأحيانا لجهله

يرتكب ما يوجب الكفر وبما أنه لا يكون عالما بهذه الاساءة العظيمة
لا يوفق للتوبة • وقد بسط فيه الشيخ التهانوي في تعليم الدين •

كان والدي رحمه الله مرة يغتسل في أيام الحر وكان اثنين أو ثلاثة من
تلاميذه الأقوياء النشطين يملأون السطول ماء ويصبونها عليه — فقال له
أحدهم وكان جالسا بجانبهم : ياسيدي الشيخ أليس هذا من الاسراف ؟
فقال والدي : بالنسبة لك اسراف أما أنا فلا ، فسأله : ولم ذلك ؟ فقال :
لأنني عالم وأنت جاهل ، فقال : اذن صدق الذين يقولون أن المشايخ
يجوزون لأنفسهم ما شاءوا ؟ فقال والدي : نعم هذا صحيح من وجه ،
ولا ينبغي للعلماء أن ينزعجوا من مثل هذه العبارات لأنه يكون هناك عمل
مثلا يفعله الجاهل ، وبسبب جهله يعمل بصورة يصبح بها هذا العمل معصية
واساءة ، ونفس العمل يعمله العالم بصورة يكون بها صحيحا وطاعة اهـ .

— عن أبي سعيد قال جاء بلال الى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر برني ،
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (من أين هذا ؟ قال : كان عندنا تمر
رديء فبعت منه صاعين بصاع ، فقال : أوه عين الربا عين الربا لا تفعل ،
ولكن اذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر ثم اشتر به) متفق عليه •
ظاهر أن الجاهل لا يرى أي فرق بين هاتين الصورتين المذكورتين فانه
يظن أنه أخذ صاعا من البرني بدل صاعين من الرديء ولكن العالم يشتريه
في صورته الصحيحة شرعا فأولا يبيع التمر الموجود لديه بريا لين مثلا
ثم يشتري صاعا من البرني بهذه الريالين ونحو ذلك •

وقد شدد شيخ الاسلام حسين أحمد المدني رحمه الله أيضا في مكاتيبه
كثيرا على أن المقصود الأصلي من السلوك هو الاحسان فيقول في احدي
مكاتيبه (عزيزي المحترم : المقصود الأصلي من السلوك هو الاحسان
أي أن تعبد الله كأنك تراه ، الحديث يعني أن السالك تتولد فيه ملكة
راسخة وهذا من حيث البداية ، وأما النهاية فهو الحصول على رضا
الباري عز اسمه — ثم قال شعرا فارسيا ترجمته :

ما هذا الفراق والوصل الذى تبحث عنه ؟
ابحث عن رضا الحبيب فانه من
المؤسف جدا أن تطلب من الحبيب سواه

فيجب أن نجتهد حتى نتولد محبة الله الصادقة وهذا يزيد الى درجة
أن تنقطع العلاقة القلبية عما سواه وهذا ومؤيداته وذرائعه كلها وسائل
فقط وهكذا الرياضات والمجاهدات واصلاح الأخلاق أيضا من قبيل هذا
.. فالصوفية المتقدمون يرون أن يكون اصلاح الأخلاق أولا . وأحيانا
يصرفون فى ذلك عشرات السنين ونتيجة لذلك أحيانا كان أحدهم يلحقه
الموت فى ذلك قبل الوصول الى الله ويرحل عن الدنيا وهو محروم من
هذه النعمة لذلك تدبر فى ذلك المتأخرون ورأوا أن يكون الوصول الى
الله والتوجه الى الذات المقدسة أولا . ويحرصون على الانهماك فى الرابطة
حيث ينتج عنه الحضور الدائم ويقصدون بذلك التقوية والرسوخ فى
الملكة أى العلاقة وبذلك تزول تدريجيا الرذائل والأخلاق الذميمة واحدة
تلو الأخرى وعلى كل فاجتهدوا فى التوجه الى الذات المقدسة باستمرار
.. ان شئتكم الى الذات المحضة أو باعتبار صفة من صفاته الكاملة -
وأقيموا حال « الذين هم على صلاتهم دائسون » ، ان وجود النقائص فى
أعمال الإنسان أمر فطرى ، ولكن يجب على الإنسان أن يبذل دائما
جهده لازالة هذه النقائص وأن يقول دائما « اياك نستعين » فى كل صلاة
باخلاص - يقول الرسول الكريم صلوات الله وتسليماته عليه فى دعائه
(ما عرفناك حق معرفتك ولا عبدناك حق عبادتك) أو كما قال . الغرض
أنه يجب أن يستمر بذل الجهد من قبلنا فى تتميم الأعمال وتكميل الاخلاص
فيها . ثم يستمر معه فى طلب المغفرة من الرب الكريم مع الاعتراف
بالتقصير الذى لا بد منه ومع رجاء القبولية يجب أن نخاف غضبه أيضا
.. فالإيمان بين الخوف والرجاء .

احرص على اتباع السنة دائما وفى كل الأمور - ومع أنه لا حاجة
لك الى الأذكار الأخرى سوى المراقبة المعلومة ولكن للتأييد والتقوية
اتخذوا مارأيتموه من الأذكار مناسبا - وطالعوا باهتمام كتاب « الصراط

المستقيم » و « امداد السلوك » .. (مكتوبات شيخ الاسلام ج (٣)
مكتوب رقم ٦٦) •

ويقول رحمه الله في مكتوب آخر طويل « اجعلوا نصب أعينكم
وقلوبكم بقدر ما استطعتم اتباع الشريعة والاهتداء بالسنن النبوية على
صاحبها الصلاة والسلام ولا تغفلوا عن الذكر — ودائماً كونوا مستغفرين
وتائبين من الغفلات والمعاصي ، ولا تضيعوا هذا العمر الثمين الغالي ،
شعر فارسي ترجمته :

كل ما تفعله سوى ذكر الحبيب فانه لا فائدة منه
وكل ما تدرسه سوى أسرار العشق فانها بطالة
يا سعدى : اغسل كل ما سوى الحق من لوح قلبك
وكل علم لا يقودك الى الله فانه جهالة —

(مكتوبات شيخ الاسلام رقم ٦٩ ص ٢٧٠) •

وفي مكتوب آخر يقول :

أليس حقا أنكم تركتم الأذكار الموصى بها ؟ أحيانا تنشط فتداوم شهرا
أو شهرين ثم تتركها أليس حقا أنكم لا تخافون على الصلوات الخمس مع
الجماعة ؟ أليس حقا أنه أحيانا تفوتك الصلاة المفروضة فتنام صباحا حتى
تشرق الشمس ، أمثل هذه الأمور لا تزعج وتؤلم محبيكم وأصدقاءكم —
وعلى كل فيجب عليكم أن تجتهدوا في اصلاح أنفسكم — وابدلوا كل
ما تستطيعون في اتباع الشرع واحياء السنن النبوية — عندما تتلو عليكم
المصائب تنبهون وعندما يرفع الله البلاء تطمئنون كأنه لم يكن شيء —
عودوا أنفسكم بقدر الاستطاعة على الذكر (مكتوب رقم ٧٠ / ٢) •

ويقول في مكتوب آخر :

« ما ذكرتوه من الأحوال حسنة ويرجى منها الخير (الاستقامة
فوق الكرامة) • ان الرؤيا والأنوار والالهامات وغيرها تعرض للسنالك

لتقوية قلبه فقط كما أنه تعطى للطفل قطع الألعاب لتسلية • وقد بلغنا عن
الأكابر قولهم المشهور « تلك خيالات يربى بها أطفال الطريقة » فالمداومة
على العبادة والذكر والقيام على الشرع المطهر واتباع السنة هي الأمور
التي كلفنا بها - والعمل على هذه الأشياء بعزيمة وجد والحصول على
درجة الاحسان هو الكمال الايماني ووجود الخوف من الرب عز وجل
والرجاء منه كلاهما علامة كمال الايمان وغلبة البكاء والتضرع ظهور
للنسبة الششتية • اللهم زد فزد (مكتوبات شيخ الاسلام ص ١٦٨ رقم
٥٧) • وذكر في المكتوب الذي بعد هذا :

أيها المحترم : ان المصائب الدنياوية أيضا من رحماته تعالى اذ بها
يجذب العبد اليه والا خيف من العبد أن يصبح فرعوننا ينادى بـ (أنا ربكم
الأعلى) وقد قال تعالى « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض »

ثم ان الامتحان والابتلاء مستمر في الحالتين ، في حالة الانعام والوسع
الدنيوي وفي حالة العسر والمصيبة أيضا « ونبلوكم بالشر والخير فتنة »
ويقول سبحانه « وبلوناهم بالحسنات والسيئات » الغرض أن هذا العالم
مكان الامتحان وهذا الامتحان مستمر بصور شتى فينبغي أن يهتم للنجاح
في هذا الامتحان ولا يستأنس القلب بأي شيء سوى المالك الحقيقي الدائم
والباقي سبحانه - أي عمل عمله اجعله بحسن النية عبادة : « انما
الأعمال بالنيات » حتى النوم والأكل والشرب وقضاء الحاجات البشرية
يسكن أن تكون كلها عبادة فان ذريعة العبادة ووسيلتها لا شك أنها
عبادة ، المقصود الأصلي من الذكر والفكر هو رضا الحبيب الحقيقي •
أما الحصول على لذة ما أو تصفية القلب ، أو الحصول على الكشف
والكرامات أو الاحساس بالأنوار والبركات أو الفناء والبقاء أو القطبية
والغوثية كل هذه الأشياء ونحوها غير مقصودة بتاتا •

بل أن التوجه والقصد الى هذه الأشياء خطير جدا ، شعر فارسي
ترجمته :

ما هذا الفراق والوصل الذي تبحث عنه ؟

ابحث عن رضا الحبيب ..

فانه من المؤسف أن ترجو من الحبيب سواه

فالأشياء المذكورة بأعلاه كلها وسائل وذرائع فقط والمقصود الأصلي هو فقط رضا الباري عز وجل - والواجب على المرء أن يؤدي آداب العبودية - اجتهدوا فيه كثيرا واجعلوا نصب أعينكم الاخلاص دائما وفي كل شيء .. (مكتوبات شيخ الاسلام رقم ٥٩ / ٣ ص ١٢٩) •

ويقول نور الله مرقده في مكتوب آخر :

« ان هذا العمر العزيز ولمحاته جواهر ثمينة وغالية ونحن في غفلتناكم نضيعها ولا نبالي ؟ ولن ينتج من ذلك الا التأسف والحسرة - وكيف يكون حالنا حينما يقال لنا « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » •

أيها المحترم أليس من الحق أن نضيع كثيرا من هذه الساعات العظيمة لأجل الأصدقاء الأجانب - فكر وتمعن وحاول أن تفهم ذلك •

ان هذه المجالس المضحكة والمسلية تفرح وتسلو بها اليوم .. قلل منها بقدر ما تستطيع وفكر في قوله تعالى « لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » ولا تنس قول الباري جل جلاله « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات » الآية • ان عهد الشباب هذا والصحة والقوة والعافية هذه نعم عظيمة الشأن لا تضيعها هكذا سدى •

ثم شعر فارسي ترجمته :

ان كل ساعة في هذه الحياة تحت خدمتك

وتود أن تخدمك فان لم تراعها فهي جهالة منك

لا تضيع هذه الساعات النفيسة القيمة ولا تنشر

الغفلة في بلدة الروح هذه

يقول صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » قدر هذه النعم • واجتهد في ذكر « باس انفس »

(ملاحظة الانفاس) لدرجة أنك تصبح من أهله حتى بلا قصد وبلا اختيار منك . ثم تصل الى درجة جريان الذكر القلبي وتفتح لك أبواب الرقى والسلوك المباركة - لا تتأخر واحرص على اتباع السنة الشريفة في كل حركة وسكون » (مكتوبات شيخ الاسلام ص ١٨٨ / ٢ رقم ٤٨) كذلك نجد أن الأكابر قاطبة قد صرحوا في كلامهم كثيرا على أن المقصود أصلا هو الحصول على درجة الاحسان وهذه المجاهدات والرياضات التي اختارها الصوفية إنما اختاروها بسبب الأمراض القلبية - كما أن الأمراض البدنية تتولد فيها كل يوم وآخر أمراض بدنية جديدة فيخترعون لها الأطباء والحكماء أدوية تناسب علاجها فكما أنه لا يشتبه أحد في هذا الحال أن هذه الأدوية بدعة هكذا أيضا في الأمراض القلبية ان اختيرت لها أدوية مناسبة لعلاجها من قال عنها بدعة فذاك لجهله - لأنها ليست مقاصد أصلا وانما هي فقط علاجات خاصة لأمراض خاصة .

وقد بسط شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته « التحفة العراقية في الأعمال القلبية » عن أعمال القلوب وذكر في أولها أنها كلمات موجزة عن بيان أعمال القلوب التي يعبر عنها بالمقامات والأحوال (يعنى عند المتخصصين في هذا الشأن وهم الصوفية) وأنها من أصول الايمان وقواعد الدين وهى مثل محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والتوكل والاخلاص والشكر والصبر والخوف والرجاء وقد اتشقت الأئمة على أن هذه الأعمال كلها واجبة على جميع الخلق وأن الناس في هذه الأعمال أيضا على ثلاث درجات كما أنهم كذلك على ثلاث درجات في الأعمال البدنية أيضا وهى :

١ - ظالم لنفسه . ٢ - مقتصد . ٣ - سابق بالخيرات .

ثم بسط في بيان حال الأقسام الثلاثة وقال في آخرها وكلاهما أى المقتصد والسابق بالخيرات من أولياء الله الذين ورد ذكرهم في كتاب الله حيث يقول سبحانه « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون » لذلك فان أولياء الله هم المؤمنون المتقون وهم صنفان خاص وعام فالعام هم المقتصدون والخاص هم السابقون بالخيرات

.. الى آخر ما ذكر فيه ، ثم ذكر شيخ الاسلام رحمه الله في الرسالة
تفصيلا مختصرا للأعمال الباطنة فالصدق والكذب ومحبة الله والاخلاص
له والتوكل عليه وغيرها من الأعمال الباطنة كلها مأمور بها شرعا فبالتوكل
على الله والاستعانة به يصل المرء الى مقصوده ثم بسط في بحث التوكل ،
وبين أن أعظم وأكبر وأجل شيء في واجبات الايمان هو محبة الله عز وجل
ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر صفات المحب لله والمحبوبين وأن
محبة الله هي أصل أعمال الدين وأن الرجاء والخوف وغيرها مستلزمة
لمحبة الله عز وجل وذكر كلام قدماء الصوفية في محبة الله تعالى وذكر أن
النتيجة الحتمية لمحبة الله تعالى هي اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم وأن
اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً يولد محبة الله سبحانه
وغير ذلك من الأمور بسطها في هذه الرسالة جديرة بالمطالعة. وقال في فتاواه
ج ١١ ص ٢٢٥ ما نصه بالحرف الواحد « وكذلك هذا الذي يقول أن
محمدا بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض ،
فهو كافر ، وهو أكفر من أولئك ، لأن علم الباطن الذي هو علم إيمان
القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الايمان الباطنة وهذا أشرف
من العلم بمجرد أعمال الاسلام الظاهرة .. » اهـ .

وذكر الحافظ ابن القيم الجوزية رحمه الله أيضا في رسالته الوابل
الصيب من الكلم الطيب التي هي جلها في أحوال الصوفية والتصوف
والاذكار والأوراد وفضائلها يذكر رحمه الله في شروط الشيخ حيث يقول
« فإذا أراد العبد أن يقتدى برجل فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من
الغافلين ؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي فإن كان الحاكم عليه هو
الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطا .. فينبغي للرجل أن ينظر في
شيخه وقدوته ومتبوعه فإن وجدته كذلك فليبعد منه وإن وجدته ممن غلب
عليه ذكر الله تعالى عز وجل واتباع السنة وأمره غير مفروط عليه بل هو
حازم في أمره فليستمسك بعرزته ولا فرق بين الحي والميت الا بالذكر فمثل
الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت » .

وذكر عن شيخ الاسلام ابن تيمية أنه قال : الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك اذا فارق الماء ؟

وقال أيضا : حضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى الى قريب من منتصف النهار ، ثم التفت الى وقال :

هذه غدوتي • ولو لم أتعد الغداء سقطت قوتي أو كلما قريبا من هذا ، وقال لى مرة : لا أترك الذكر الا بنية اجسام نفسى واراحتها لاستعد بتلك الراحة لذكر آخر - أو كلما هذا معناه •

وقد ألف الحافظ ابن القيم كتاب مدارج السالكين فى التصوف خالصة وهو شرح لكتاب : « منازل السائرين » للشيخ العارف أبى اسماعيل عبد الله الهروى الحنبلى الصوفى المتوفى عام ٤٨١ هـ وهو كتاب مشهور فى التصوف - والكتاب كله فيه أبحاث فى أمور التصوف وأحوال الصوفية المتفرقة بين فيه رحمه الله تعالى أن عبودية المرء منقسمة على القلب واللسان وبقية أعضاء الجسم فمن واجبات القلب : الاخلاص والتوكل والمحبة والصبر والانابة والخوف والرجاء والتصديق الجازم والنية الصادقة وقد أجمعت الأمة على أن هذه الأعمال القلبية واجبة - ثم ذكر الواجبات المختلف فيها فذكر الرضاء بالقضاء والخشوع فى الصلاة وأنه هل يجب إعادة الصلاة ان لم يكن فيها الخشوع أم لا ؟ ثم ذكر المحرمات وقال انها قسمين : أحدها : كفر والآخر معصية • فالكفر كالشك والنفاق والشرك ونحوها والمعصية أيضا قسمين : كبائر وصغائر فالكبائر كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوت وعدم الخوف من مكر الله والفرح بايذاء المسلمين والسرور عند مصيبتهم ويجب أن تشيع الفاحشة فى المسلمين والحسد على المسلمين مثلها من الأمور التى هى أشد حرمة من الكبائر الظاهرة كالزنا وشرب الخمر وغيرها • وان ترك هذه الأمور واجتنابها والتوبة عنها لا يمكن أبدا بدون صفاء القلب فان لم يصفى القلب أصبح فاسدا واذا فسد القلب فانه يفسد الجسد كله أيضا فاصلاح القلب مقدم على اصلاح الجوارح فان لم نهتم باصلاح

القلب وصفائه فانه سيمتلىء بالأمراض والأدواء . اهـ وقد بسط بكلام مفصل في ذلك .

ولاصلاح هذه الأشياء يختار المشايخ لمريديهم كل هذه الرياضات والمجاهدات لقد نقل الشيخ عاشق الهى الميرتهى كلمة جامعة للشيخ قطب الارشاد الامام الكنكوهى نور الله مرقدته فى مؤلفه تذكرة الرشيد بالجزء الثانى ص ١١ حيث يقول : انى عثرت على ورقة مكتوبة بخط يد سيدى قطب الارشاد الكنكوهى قدس سره وقد حررها فى بداية عمره ولم يتبين أنه لم حررها ؟ وفيها :

« علم الصوفية علم الدين ظاهرا وباطنا وقوة اليقين وهو العلم الأعلى ، حالهم اصلاح الأخلاق ودوام الافتقار الى الله تعالى ، حقيقة التصوف التخلق بأخلاق الله تعالى وسلب الارادة وكون العبد فى رضاء الله تعالى ، أخلاق الصوفية ما هو خلقه عليه الصلاة والسلام بقوله « انك لعلى خلق عظيم » وما ورد به الحديث ، وتفصيل أخلاقهم هكذا :

١- التواضع ضده الكبر .

٢- المداراة واحتمال الأذى عن الخلق .

٣- المعاملة برفق وخلق حسن وترك غضب وغيظ .

٤- المواساة والايتار بفرط الشفقة على الخلق وهو تقديم حقوق الخلق على حظوظه .

٥- السخاوة .

٦- التجاوز .

٧- العفو وطلاقة الوجه والبشرة .

٨- السهولة ولين الجانب .

٩- ترك التعسف والتكلف .

١٠- اتفاق بلا اقتار وترك الادخار .

- ١١ - التوكل •
 - ١٢ - القناعة يسير من الدنيا •
 - ١٣ - الورع •
 - ١٤ - ترك المراء والجدال والعتب الا بحق •
 - ١٥ - ترك الغل والحقد والحسد •
 - ١٦ - ترك المال والجاه •
 - ١٧ - وفاء الوعد •
 - ١٨ - الحلم •
 - ١٩ - الأناة •
 - ٢٠ - التوادر والتوافق مع الاخوان والعزلة عن الأغيار •
 - ٢١ - شكر المنعم •
 - ٢٢ - بذل الجاه للمسلمين •
- الصوفي يهذب الظاهر والباطن فى الأخلاق ، والتصوف أدب كله ،
أدب الحضرة الالهية : الاعراض عن سواه حياء واجلالا وهيبة ، أسوأ
المعاصى حديث النفس وسبب الظلمة » اه •

البيعة

ان الناس تعترض على أشياء كثيرة للصوفية - ومع أن البيعة ليست بلا زمة عند الصوفية كما سألينه ان شاء الله وعلى كل حال فانها ثابتة بالقرآن والسنة - ففي القرآن في سورة المتحنة ، يقول الله عز وجل :

« يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبایعنك » الآية ويقول حكيم الأمة التهانوي نور الله مرقدہ فی حاشیة ترجمته لهذه الآية الکریمة « ان هذه الآية صریحة فی غرض البيعة ويلزم به ابطال تلك البيعات التي تؤخذ هكذا رسميا فقط بدون قصد العمل والوفاء بها .

وفي صحيح البخاري ، في كتاب الايمان رواية « عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان شهد بدرا وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصاة من أصحابه بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تاتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو الى الله ان شاء عفا عنه وان شاء عاقبه فبايعناه على ذلك » فهذه البيعة لا هي بيعة الاسلام ولا هي بيعة الجهاد وانما هي بيعة الصوفية التي كانت للتأكيد على أمور الاسلام .

وقد بسط الامام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي في مؤلفه « القول الجليل » عن حقيقة البيعة فيقول قدس سره :

قال الله تعالى « ان الذين يبایعونك انما يبایعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » واستفاض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الناس كانوا يبایعونه تارة على الهجرة والجهاد وتارة على اقامة أركان الاسلام

وتارة على الثبات والقرار في معركة الكفار وتارة على التمسك بالسنة والاجتناب عن البدعة والحرص على الطاعات كما صح أنه صلى الله عليه وسلم بايع نسوة من الأنصار على أن لا ينحن • وروى ابن ماجة أنه بايع ناسا من فقراء المهاجرين على أن لا يسألوا الناس شيئا فكان أحدهم يسقط سوطه فينزل عن فرسه فيأخذه ولا يسأل أحدا •

ومما لا شك فيه ولا شبهة أنه اذا ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل على سبيل العبادة والاهتمام بشأنه فانه لا ينزل عن كونه سنة في الدين بقى انه صلى الله عليه وسلم كان خليفة الله في أرضه وعالما بما أنزله الله تعالى من القرآن والحكمة ومعلما للكتاب والسنة ومزكيا للأمة فما فعله على جهة الخلافة كان سنة للخلفاء وما فعله على جهة كونه معلما للكتاب والحكمة ومزكيا للأمة كان سنة للعلماء الراسخين • فلنبحث عن البيعة من أى قسم هى فظن قوم أنها مقصورة على قبوله الخلافة وأن الذى تعتاده الصوفية من مبايعة المتصوفين ليس بشيء وهذا ظن فاسد لما ذكرنا من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبايع تارة على اقامة أركان الاسلام وتارة على التمسك بالسنة وهذا صحيح البخارى شاهد على أنه صلى الله عليه وسلم اشترط على جرير عند مبايعته فقال والنصح لكل مسلم وأنه بايع قوما من الأنصار فاشترط أن لا يخافوا فى الله لومة لائم ويقولوا بالحق حيث كانوا فكان أحدهم يجاهر الأمراء والملوك بالرد والانكار وأنه صلى الله عليه وسلم بايع نسوة من الأنصار واشترط الاجتناب عن النوحه الى غير ذلك وكل ذلك من التزكية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - فالحق أن البيعة على أقسام : منها بيعة الخلافة ومنها بيعة التمسك بحبل التقوى ومنها بيعة الهجرة والجهاد ومنها بيعة التوثق فى الجهاد ، وكانت بيعة الاسلام متروكة فى زمن الخلفاء أما فى زمن الراشدين منهم فلأن دخول الناس فى الاسلام فى أيامهم كان غالبا بالقهر والسيف لا بالتأليف واظهار البرهان ولا طوعا ورضا وأما فى غيرهم فلأنهم كانوا فى الأكثر ظلمة فسقة لا يهتمون باقامة السنن ، وكذلك بيعة التمسك بحبل التقوى كانت متروكة ، أما فى زمان الخلفاء الراشدين فلكثرة الصحابة الذين استناروا بصحبة النبى صلى الله عليه وسلم وتأدبوا فى

حضرته فكانوا لا يحتاجون الى بيعه الخلفاء وأما في زمن غيرهم فخوفا من افتراق الكلمة وأن يظن بهم مبايعة الخلافة فتهيج الفتن وكانت الصوفية يومئذ يقيمون الخرقه مقام البيعة ثم لما اندرس هذا الرسم في الخلفاء انتهز الصوفية الفرصة وتمسكوا بسنة البيعة والله أعلم .

ثم أورد قدس الله روحه فصلا مستقلا في بحث حكم البيعة وحكمتها وغير ذلك قال فيه : — ان البيعة سنة وليست بواجبة لأن الناس بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم وتقربوا بها الى الله عز وجل ولم يدل دليل على تأثيم تاركها ولم ينكر أحد من الأئمة على تاركها كان كالأجساع على أنها ليست بواجبة .

ثم يقول قدس الله روحه في القول الجميل أيضا : — اعلم أن البيعة المتوارثة بين الصوفية على وجوه : أحدها : بيعة التوبة من المعاصي — والثاني : بيعة التبرك في سلسلة الصالحين بمنزلة سلسلة استاد الحديث فان فيها بركة ، والثالث بيعة تأكد العزيمة على التجرد لأمر الله وترك ما نهى عنه ظاهرا وباطنا وتعليق القلب بالله تعالى وهو الأصل ، وأما الأولان فالوفاء بالبيعة فيهما ترك الكبائر وعدم الاصرار على الصغائر والتمسك بالطاعات المذكورة من الواجبات والسنن الرواتب ، والنكت بالاخلال فيما ذكرنا ، وأما الثالث فالوفاء : البقاء على هذه الهجرة والمجاهدة حتى يكون متنورا بنور السكينة ويصير ذلك ديدنا له وخلقنا وجيلة فعند ذلك قد يرخص في ما أباحه الشرع من اللذات والاشتغال ببعض ما يحتاج الى طول التعهد كالتدريس والقضاء ، والنكت : بالاخلال في ذلك ، اهـ ص ١٢٥ — ويقول الشيخ العارف التهانوي رحمه الله في الكشف : « عن عوف بن مالك الأشجعي رضى الله عنه قال كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا علام نبايعك يا رسول الله ؟ قال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية . قال : ولا تسألوا الناس شيئا . فلقد رأيت بعض أولئك نفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله اياه » أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي .

فائدة : ان البيعة المعمول بها عنه السادة الصوفية وحاصلها أنها معاهدة للالتزام بالأحكام والاهتمام بالأعمال الظاهرة والباطنة . ويقال لها في عرفهم « بيعة الطريقة » . ويقول عنها بعض أهل الظاهر أنها بدعة بناء على أنها لم تثبت عنه صلى الله عليه وسلم ، فالثابت أنه صلى الله عليه وسلم كان يبايع الكفار على الاسلام ويبايع المسلمين على الجهاد فقط . ولكن في هذا الحديث اثبات صريح على أن المخاطبين كانوا من الصحابة رضى الله عنهم فليست اذن هذه بيعة الاسلام قطعا اذ يلزم بذلك تحصيل الحاصل . ويظهر من ألفاظ البيعة أنها ليست ببيعة الجهاد أيضا بل علم بدلالة الألفاظ أنها للالتزام والاهتمام بالأعمال فثبت بذلك المقصود .

ومن عادة أكثر المشايخ أنهم يلقنون المريدين في الخلوة تعليمات خفية وهذا أحيانا يكون بسبب أن ذلك الموضوع المقصود تعليمه لا يكون مفهوما للعامة ، ويخشى من اظهاره افتتان واضلال للعامة ، وأحيانا يكون السبب أن التعليم الخفى حيث أنه دليل على الخصوصية والاهتمام فيقع به تأثير قوى على قلب الطالب ، وفيه فائدة أخرى أيضا وهى أن لا يقلده بعد سماعه وأخذه الآخرون الذين يكون تعليم آخر أكثر فائدة لهم . فهذا الحديث فيه أصل لهذه العادة .

ثم ان أكثر المريدين يكون مقتضى طبعهم أن يبالغوا في التأمير بأوامر المرشد والشيخ لدرجة أنهم مع مراعاة المعنى يراعون مدلول ظاهر الألفاظ أيضا - وهذا الحديث فيه أصل لهذا أيضا - لأنه من المعلوم أن المراد بالنهى عن السؤال انما كان قطعا النهى عن سؤال الأشياء التابعة للآخرين وليس عن أن يطلب الشيء الذى يملكه استعانة ولكن بما أن مدلول ظاهر اللفظ قد احتمل هذا المعنى (مع أن هذا الاحتمال منفى قطعا للقرائن) لذلك كانوا يحتاطون حتى عن سؤال الأشياء التابعة لهم أيضا - كما أنه ورد في حديث آخر أنه قال صلى الله عليه وسلم أثناء الخطبة « اجلسوا ، وكان أحد الصحابة قادما من الباب فعندما سمع ذلك جلس فورا في مكانه ، مع أن مقصوده صلى الله عليه وسلم قطعا كان أن ادخلوا واختاروا مكانا مناسباً واجلسوا ولا تبقوا واقفين وانما اجلسوا وليس المراد أن لا تتقدموا

للمكان المناسب أيضا وهذه الشعبة هي الغاية في احترام الشيخ والتأدب معه وهو الشرط الأعظم للاستفادة الباطنية .

وبعد ذلك نقل سيدى العارف التهانوى رحمه الله حديث عبادة رضى الله عنه المذكور سابقا فى بداية الكلام عن « البيعة » ، وذكر فى فوائده : ان الحديث صريح فى أن من بايعهم صلى الله عليه وسلم كانوا من الصحابة . فثبت به أنه كانت هناك بيعة غير بيعة الاسلام والجهاد أيضا وهى بيعة لترك المعاصى والتزام الطاعات وهذه هى بيعة الطريقة الرائجة عند السادة الصوفية فثبت أن انكار هذه البيعة جهل .

يقول زكريا : علمنا من هذين الحديثين أيضا أنه لو قال الشيخ لأجل بعض الخصوصيات لبعض المريدين : تعال وبايعنى فلا حرج فى ذلك إذ ثبت ذلك من الحديثين كليهما .

ان عزيزى ابتداء والمكرم المحترم المبجل انتهاء الفاضل الشيخ (١) محمد يوسف نور الله مرقده قد ذكر فى تأليفه البديع « حياة الصحابة »

(١) العلامة المجاهد والداعية الكبير الشيخ محمد يوسف بن الامام الجليل والداعية الشهير الشيخ محمد الياس الكاندهلوى ولد قدس الله روحه لخمس بقين من جمادى الأولى عام ١٣٣٥ هـ حفظ القرآن الكريم فى حداثة سنه وترعرع فى حجور الصالحين وأحضان الصالحات ونشأ فى بيت دين وديانة وصلاح وتقوى وورع قرأ أكثر الكتب على والده وأخذ الحديث عن والده وابن عمه بقية السلف شيخ الحديث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى مؤلف هذا الكتاب وكذا عن مشايخ جامعة مظاهر العلوم بسهارنبور - وقام بعد أبيه بأمر الدعوة والتبليغ ونشطت حركة جماعة التبليغ فى عصره حتى انتشرت فى أكثر بلدان العالم وكان شغوفا جدا بأمر الدعوة لا يسئمت يتكلم ويخطب ليلا ونهارا وفى كل ساعة شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه عميق النظر فى حياتهم ووقائعهم وربما كان فريد دهره فى هذا الشأن ومؤلفه البديع حياة الصحابة من آثار ذلك - وله شرح بسيط على تنمة التعليق الموجود على شرح معانى الآثار للطحاوى لم يكمل يظهر منه سعة باعه فى هذا العلم الشريف كان رحمه الله كثير الأضياف عظيم الأكرام لهم والترحيب بهم جل همه وغاية أمنيته هداية الأمة وأن تستيقظ من غفلتها وترجع الى ربها وبارئها ويتألم لما آلت اليه من الانحراف تظهر واضحا آثار التألم وما تكابده نفسه لذلك على وجهه ومن عباراته وتأوهاتة التى يكاد يخفيها مع محاولاته الشديدة لذلك كثير الخروج فى سبيل الله لاعلاء كلمته ونصر دينه حتى توفاه الله فى إحدى هذه الاسفار فى باكستان بلاهور للتاسع من ذى القعدة سنة ١٣٨٤ هـ تغمده الله برحمته .

بالجزء الأول منه في باب البيعة مفصلا روايات كثيرة • وقد أتى بأبواب كثيرة فيه : كباب في البيعة على الاسلام ، والبيعة على الجهاد وغير ذلك وفيه أيضا باب مستقل بعنوان « البيعة على أعمال الاسلام » •

أشير مختصرا هنا الى بعض الروايات منها والتفصيل في « حياة الصحابة » •

« أخرج الحسن بن سفيان والطبراني في الأوسط وأبو نعيم والحاكم والبيهقي وابن عساكر عن بشير بن الخصاصية رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبأيعه فقلت : علام تبايعنى يا رسول الله ؟ فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال : تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وتصلى الصلوات الخمس لوقتها وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان وتحج البيت وتجاهد في سبيل الله ، قلت : يا رسول الله كلا نطيع الا اثنتين فلا أطيقهما : الزكاة • والله ما لى الا عشر ذودهن رسل أهلى وحسولتهن ، وأما الجهاد فانى رجل حيان ويزعمون أنه من ولى فقد باء بغضب من الله وأخاف ان حضر القتال أن أخشع بنفسى فأفر فأبوء بغضب من الله ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ثم حركها ، ثم قال : يا بشير : لا صدقة ولا جهاد فبم اذن تدخل الجنة ؟ قلت : يا رسول الله أبسط يدك أبأيعك ، فبسط يده فبايعته عليهن كلهن » كذا في كنز العمال ح ٧ ص ١٢ وأحمد ورجاله موثقون كما قال الهيثمى ح ١ ص ٤٢ •

وأخرج أحمد عن جرير رضى الله عنه قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على اقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » وأخرجه أيضا ابن جرير مثله •

وأخرج الطبراني عنه قال أتى جرير رضى الله عنه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : مد يدك يا جرير ، فقال : على مه ؟ قال : أن تسلم وجهك لله

والنصيحة لكل مسلم فأذن لها وكان رجلا عاقلا ، فقال : يا رسول الله فيما استطعت - فكانت رخصة للناس بعده •

وأخرج الطبراني في الكبير عن أبي أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يبايع ؟ فقال ثوبان رضى الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : بايعنا يا رسول الله ، قال : على أن لا تسأل أحدا شيئا • فقال ثوبان : فما له يا رسول الله ؟ قال : الجنة ، فبايعه ثوبان - قال أبو أمامة : فلقد رأيته بمكة في أجمع ما يكون من الناس يسقط سوطه وهو راكب فربما وقع على عاتق رجل فيأخذه الرجل فيناوله فما يأخذه حتى يكون هو ينزل فيأخذه » كذا في الترغيب وأخرجه أيضا أحمد والنسائي وغيرهما عن ثوبان مختصرا •

وأخرج أحمد عن أبي ذر رضى الله عنه قال : بايعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وأوثقنى سبعا وأشهد الله على سبعا : أن لا أخاف في الله لومة لائم ، قال أبو المثنى : قال أبو ذر : فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل لك الى البيعة ولك الجنة ؟ قلت : نعم ، وبسطت يدي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يشترط على - أن لا أسأل الناس شيئا ، قلت : نعم ، قال : ولا سوطك ان سقط منك حتى تنزل فتأخذه ، وفي رواية : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ستة أيام ثم اعقل يا أبا ذر ما يقال لك بعد ، فلما كان اليوم السابع قال : أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلايته واذا أسأت فأحسن ولا تسألن أحدا شيئا وان سقط سوطك ولا تقبضن أمانة » انتهى •

عدم الاحتياج الى المجاهدات الرائجة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت رؤيته المباركة فقط تكفى المؤمنين للوصول الى درجة الاحسان ، وقد نقل بكثرة عن المشايخ المتقدمين والمتأخرين بأن رؤيته صلى الله عليه وسلم تكفى للوصول الى درجة الاحسان ، ولكن بعده صلى الله عليه وسلم كلما مضى الزمن وزاد البعد عن النورانية بدأت الظلمات تؤثر في القلوب — وقد نقل عن أنس رضى الله عنه قوله برواية الترمذى أنه قال : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شىء فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء — وما تفضنا أيدينا عن التراب وانا لفى دفنه حتى أنكرنا قلوبنا « كذا فى المشكاة أى أن قلوبنا لم تبق على تلك النورانية والصفاء الذى كانت عليه عند مشاهدته صلى الله عليه وسلم — وعن حنظلة بن الربيع الأسيدى قال لقينى أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت : نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ما تقول ؟ قلت : نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر بالنار والجنة كأننا رأى عين فاذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا ، قال أبو بكر : فوالله انا لنلقى مثل هذا ، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : نافق حنظلة يا رسول الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما ذاك ؟ قلت : يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأننا رأى عين فاذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة — ثلاث مرات « رواه مسلم — كذا فى المشكاة .

أى أن المرء لا يكون دائما على حال واحد ، فكيفية الحضور تتحصل أحيانا ، وهكذا حال المشايخ فالأحوال والكيفيات التى يكون عليها يريدوهم فى معيتهم لا تبقى فى حال الغياب عنهم •

وفى قوله صلى الله عليه وسلم فى رواية حنظلة لفظه « الذكر » أوضحت أن فى مجالس الذكر وبكثرة الذكر أيضا يتحصل المرء على مرتبة الاحسان ، وكثرة الذكر خلف وبدل عن الحضور فى مجلس الشيخ أيضا • وفى الكشف أن سيدنا أبا طلحة الأنصارى رضى الله عنه كان يصلى فى حائط له فطار دبسى فطفق يتردد ويلتمس مخرجه فأعجبه ذلك فجعل يتبعه بصره ساعة ، ثم رجع الى صلاته فاذا هو لا يدرى كم صلى - فقال : قد أصابتنى فى مالى هذا فتنة فجاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له الذى أصابه فى حائطه من الفتنة وقال : يا رسول الله هو صدقة لله فضعه حيث شئت » رواه الامام مالك فى الموطأ عن عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنه •

فائدة (١) (عادة مراقبة القلب) من أعمال السادة الصوفية أنهم دائما فى كل ساعة يراقبون القلب بأنه كيف حالته فان وجدوا فيه نقصا أجبروه • وبفعل هذا الصحابى رضى الله عنه واقاراه صلى الله عليه وسلم على ذلك ظهرت محموديته لأن تنبهه هذا كان أثرا لتلك المراقبة •

ف (٢) (حال الغيرة) بغض ما يسبب الغفلة عن الحق جل شأنه حال محمود ويقال لهذا الحال « الغيرة » وفى هذا الحديث اثباته •

ف (٣) (تعليم اخراج شىء يشغل عن الحق عن ملكه) قد اشتهرت عن كثير من المشايخ حكايات أنهم اذا رأوا فى الطالب أن قلبه تعلق بزيادة بشىء ما أمروه بإبعاد ذلك الشىء - هذا الحديث فيه أصل لهذه المعالجة فان الصحابى رضى الله عنه رأى هذا العلاج وأقره عليه الرسول صلى الله عليه وسلم • انتهى ما فى الكشف •

وقد وردت فى الموطأ قصة أخرى مثلها لأنصارى فى عصر سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه فعن عبد الله بن أبى بكر أن رجلا من الأنصار كان

يصلى في حائط له بالقف واد من أودية المدينة في زمان الثمر والنخل قد
ذلت فهي مطوقة بشرها فنظر إليها فأعجبه ما رأى من ثمرها ثم رجع إلى
صلاته فإذا هو لا يدرى كم صلى ، فقال : لقد أصابتني في ما لى هذا فتنة
فجاء عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة فذكر له ذلك وقال : هو صدقة
فاجعله في سبل الخير فباعه عثمان بن عفان بخمسين ألفا فسمى ذلك المال :
الخمسين » •

وفي الكتب مئات مثل هذه الوقائع نجدها عن الصحابة رضی الله عنهم
يظهر منها أنهم رضی الله عنهم كانوا يبلغون درجة الاحسان بدون
المجاهدات والرياضات الشاقة •

وذكر الشاه ولي الله الدهلوي قدس الله روحه في شرحه للموطأ : أن
هذه القصص آثار لتلك النسبة التي تلد في القلب فيقدمون عبادة الله على
كل شيء ويجدون غيرة شديدة في ما سواها •

ويقول العلامة أبو الوليد الباجي رحمه الله : أراد اخراج ما فتن به من
ماله وتكفير لاشتغاله عن صلاته ، قال : وهذا يدل على أن مثل هذا كان
يقل منهم ويعظم في نفوسهم •

أنظر فكيف يكون أمرنا ونحن حالنا ما هو عليه من كثرة الوسوس •
نرجوه سبحانه أن يغفر لنا ويعفى عنا بفضلته •

وقد ذكر هذا الفقير في رسالته « حكايات صحابة بالاردو » في الباب
الخامس قصص اهتمامهم وخشوعهم في الصلاة كلها عبرة وموعظة فهذا
عبد الله بن الزبير رضی الله عنه كان يصلى وابن له يدعى هاشما نائم
بجواره - فسقطت حية على الطفل فبكى وصرخ واجتمع أهل البيت
وحدثت لذلك ضجة وقتلوا الحية - كل هذا وعبد الله بن الزبير رضی الله
عنهما مشغول خاشع في صلاته وعندما فرغ منها سألهم أنه سمع صياحا
فماذا ؟ فقالت الزوجة : رحمك الله كاد الولد أن يموت وأنت لم تشعر
بشيء - فقال : ويحك لو التفت في الصلاة إلى جهة أخرى لما كانت
الصلاة •

٤ - ص ١٣٦ وقد ذكرت في حكايات الصحابة قصص أخرى كثيرة مثل هذه - فهؤلاء السادة رضى الله عنهم ما يحوجهم الى هذه المجاهدات والرياضات الشاقة بعد أن كانوا قد بلغوا الى مقام « أن تعبد الله كأنك تراه » ♦

وقد ذكر العزيز المحترم مولانا الشيخ محمد يوسف في « حياة الصحابة » في « باب حقيقة الايمان » قصصا كثيرة للصحابة رضى الله عنهم وأولها قصة الحارث بن مالك رضى الله عنه أخرج ابن عساكر عن أنس رضى الله عنه قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد والحارث بن مالك رضى الله عنه راقد فحركه برجله قال : ارفع رأسك ، فرفع رأسه ، فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت يا حارث بن مالك ؟ قال : أصبحت يا رسول الله مؤمنا حقا ، قال : ان لكل حق حقيقة فما حقيقة ما تقول ؟ قال : عزفت من الدنيا وأظلمات نهاري وأسهرت ليلي وكأني أنظر الى عرش ربي وكأني أنظر الى أهل الجنة فيها يتزاورون والى أهل النار يتعادون ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنت امرؤ نور الله قلبك عرفت فالزم » وأخرجه العسكري في الأمثال عن أنس نحوه ، وأخرجه ابن المبارك في الزهد عن صالح بن مسمار نحو سياق ابن عساكر ، قال الحافظ في الاصابة ج ١ ص ٢٨٩ وهو معضل ♦

مجاهدات الصوفية ورياضاتهم

لقد مر أنه في عهده صلى الله عليه وسلم كانت رؤيته تكفى المؤمنين للوصول الى مرتبة الاحسان وكذلك مر قول الامام القطب الكنكوهي نور الله مرقدته أيضا عنه ، وكلما بعد الزمن عنه صلى الله عليه وسلم كلما حصل النقص في نسبته وكيفية الاحسان أيضا واضطر لذلك الأطباء الروحانيون لايجاد الأدوية الروحانية اللازمة لجبر هذا النقص .

في ترجمة القول الجميل يقول المترجم صاحب شفاء العليل : يقول المترجم أن سيدى المصنف المحقق قلع بكلامه البديع شبهات الناقصين من أصولها فيقول بعض السفهاء : ان أشغال القادرية والجشئية والنقشبندية المخصوصة لم تكن في عهد الصحابة والتابعين لذلك فهي بدعة سيئة وخلاصة الرد على هذا الاشكال هو : أن الأمر الذى لأجله أوجد المشايخ أولياء الطريقة هذه الأشغال وصلنا هذا الأمر مسلسلا من عهده صلى الله عليه وسلم ، ولو أن طرق الحصول عليه كانت مختلفة ، ففى الحقيقة أولياء الطريقة متابعون لمجتهدى الشريعة ، فمجتهدوا الشريعة جعلوا الأصل استنباط الأحكام لظاهر الشريعة ، وأولياء الطريقة اجتهدوا للحصول على باطن الشريعة ويقال لها « الطريقة » وجعلوا لها قواعد مختلفة فالظن فى هذا أنه بدعة سيئة خطأ واضح .

نعم صحيح أن الصحابة رضى الله عنهم بسبب صفاء طبعهم وحصولهم على النسبة الباطنة ببركة وجوده صلى الله عليه وسلم بينهم لم يكونوا فى حاجة الى هذه الأشغال بخلاف المتأخرين فلأجل بعدهم عن زمن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم احتاجوا الى هذه الأشغال المذكورة . كما أن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا يحتاجون فى فهم القرآن والحديث الى تعلم النحو والصرف وعلوم اللغة العربية ولكن أهل العجم فى كل عصر والآن بالفعل العرب أيضا يحتاجون الى هذه الأشياء .

ونقل في حاشيته عن مولانا النواب قطب الدين رحمه الله : ان مثال ذلك هو أن الشمس ما دامت مشرقة يستطيع المرء قراءة كل شيء في ضوئها وبعد غروب الشمس يحتاج المرء الى النور للقراءة •

ففى زمن الصحابة رضى الله عنهم كانت شمس الرسالة « صلى الله عليه وسلم » مشرقة « تضىء القلوب » فلم تكن أية حاجة الى الأشغال للحصول على الاحسان والحضور مع الله عز وجل وبظرة واحدة الى ذاك الوجه المنير كان يحصل على ما لا يمكن الحصول عليه الآن فى اشغال الأربعينيات الكثيرة • وبما أنه قد غربت تلك الشمس المشرقة الآن احتيج لذلك الى الأشغال للحصول على هذه القوة والكيفية الحضورية الاحسانية وبعد هذا يقول الشاه ولي الله الدهلوى : سعت سيدي الوالد قدس سره يذكر واقعة له طويلة رأى فيها الحسن والحسين وعليا رضى الله تعالى عنهم فقال : سألت عليا كرم الله وجهه عن نسبتي هل هى التى كانت عندكم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرنى بالاستغراق فيها وتأمل جدا ثم قال : هى هى بلا فرق • (وقد ذكر الامام ولي الله الدهلوى هذه القصة فى الدر الثمين ص ٦١ أيضا) ثم لصاحب المداومة على السكينة أحوال رفيعة تنوبه مرة مرة فليغتنمها السالك وليعلم انها علامات قبول الطاعات وتأثيرها فى صميم النفس وسويداء القلب ، ومنها ايثار طاعة الله سبحانه على جميع ما سواه والغيرة عليه فقد أخرج مالك فى الموطأ عن عبد الله بن أبى بكر أن أبا طلحة الانصارى رضى الله عنه كان يصلى (الخ الحديث وقد مضى مفصلا آنفا) •

وبعدها يقول : قصة سليمان عليه السلام المشار اليها فى قوله عز من قائل (فطفق مسحاً بالسوق والاعناق) مشهورة ومعلومة ، ثم يقول الشيخ خرم على المترجم ان القصة المذكورة مجملها أن سيدنا سليمان عليه السلام انشغل مرة فى النظر الى جياده لدرجة أن غربت الشمس وفاتته صلاة العصر فأمر بقطع أعناق وأرجل جميع الجياد ، والخلاصة أن أهل الكمال عندهم طاعة الحق مقدمة على كل أمر — فان حدث أى خلل فى ذلك بسبب الانشغال فى أى شيء فان غيرة أهل الكمال تقتضى بازالة هذا الشيء

الشاغل عن طاعته سبحانه لذلك تصدق أبو طلحة بيستانه العظيم وأهلك سيدنا سليمان عليه السلام جياده ، وقد ذكر الحكيم الشيخ التهانوي في تفسيره البديع « بيان القرآن » قصة سيدنا سليمان عليه السلام في قوله « فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » •

انها قصة عجيبة جدرة بالذكر حين عرضت على سليمان جياده الأصيلة التي كانت لديه للجهاد ونحوه وذلك مساء فمكث ينظر اليها حتى غربت الشمس وفاته حزبه من نوع الصلاة (كذا في الدر المنثور عن علي) وبسبب هيئته لم يجرؤ أحد من الخدم أن يخبره بفوات الوقت (كذا في الدر عن ابن عباس) وعندما تبينه بنفسه قال متأسفاً « انى أحبت حب الخير عن ذكر ربى » أى الصلاة حتى غابت الشمس ثم أمر خدامه وحاشيته أن يحضروا الجياد مرة أخرى أمامه فأحضروها له فأخذ يسح أى (يقطع) سيقانها وأعناقها بالسيف (كذا في الدر مرفوعاً بسند حسن) أى ذبحها • ويقال لهذا في اصطلاح الصوفية : الغيرة • أى أن يبعد عن نفسه أى شئ يسبب الغفلة عن الله عز وجل •

ثم يقول الشاه ولي الله الدهلوى : ان من جملة الأحوال الرفيعة : غلبة الخوف من الله تعالى بحيث يظهر على ظاهر البدن والجوارح له أثر — أخرج الحفاظ في الأصول أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله الى أن قال « ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » وفي الحديث أن عثمان رضى الله عنه قام على قبر فبكى حتى ابتلت لحيته وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صلى بالليل-أزير كأزير الرجل « وذلك من البكاء تسمع من صدره الشريف أزيرا كأزير الرجل أى القدر عند الغليان وقال الشاه عبد العزيز الدهلوى : ورد في الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يلج النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع » الحديث — رواه الترمذى في سننه كذا في المشكاة •

وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه رجلاً بكاء لا تنقطع الدموع في عينه حين يقرأ القرآن •

وقال جبير بن مطعم عندما سمعت هذه الآية من رسول الله صلى الله عليه وسلم « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » فكأنما طار قلبي من الخوف » انتهى •

وقد اتفقت أقوال القدماء والمتأخرين على أن الرياضات والمجاهدات ليست بمقصودة • وإنما المقصود في الأصل هو « درجة الاحسان » وللحصول عليها ان وجد مرض ما في شخص عولج بحسبه واختير له العلاج المناسب لمرضه ذاك وكل قوم لهم عادات مختلفة وأمراض متنوعة ومشايخ كل زمن يختارون بحسب كل مرض علاجه فعندما ازداد شيوع البدعات أضاف المشايخ في ألفاظ البيعة لفظة تجنب البدع وتركها ، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يضيف أحيانا لبعضهم ترك السؤال ول بعضهم ترك النياحة وهكذا •

وهكذا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أوامره لبعض الأشخاص حسب أحوالهم غير أوامره للبعض الآخر ففي المشكاة عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت : يا رسول الله قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك - وفي رواية غيرك - قال : قل آمنت بالله ثم استقم » رواه مسلم - وفي موضع آخر روى عن أبي أمامة رضى الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الايمان ؟ قال : اذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن ، قال : يا رسول الله فما الاثم ؟ قال : اذا حاك في نفسك شيء فدعه » رواه أحمد •

وسأله عمرو بن عبسة رضى الله عنه ما الايمان ؟ فقال : الصبر والسماحة ، وقد ذكر المحشى لهما معان كثيرة أوضحها أنه الصبر على المفقود والسماحة بالموجود وفي نفس الحديث أيضاً أنه سئل عن أفضل الايمان ؟ فقال : خلق حسن ، رواه أحمد ، وسأله معاذ بن جبل نفس السؤال بأنه ما أفضل الايمان فقال صلى الله عليه وسلم أن تحب الله وتبغض الله وتعمل لسانك في ذكر الله ، رواه أحمد أيضاً كذا في المشكاة •

ونقل في موضع آخر عن عبد الله بن بسر أن رجلاً قال : يا رسول الله

ان شرائع الاسلام قد كثرت على فأخبرني بشيء أتشبث به ، قال : لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله » رواه الترمذى وابن ماجه ، وفي مقال آخر روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم أوصنى ، قال : لا تغضب فردد ذلك مرارا قال : لا تغضب ، رواه البخارى وفى وقت آخر روى عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال عظمى وأوجز ، فقال : اذا قمت فى صلاتك فصل صلاة مودع ، ولا تكلم بكلام تعذر منه غداً ، وأجمع الایاس مما فى أیدی الناس » رواه أحمد فالغرض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبت عنه أنه كان يجيب كل شخص حسب أحواله وظروفه جوابا يناسبه وهكذا كانت تختار الألفاظ والعبارات المناسبة لكل مكان ومقام فى البيعة أيضا •

وهكذا المشايخ أيضا تراهم فى البلاد التى تروج فى الناس عمل التعزيات فى أيام العاشوراء يضيفون فيها عبارات التوبة عن عمل التعزية ، وكما أنه فى العلاج مثلا بعض الأجسام لا يصلح لها الا الأدوية الحارة وبعضهم بسبب أمزجتهم أو أحوال بلادهم تناسبهم الأدوية الباردة - يأتى مريضان وقد أصابهم مرض من نوع واحد ولكن الطبيب الحاذق يصف لكل واحد منهما علاجاً بخلاف علاج الآخر مع أن الغرض أيضا واحد وهو شفاء المريض من المرض وهكذا العلاجات المتنوعة الشائعة فهناك الطب اليونانى والطب الهوميوييتك والايلىوييتك كل من هؤلاء له أصول منفردة فى العلاج مع أن المقصود واحد وهو ازالة المرض •

فهكذا بالضبط مشايخ السلوك أيضا ، فهناك الجشتية والنقشبندية والقادرية وغيرهم فهؤلاء كل منهم حسب خبرته وتجربته يختار العلاج المناسب للمرض الروحانى • فاذا ثبت أن هذه كلها معالجات لأمراض مختلفة فالمطالبة حينئذ بالدليل من القرآن أو السنة عن طريق مخصوص مثاله مثال من يطلب من الطبيب اليونانى الدليل من القرآن أو الحديث على أن البنفسه تزيل الزكام - أو الطبيب الأوروبى (الدكتور) أن البنسلين والكونين والاسبرو من أى حديث استنبطه - فما دام قد ثبت

ان هذا الشخص مريض فما يصف له الطبيب والدكتور من علاج مباح يجب أن نعالجه به بل ان في الأمراض الظاهرية يجوز بعض العلماء في بعض الصور استعمال الأشياء المحرمة شرعا أيضا عندما يخبر الطبيب الحاذق المتدين أنه لا علاج لهذا المرض الا بهذا الدواء « المحرم » - بل انه ان غص انسان بلقمة في الحلق ولم يمكن ازالتها ولم يكن هناك من المشروبات الا الخمر فيجب حينئذ ازالة الغصة بالخمر .

وكذا الحال بالنسبة للأمراض الروحانية أيضا فما يختاره الأطباء الروحانيون لمرضاهم من الأدوية والعلاجات المجربة أفليس من الحق والظلم ان نطالبهم بدليل لها من القرآن أو السنة ؟ ومن يتجاسر ويدعى أنها بدعة فانه في الحقيقة يجهل تعريف البدعة - فان البدعة هي الاحداث في الدين - وليس الاحداث للدين - والذين لا يستطيعون أن يفرقوا بينهما هم في الواقع جهلة عن الدين كله - ان الاحداث للدين أحيانا يكون ضروريا بل ويكون واجبا في بعض الأحيان مثل آلات الجهاد ، ففي السابق كانت تكفى السيوف والرماح ولكن الاكتفاء بهذه الآلات فقط الآن مهلكة وجنون - بل يجب أن نهتم ونجتهد لاعداد البنادق والمدافع والدبابات بل ويجب اعداد الأسلحة الذرية ، يقول الشيخ المجدد أحمد السرهندي نور الله مرقده في احدى مكاتيبه المنقولة في (تجليات رباني ص ٤٩) ما ترجمته بالعربية : -

انك كتبت عن عدم علمك بالنسبة الخاصة التي كانت لشيخنا المرشد (سيدى الخواجة باقى الله) وسألت عن سبب ذلك ؟

سيدى : مثل هذه الأشياء لا يناسب بيانها تحريرا بل ولا شفها لأنه لا ندرى ماذا يفهم منه المرء ، ثم ماذا يستنتج منه فانه ينبغى لهذا الشأن الحضور بشرط حسن الظن وطول الصحبة على أى طور كان ولكن بما أنه لا بد لكل سؤال من جواب أقول مختصرا « بأن لكل مقام علوم ومعارف مختلفة عن الآخر وكذا الأحوال والمواجيد لكل على حدة . ففى بعض المقامات يناسب الذكر والتوجه وفى بعضها التلاوة والصلاة . وبعض المقامات تكون مخصوصة بالجذب وبعضها مخصوصة بالسلوك وبعض

المقامات تكون مركبة من هاتين الثروتين (الجذب والسلوك) وهناك مقام خال عن الجذب والسلوك لا الجذب له علاقة به ، لا السلوك وهذا مقام نادر جدا . ان أصحاب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، امتازوا بهذا المقام وتشرفوا بهذه المرتبة العظمى - أصحاب هذا المقام يحصلون على الامتياز التام ولا يشبهون أصحاب المقامات الأخرى الا في القليل جدا بخلاف أصحاب المقامات الأخرى فانهم يشبهون بعضهم بعضا بأى صورة كان - ولم يخبر الا القليل جدا من السادة مشايخ السلاسل عن هذا المقام فكيف اذن يمكن بيان معارف هذا المقام « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » ان الصحابة الكرام رضى الله عنهم كانت تحصل لهم هذه النسبة العزيزة الوجود في أول خطوة وتصل الى درجة الكمال ومن سواهم ان قضى له وقدر أن يتشرف بهذه الثروة ويربى على مثل نسبة الصحابة الكرام فانه بعد قطع منازل الجذب والسلوك والعبور من على العلوم والمعارف يسعد بالحصول على هذه المرتبة العظمى . فان ظهور هذه النسبة المخصوصة في البداية كان خاصا ببركة صحبة سيد البشر صلى الله عليه وسلم فقط .

نعم يمكن أن يتشرف به أحد ببركة اتباعه التام للسيد الكريم صلى الله عليه وسلم ثم صحبته تكون سببا لظهور هذه النسبة في البداية أيضا :-

ومن بعد هذا ما يدق صفاته وما كتبه أحظى لديه وأجمل

(انتهى)

كما أنه في الأمراض الظاهرة يحتاج الى طبيب ما ولا يمكن أبدا أن يعالج الشخص نفسه فقط بمطالعة كتب الطب - هكذا الأمراض الروحانية أيضا تحتاج الى طبيب ما للعلاج والارشاد ، وكما أنه في ظاهر الشريعة

وجد مجتهدون كثيرون هكذا في الطريقة مشايخ السلوك أيضا — فالأكابر في السلوك كثيرون أيضا ولكن كما أنه في الشريعة انحصر المجتهدون في الأئمة الأربعة هكذا لوجوه عديدة بالنسبة للمشايخ المعالجين للأمراض الباطنية انتشرت في ديارنا (الهند وباكستان) بالعموم أربعة طرق لهم وهي القادرية والجشتية والنقشبندية والسهروردية .

ضرورة الشيخ وشرائطه

كتب الشيخ التهانوي نور الله مرقدته في التكشف ص ١٢٦ :

ينبغي أن يعلم أنه كما يحتاج لعلاج المرض الظاهري الى طبيب يكون هو نفسه صحيحا ومعافى ولا يكون مريضا ويستطيع أيضا علاج الآخرين - لأنه لو كان بنفسه مريضا فان المسألة الطبية هي أن « رأى العليل عليل » فانه ولو كان طبيبا ولكن لا يعتمد على رأيه لمرضه - وان كان صحيحا معافى ولكنه لا علم له بطريقة العلاج فأیضا لا يصلح لعلاج هذا المريض لجهله كما هو معلوم كذلك نفس الشيء في علاج المرض الباطنى أيضا . يحتاج الى شخص ومرشد يكون فى نفسه متقيا صالحا ولا يكون مبتدعا ولا فاسقا وكذلك يستطيع تكمیل الآخرين - لأنه لو كان فاسد العقيدة أو العمل فلا يطمأن اليه أن يكون مخلصا فى تعليمه وتربيته بل الغالب أنه يحاول أن يجعل المريد مثله أيضا ولا يستطيع أن ينصحه فى العمل لأنه بنفسه ليس بعاقل . ويفكر أنه لو نصحه فماذا يقول هذا الشخص عنه فى نفسه بل الغالب أنه لكى يعظم نفسه يحاول تأويل فساد عمله بأى طريقة - بأنه هو الصحيح وهذا فيه خطر وباب ضلال شديد .

ثانيا : لا يكون فى تعليم هذا وتربيته الأنوار والبركات والتأثير والامداد الغيبى - وهكذا لو كان متقيا وصالحا ولكن لا علم له بطريقة التربية الباطنية فلا يستطيع رفع حاجة الطالب - وكما أنه يعلم عن الطبيب الظاهري أنه طبيب كامل حقا بعلامة كأن يكون قد درس علم الطب وقد لازم بعده مدة كافية طبيا كاملا وتدريب عليه ويأتى اليه العقلاء من الناس للعلاج ويشفى على يديه المرضى بعلاجه هكذا فى الطبيب الباطن أيضا أى الشيخ لكى تتحقق أنه شيخ يعتبر به له علامات كذلك وهى : أن يكون قد لازم أحدا من المشايخ الكاملين مدة مديدة من الزمن واستفاد منه ويكون موثوقا به وحسنا عند أهل العلم والفهم ويرجعون اليه فى السلوك وأن يحس القلب

بزيادة المحبة الالهية وبنقص محبة الدنيا بصحبته ويلاحظ أن تحسن أحوال الملازمين والمصاحبين له يوما بعد يوم الى الأفضل - فهذا الشخص أهل بأن يجعل شيخا هو الاكسير الأعظم وزيارته وخدمته كالكبريت الأحمر • اذن فمجموعة الصفات التي ينبغي أن تكون في الشيخ الكامل هي :

ان يكون متقيا صالحا - متبعا للسنة - عالما بالدين بقدر الضرورة - يكون قد لازم أحد الكاملين واستفاد منه باطنيا ، يميل اليه العقلاء والعلماء وتكون صحبته مؤثرة وتصلح به حالة المريدين •

وقد ذكر الشاه ولي الله الدهلوي في (القول الجميل) شرائط المرشد أشد من هذه فقال قدس سره :

« وأما المسألة الثالثة فشرط من يأخذ البيعة أمور :

أحدها : علم الكتاب والسنة ولا أريد المرتبة القصوى بل يكفي من علم الكتاب أن يكون قد ضبط تفسير المدارك أو الجلالين أو غيرهما وحققه على عالم وعرف معانيه وتفسير الغريب وأسباب النزول والاعراب والقصص وما يتصل بذلك - ومن السنة أن يكون قد ضبط وحقق مثل كتاب المصاييح وعرف معانيه وشرح غريبه وأعراب مشكله وتأويل معضله على رأي الفقهاء » يقول المترجم : انه اشترط هذا الشرط لأن مخالفة الأئمة الأربعة فيها ضلالة صريحة • أي أنه ترك الاجماع - ويقول الشيخ عبد العزيز الدهلوي قدس سره ان هذا المقدار من العلم يكفي للارشاد والسلوك • ثم يقول الامام ولي الله الدهلوي «وانما شرطنا العلم لأن الفرض من البيعة أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وارشاده الى تحصيل السكينة الباطنة وازالة الرذائل واكتساب الحمائد ثم امتثال المسترشد به في كل ذلك فمن لم يكن عالما كيف يتصور منه هذا ؟ • يقول المترجم : انظر سبحان الله كيف انعكس الوضع الآن فيظن هؤلاء الفقراء الجهلة سفها أن العلم ليس بهم في أمور التصوف بل يظنون أن العلم مضر بالنسبة لهذا الشأن لأن الشريعة شيء والطريقة شيء آخر افتراء وزورا وكذبا - مع

أن الصوفية المتقدمون رحمهم الله قد صرحوا في كلماتهم وكتبهم مثل : قوت
القلوب وعوارف المعارف وأحياء العلوم وكيمياء السعادة وفتوح العيب
وغنية الطالبين للشيخ عبد القادر الجيلاني أن علم الشريعة شرط للتصوف
والطريقة ، وهذه طامة عظيمة أن هؤلاء المشايخ الذين لا يفترون عن ذكر
أسمائهم ليلا ونهارا يجهلون أقوالهم وتصريحاتهم ومؤلفاتهم (وإنما يتبعون
أهواءهم فيضلون ويضلون) - ويقول الشيخ النواب قطب الدين في
حاشيته أنه قد ثبت عن سيد الطائفة الصوفية وإمام أرباب الطريقة الجنيد
قدس سره بعبارات مختلفة أنه صرح بأن لا يقتدى في الطريق بسن لم
يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة -
ونقل عنه رحمه الله أنه قال « كل طريقة ردت الشريعة فهي زندقة ، ونقل
عن السرى السقطي وغيره مثل هذه العبارات وقال انه نقلت أقوال المشايخ
في كتاب جامع التفاسير ص ١١ فمن أراد أن يطالعها فليرجع اليه ، ثم قال
الامام الشاه ولي الله « وقد اتفقت كلمة المشايخ على أن لا يتكلم على الناس
الا من كتب الحديث وقرأ القرآن اللهم الا أن يكون رجل صحب العلماء
الاتقياء دهرا طويلا وتأدب عليهم وكان متفحصا عن الحلال والحرام وقافا
عند كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فعسى أن يكفيه ذلك والله
أعلم ، والشرط الثاني العدالة والتقوى فيجب أن يكون مجتنباً عن الكبائر
غير مصر على الصغائر ، قال الامام الشيخ عبد العزيز الدهلوي في
الحاشية « شرط التقوى في المرشد لأن البيعة شرعت لتصفية الباطن
وتزكيته والانسان مجبول على اقتداء أفعال أبناء نوعه ولا يكفي للتصفية
القول فقط بدون العمل فالمرشد الذي لا يكون متصفا بأعمال الخير اكتفى
بالقول الحسن فانه نصاب وقاطع طريق والشرط الثالث : أن يكون زاهدا
في الدنيا راغبا في الآخرة مواظبا على الطاعات المؤكدة والاذكار المأثورة
المذكورة في صحاح الأحاديث مواظبا على تعلق القلب بالله سبحانه وكان
يادداشت له ملكة راسخة (واليادداشت : عبارة عن التوجه الصرف المجرد
عن الألفاظ والتخيلات الى حقيقة واجب الوجود جل جلاله) والشرط
الرابع : أن يكون آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر مستبدا برأيه لا امعه

ليس له رأى ولا أمر ، ذا مروءة وعقل تام ليعتمد عليه فى كل ما يأمر به وينهى عنه قال الله تعالى « ممن ترضون من الشهداء » فما ظنك لصاحب البيعة ، والشرط الخامس : أن يكون صحب المشايخ وتأدب بهم دهرًا طويلا وأخذ منهم النور الباطن والسكينة ، وهذا لأن سنة الله جرت بأن الرجل لا يفلح الا اذا رأى المفلحين كما أن الرجل لا يتعلم الا بصحبة العلماء وعلى هذا القياس غير ذلك من الصناعات ، ولا يشترط فى ذلك ظهور الكرامات والخوارق ولا ترك الاكتساب ، لأن الأول ثمرة المجاهدات لا شرط الكمال ، والثانى مخالف للشرع ، ولا تغتر بما فعله المغلوبون فى أحوالهم ، انما المأثور القناعة بالقليل والورع من الشبهات ، وقال الامام الشيخ عبد العزيز الدهلوى : كذلك لا يشترط أن يختار الترهيب التام أى يشق على نفسه فى العبادات كصوم الدهر وسهر الليالى والخلوة عن الناس وترك النساء واجتناب لذائد المأكولات أو المشروبات أو الالبسة أو الخروج الى الصحارى والبرارى ونحوها لأن هذه الأمور من التشدد فى الدين والتشدد على النفس وقد نهينا عن ذلك ولا رهبانية فى الاسلام اهـ .

هذه الشرائط التى ذكرها سيدى الشاه ولى الله الدهلوى شديدة والتى ذكرها حكيم الأمة التهانوى أهون منها — والاكاير من قبل سيدى الشاه ولى الله الدهلوى أشغلوا مريديهم فى مجاهدات ورياضات أشد منها ثم أكرمهم بالخرقة فحكاياتهم معروفة ومعلومة مذكورة فى كتب تواريخهم — وقصة الشاه أبى سعيد الكنكوهى شهيرة جدا قد ذكرتها فى كثير من رسائلنى وهى بالاختصار أنه قدس روحه حضر للشيخ نظام الدين البلخى للبيعة وعندما علم الشيخ به خرج من البلدة مسافة مرحلة لاستقبال النجل الكريم وصحبه الى بلخ معززا مبجلا وهناك أكرمه وأجلسه على مسنده وجلس أمامه كالخدم وهكذا طول مدة اقامته هناك ثم عندما أراد الشيخ أبو سعيد الرجوع واستأذن الشيخ فى ذلك قدم له الشيخ الهدايا والأموال فقال له الشيخ أبو سعيد حينئذ سيدى انتى لست فى حاجة الى هذه الثروة الدنياوية وانى لم آت لأجلها الى هنا انى أريد

تلك الثروة التي أتيتم بها من عندنا - لم يسمع هذا الشيخ نظام الدين
الا وتغير وجهه وانتهره قائلا امش واجلس في الدهليز هناك واهتم بأمر
تربية كلاب الصيد - وفعلها جعلت كلاب الصيد في توليته يغسلها وينظفها
يوميا ويهتم بجميع شئونها وأحيانا يستخدم في السقى وأحيانا عندما يخرج
الشيخ للصيد والتنزه يخرج هذا المسكين خلفه ويده سلاسل الكلاب
يهتم بأمرها ويخدمها .

وكان الشيخ قد أمر رجاله أن يعطوا لهذا الجالس بالدهليز في خدمة
الكلاب قرصين من خبز الشعير صباحا ومساء - وأصبح الحال أن
الشيخ أبو سعيد عندما يحضر الى مجلس الشيخ لا يرفع اليه بصره حتى
وكأنه ليس بالمجلس بل ويأمره أن يجلس بعيدا عنه كأراذل القوم ولا
يلتفت اليه بتاتا وكأنه ليس في الحسبان - وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر أمر
المرأة التي كانت تنظف المراحيز أنها بعد الفراغ من عملها تمر بجانب
الشيخ أبي سعيد الجالس بالدهليز في خدمة الكلاب بحيث تلمسه فقط
بنجاستها ثم تخبر الشيخ بما يحدث فعلى المرأة ما أمرت به وعندئذ أحمر
وجه الشيخ أبي سعيد غضبا وقال : لست بكنكوه والا . . فذهبت المرأة
وأخبرت الشيخ بالقصة فقال الشيخ : بعد ، مازالت رائحة بنوة المشيخة
« الكبر بأنه من أبناء المشايخ » باقية - وتركه على حاله الى شهرين
آخرين وبعدها أمرها الشيخ أيضا أن تمر بجانبه كالمرة الأولى بل وتكب
عليه هذه المرة قصدا بعض النجاسة ثم تخبر الشيخ بما يحدث - ففعلت .
وهذه المرة لم يتفوه الشيخ أبو سعيد بأى كلمة وانما فقط نظر اليها بحدة
وغضب . ثم خفض رأسه وجلس صامتا - فجاءت وأخبرت الشيخ بذلك ،
فقال الشيخ مازالت بعض الرائحة باقية بعد - ثم تركه هكذا عدة أشهر
أخرى وبعدها أمر المرأة أن تمر بجانبه وتكب عليه قفة النجاسة بكاملها
حتى يمتلى بالنجاسة بكامله ففعلت ولكن هذه المرة كان الشيخ أبو سعيد
قد تكون كما أريد له أن يكون فاضطرب لما حدث وأخذ يتملق اليها
ويستسمح منها لما حدث ويقول مسكينة المرأة قد سقطت بسببى لا تكون
جرحت أو أصابها سوء ثم أخذ يملأ كفه بالنجاسة الملقاة عليه وعلى الأرض
ويعيدها ثانية في القفة بسرعة حتى أعادها كلها فذهبت المرأة وأخبرت

الشيخ بأن الرجل بدلا من أن يغضب على اليوم أخذ يستسمح منى واعد
لى النجاسة كلها فى القفة فقال الشيخ مسرورا نعم اليوم كمل العمل -
ثم بلغ الشيخ أبا سعيد بواسطة الخادم أن يجهز الكلاب اليوم للذهاب الى
الصيد وفى المساء خرج الشيخ نظام الدين البلخى راكبا على فرسه والخدم
وراءه على أقدامهم الى الغابة والشيخ أبو سعيد وراءهم ويده سلاسل
الكلاب - والكلاب كانت معلمة وسمينة ونشيطة والشيخ أبو سعيد
مسكين بجسمه النحيل الضعيف مع بذل جهوده لا يطيق سياستها فهى
تفتلت منه وأخيرا أخذ السلسلة وربطها حول جسمه حتى لا تفلت منه
وعندما رأت الكلاب الصيد هجمت عليه وجرت وراءه وسقط المسكين
الشيخ أبو سعيد والكلاب لا تعباً به همها الصيد وتعدو وراءه والشيخ
أبو سعيد الهزيل الضعيف مرمى على الأرض تسحبه الكلاب السمينة
ويجرحه الحجر والشجر والشوك حتى دمی جسده كله وأبو سعيد لا يتفوه
بكلمة وعندما جاء اليه خادم لنصرته وأقامه أخذ يرتعش من الخوف بأن
لا يكون الشيخ قد غضب لتقصيره فى مهمته ولم اتفقت منه الكلاب ؟
وكان مقصود الشيخ الاختبار وقد كان ، وفى نفس الليلة رأى الشيخ نظام
الدين شيخه ومرشده قطب العالم الشيخ عبد القدوس الكنكوهى فى
المنام وهو يقول بحزن : نظام الدين لم اقسو عليك فى الجهد (للتربية)
كما قسوت على أولادى - وفى الصباح الباكر طلب الشيخ نظام الدين
الشيخ أبا سعيد من الدهليز وضمه الى صدره وقال له : انى قد أتيت من
الهند بفيضان السلالة الجشتية وأنت الآن تأخذ هذا الفيض منى الى
الهند - اذهب الى وطنك وبارك الله لك - وجعله مجازا فى الحقيقة
واعاده الى الهند - القصة طويلة أمليتها مختصرة - ومثل هذه المجاهدات
فى تلك العصور ، معروفة وموجودة بكثرة فى كتب التاريخ - ولكنه بما
أن الزمن الآن كل يوم والى الانحطاط من ناحية القوى الجسدية وكذلك
بالنسبة للقوة الايمانية أيضا لذلك نرى أن المشايخ من بعد الشيخ
التهانوى تساهلوا أكثر منه .

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم انكم فى زمان من ترك منكم

عشر ما أمر به هلك ثم يأتى زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا » رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

قال صاحب المرقاة : « المراد بالمأمورية : الامر بالمعروف والنهى عن المنكر . وفى رأى أنه شامل لجميع المأمورات والمراد بالنقص انما هو من حيث الخشوع والاحسان .

فقد روى أبو داود وغيره عن عمار بن ياسر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الرجل لينصرف وما كتب له الا عشر صلاته ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها » فهذا النقص من حيث الخشوع والخضوع أيضا . ولأن الزمن الى الضعف كل يوم وآخر من حيث الايمان ، ومن حيث القوى الجسدية أيضا ، لذلك أصبح المشايخ ينقصون حتى فى المجاهدات والرياضات ، ويسهلون أيضا فى شرائط الشيخ ، الموضوع طويل جدا ، وكنت أود أن أبسطه ولكن من يقرأ ... ؟ لذلك اكتفى بهذا فقط .

وانما ما كتبه الشيخ السيد أبو الحسن الندوى فى مقدمة رسالة « أكابركا سلوك واحسان » للعزیز الصوفى محمد اقبال جامع ومفيد جدا ، أختتم به هذا البحث :

قال : « وأعلم أن المذاهب والأخلاقيات والتعليم والتربية ، والاصلاح والتجديد ، والعلوم والفنون ، كل منها يمر بمرحلتين عظيمتين ، ولا مفر له منهما .

الأولى : حينما تحل الوسائل والوسائط محل المقاصد .

والثانية : عندما تكون المصطلحات حجابا للحقائق ، ونحن نعرف جيدا أن الوسائل والمصطلحات كل منهما مهم وضرورى ، وفطرى وطبيعى ، ولا يمكن الوصول الى هذه المقاصد أصلا وتشريحها تعميمها وتفهمها الا بهما ، ولكن الوسائل والمصطلحات تكون معنى محضا للمقاصد والحقائق ، واختيارهما يكون لاكمال الضرورة مؤقتا ، ولكن فى وقت

قد يكون ضروريا ومطلوبا مثل الحقائق والمقاصد ، وقد يختار المجتهد لكل من هذه الفنون الاستغناء عنها اذا دعت الضرورة اليه ، بل في بعض الأوقات يجب تركها للعلاج ، ويكون المجتهد حاكما . ويلاحظ بدقة ألا تكون الوسائط والمصطلحات مضرّة ، وحاجزا ومانعا للطريق ، ولابد أن نعترف ونقر الحقائق التاريخية التي تحكى عن هذه المقاصد الجليلة حيث صارت الوسائط مقاصدا ، وأخفت المصطلحات الحقائق تحت أستار كثيفة ، حتى غابت الحقائق عن أذهان الناس ، بل قام جم غفير من أهل الدين ومحبيه بإنكار هذه الحقائق والمقاصد ، وكانوا يرغبون عنها ويكرهونها ، لأجل الأخطاء التي ظهرت من الذين يتحمسون للمصطلحات ، حتى صار أمرا صعبا الاعتراف بمكانة الحقائق وضرورة الحصول وتكميلها لهم ، ولما حاولنا أن نقنعهم بضرورة تحصيل المقاصد ، وسعينا أن نطمئنهم ، جاءت أمام عيونهم جبال الوسائط التي قد سبقت الى أسماعهم وأفكارهم بالمبالغة والتفريط فيها ، وذلك من المدعين المفرطين الذين خاضوا وجادلوا فيها حتى نسوا المقصود .

وهكذا لما طلبنا منهم قبول الحقائق التي لا خلاف فيها لأحد ، بل تقول انها من البدهيات فصارت المصطلحات حجابا لها ، المصطلحات التي يجوز الاختلاف فيها ، بل انه وضع الاصطلاح في أحوال مخصوصة وفي مكان مخصوص ، في عصر مخصوص ، لتقريب الأذهان لهذه الحقائق ، تحت مصالح خاصة ، الأصحاب العظام الذين كانوا حاملين هذه الحقائق ، وكانت حياتهم مثالا لهذه الحقائق ، كانوا لا يعلمون عن هذه المصطلحات شيئا اطلاقا ، وقد اخترعوا وأوجدوا لفهام الحقائق وترسيخها في الأذهان الكلمات ، والطرق ، والأساليب .

ونحن حينما تفكر في هذه المصطلحات مثلا : النحو ، والصرف ، القواعد ، اللسان ، العلوم ، والبلاغة ، والحقيقة ، والطريقة ، والمعرفة ، وجلاء الباطن ، واصلاح النفس ، وما الى ذلك ، ننظر في تاريخها ونتفكر في السلف والخلف ، أى المتقدمين والمتأخرين لهذه الفنون ، فنجد حقيقة واضحة على السواء ، أن المتقدمين كانوا حكاما على الوسائط والوسائل ،

وصار المتأخرون محكومين لها ، المحققون كانوا داعين وساعين الى الحقائق ،
والناقصون صاروا عبيدا وأسرى للمصطلحات ، والأديان والأخلاقيات
والعلوم والفنون ، كل منها بالنسبة لمقاصدها يتلى بهذا الابتلاء ، ومنها
التصوف والسلوك أيضا ، ونحن في استطاعتنا أن نقول : ان مقاصد
التصوف وحقائقه أمر اجماعى ومتفق عليه ، ولكن أثر فيها الشيطان
المذكوران ، أى الغلو ، والافراط فى الوسائل ، والاصرار على
المصطلحات •

فلو سألنا أحدا : هل الاخلاص والتخلق بالأخلاق الحسنة ضرورى
أم لا ؟ وهل حصول اليقين ضرورى أم لا ؟ التزين بالخصائل الحسنة
والاعراض عن الرذائل مثل الحسد ، والكفر ، والرياء ، والبغض ، والحقْد ،
وحب الدنيا ، وحب المكانة ، وما الى ذلك من العادات الرذيلة ، وحصول
الخلوص من النفس الأمارّة ، هل ضرورى أم لا ؟ مستحسن أم لا ، ولو
فى درجة ما ؟ والخشوع والخضوع فى الصلاة والتضرع ، والإبتهال فى
الدعاء ، ومحاسبة النفس ، وحب الله ورسوله ، والصفاء فى المعاملات ،
والصدق والأمانة ، والاهتمام بحقوق العباد ، والقدرة على النفس الأمارّة ،
وكظم الغيظ ، وما الى ذلك ، كل هذا مطلوب أم لا ؟ •

فالإنسان الذى فى فطرته شئ من الصلاح ، خصوصا المسلم الذى
لا يتعصب سيجيب بالاثبات ، بل يزيد عليه بأن هذه الأشياء مطلوبة
أيضا • وكتاب الله وسنة رسول الله مليان بهما تأكيدا وترغيبا ، وقلنا
لهم : ان الطريق لنيل هذه الصفات والمقاصد • هو الطريق الذى سماه
الناس فى القرون الأخيرة بالتصوف : يكون مفاجأة لهم ، تبدو آثار
الغضب واضحة على وجوههم ، لأنهم لا يحبون هذا الاصطلاح ، ولأنهم
يحملون ذكريات غير مرضية لبعض هؤلاء الناس الذين يحملون لواء
التصوف ومصطلحاته ، ولكن هذا ليس مخصصا بالتصوف ،
ولا من خصائصه ، بل هذا حال شامل لكل العلوم والفنون ، ولكل
دعوة ومدرسة فكر ودعوة اصلاح ، وكذا الجماعات الدينية المتميزة
بالاسلوب الحديث ، ويوجد فى الجمعيات الدينية المخلصون والمنافقون ،

والمحققون وغير المحققين ، والصادقون وغير الصادقين ، وأيضا العاملون بالاخلاص بدون غرض ، والناس الذين يعملون لمصلحة أو لأخرى ، كل منا يدرك هذه الحقائق تماما ، ولا مجال لأحد أن ينكرها ، وبالرغم من هذا لا يقدر أحد منا أن ينكر ضرورة الجمعيات والعلوم والفنون المذكورة ، ولا يستطيع أن يخالفها لوجود الموانع المذكورة . وهذه كبقية الأشغال والأعمال كلها ، مثلا تفكر في الصناعة ، والزراعة ، والتجارة ، وغير ذلك من الأعمال تجد فيها الكاملين والناقصين ، نجد فيها الهادين والمضلين ، ولكن جربنا ونجرب كل يوم أن هذه الأمور سائرة في طريقها ، والانسان يراعى مصلحته ، ومن أجل الناقصين والمدعين لا يترك مصلحته ، ولا يجب أن يترك أيضا الحقائق ، ولو كانت تختلف تماما عن مصطلحاتها ، وفيه معنى قول الشاعر :

الرجل العاقل لا يخوض في الألفاظ ، لأن مقصد الغواص الدر وليس الصدف .

وقد تفكرنا في شأن التصوف فوجدنا أن هناك جماعتان ، كل واحدة منهما لها وجهة نظر ، أولاها لما نعرض عليها أجزاء التصوف على حدة تقبلها ، ولكن حين تقول لها نحن نسمى المجموعة كلها بالتصوف ، تنكرها وتبادر هذه الجماعة بالانكار والتشديد عليه ، وتقول : نحن لا نعرف التصوف ، ان للتصوف أضرار بالغة بالمسلمين ، بل وبالدين أيضا .

والجماعة الثانية عندما يعرض عليها بأسماء أخرى مثلا ، تقول لها : ان التصوف في اصطلاح القرآن الكريم : التزكية ، وفي اصطلاح الحديث يسمى بالاحسان ، وعند بعض العلماء المتأخرين : فقه الباطن ، فتقول : لا نختلف في هذا ، وكلها منصوص عليها ، وفي الحقيقة : لا نستطيع أيضا أن نحكم على السنة الناس ، ولو كان في استطاعتنا لسميناه بالتزكية والاحسان ، وتركنا كلمة التصوف كليا ، ولكنه بهذا الاسم صار معروفا ومشهورا ، لا نستطيع أن نغيره ، ولكن ليس هذا من خصائصه ، بل ان تاريخ العلوم والفنون كلها ملئ بهذه المصطلحات ، والمحققون يصرون دائما على المقاصد ، ويخلون بالوسائل كلها ، ويبالغون فيها ، بل ينكرون بشدة وبكل صراحة الأشياء التي تتعرض

لمبادئ الفن وروحه ، ولا تتمشى مع المقاصد بل تنافىها ، وقد تكون
مضرة له في وقت ما •

وما مر على تاريخ الاسلام زمن الا وقد قام من الدعاة والمعلمين ،
ومن أهل التحقيق للفن ، للتفريق بين القشر واللب ، وبين الحقائق والصور
وبين المقاصد والرسوم •

وكلنا نعلم ، والتاريخ يشهد أن الشيخ الكبير عبد القادر الجيلاني
والشيخ شهاب الدين السهروردي ، والامام المجدد الشيخ أحمد
السرهندي ، والشيخ المحدث ولي الله الدهلوي ، والشيخ المجاهد أحمد
الشهيد ، والشيخ الامام الرباني رشيد أحمد الكنكوهي ، والشيخ محيي
السنة أشرف على التهانوي ، كل هؤلاء قاموا بالتفريق بين القشر واللب
والمقصود وغير المقصود ، وخالفوا الرسوم وأقلعوا عن البدع التي جاءت
ودخلت بالاختلاط مع الكفار والناقضين في التصوف ، وأصبحت كأنها
جزء من التصوف والطريق ، ونجد هذه الأشياء بكل وضوح وصراحة
في كتب المشايخ مثل « فتوح الغيب » و « غنية الطالبين » للشيخ الكبير
السيد عبد القادر الجيلاني ، و « عوارف المعارف » للشيخ شهاب الدين
السهروردي ، و « مجموعة الرسائل » للامام المجدد الشيخ أحمد
السرهندي ، وكتب الشاه ولي الله الدهلوي ، و « صراط مستقيم »
للسيد أحمد الشهيد ، ومجموعة الرسائل للامام المحدث رشيد أحمد
الكنكوهي ، و « تربية السالك وقصد السبيل » للشيخ محمد أشرف على
التهانوي ، هؤلاء الأكابر فرزوا اللبن من الماء والحقيقة من التصنع ، حتى
أن الشاه ولي الله الدهلوي كتب أن نسبة التصوف الحقيقي هي الكبريت
الأحمر ، أي أنها نعمة عظيمة ، ولكن الرسوم التي لا أصل لها في الشريعة
لا قيمة لها البتة ، وهؤلاء الكبار كانوا يدعون دائما الى الأخلاق الحسنة ،
والصفاء في المعاملات ، والاهتمام بحقوق العباد ، وكانوا يجعلونها شروطا
أساسية للإصلاح والتقرب الى الله ، وكتبهم مملوءة بهذا ، وكان هذا
موضوع محافلهم •

والصالحون الذين عاصرتهم وحضرت عندهم مرارا وتكرارا وتعرفت على

تصوف بهم ، لم أجد فيهم التصوف والسلوك فقط ، بل وجدت فيهم خلاصة الدين والشريعة ، وأخلاقهم كانت نموذجاً للخلق النبوي الكريم ، وكانت معاملاتهم وأعمالهم وحياتهم كاملة في ميزان الشريعة ، ووجدتهم يفرقون بين المقاصد والوسائل دوماً ، ووجدتهم مستغنيين عن المصطلحات ، مكبين على الحقائق نافرين عن الرسوم ، مخالفين للبدعة مخالفة شديدة ، ووجدتهم مطيعين ومتبعين للسنة ، لا في العبادات فحسب ، بل في المعاملات والعادات أيضاً ، وكانوا مجتهدين في هذا الفن ، وليسوا مقلدين ، يعملون بالاختصار والاختيار ، وبالحذف والترميم في ضوء البصيرة والفراسة وطول التجربة في هذا الفن ، يعملون النسخة الطبية الروحانية للمرضى حسب أحوالهم الروحانية وأمراضهم المتنوعة ، ويراعون في العلاج اختلاف الطبائع والمشاكل والأحوال ، شأنهم شأن المجتهد الذي يحكم على الفن ولا يحكم عليه ، ومقصودهم شفاء العليل ، لا أن يكون أسيراً للرسوم وجدت عندهم الصفاء في الخلق ، والكد في المجاهدات ، مع الاعتدال في الطبيعة ، وضبط النفس والايثار والانقياد ، والاطاعة في كل شيء ، والاخلاص ، وابتغاء رضا الله وهو المقصود الأصلي من التصوف والأذكار والمجاهدات ، وصحبة الشيخ والبيعة نفسها ، فإن لم يحصل هذا المقصود فكل شيء مرفوض (اهـ) .

ان ما ذكره الشيخ أبو الحسن عن التصوف حق وعدل وقد ذكر ذلك كثير من الأكابر أنه لا ينكر أحد هذه المسميات وإنما الخلاف فقط في التسمية ، فإن بعض الناس ينزعجون من اسم « التصوف » بعضهم للجهل وبعضهم قد رسخ في فكره للتصوف مفهوماً خاطئاً بسبب عوارض متنوعة .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية في الجزء الحادى عشر من فتاواه وهذا الجزء بكامله في التصوف يقول رحمه الله وقد سئل عن الصوفية وانهم أقسام فما صفة كل قسم وما يجب عليه ويستحب له أن يسلكه ؟ فأجاب : الحمد لله . أما لفظ « الصوفية » فانه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة ، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك ، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من

الأئمة والشيوخ : كالامام أحمد بن حنبل وأبى سليمان الداراني وغيرهما .
وقد روى عن سفيان الثوري أنه تكلم به وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن
البصري ، وتنازعوا في المعنى الذي أضيف اليه الصوفي « ثم نقل في ذلك
عدة أقوال وقال بعدها : « وقيل — وهو المعروف — أنه نسبة الى لبس
الصوف ، فانه أول ما ظهر الصوفية من البصرة وأول من بنى دويرة
الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وعبد الواحد من أصحاب
الحسن ، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو
ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار ، ولهذا كان يقال : فقه كوفي
وعبادة بصرية .. ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة في هذا الباب انما هو
عن عباد أهل البصرة مثل حكاية من مات أو غشى عليه في سماع القرآن
ونحوه ، كقصة زرارة بن أوفى قاضى البصرة فانه قرأ في صلاة الفجر
(فاذا نقر في الناقدور) فخر ميتا ، وكقصة أبى جهير الأعمى الذى قرأ عليه
صالح المرى فمات ، وكذلك غيره ممن روى أنهم ماتوا باستماع قراءته ،
وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن ولم يكن في الصحابة من
هذا حاله فلما ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين ..
والمنكرون لهم مأخذان : منهم من ظن ذلك تكلفا وتصنعا .. ومنهم من
أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفا لما عرف من هدى الصحابة كما نقل عن
أسماء وابنها عبد الله .

والذى عليه جمهور العلماء أن الواحد من هؤلاء اذا كان مغلوبا عليه
لم ينكر عليه ، وان حال الثابت أكمل منه ، ولهذا لما سئل الامام أحمد
عن هذا ، فقال : قرىء القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشى عليه
ولو قدر أحد أن يرفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد فما رأيت أعقل
منه ، ونحو هذا . وقد نقل عن الشافعى أنه أصابه ذلك ، وعلى بن الفضيل
ابن عياض قصته مشهورة ، وبالجمله فهذا كثير ممن لا يستراب في صدقه ،
لكن الأحوال التى كانت في الصحابة هى المذكورة في القرآن وهى وجل
القلوب ودموع العين واقشعرار الجلود ، ثم ذكر الآيات الدالة على ذلك
وقال : وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها والجفاء

عن الدين ما هو مذموم ، وقد فعلوا ، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها ، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم .

بل المراتب ثلاث :

أحدها : حال الظالم لنفسه الذي هو قاسى القلب لا يلين للسمع والذكر ، وهؤلاء فيهم شبه من اليهود - قال الله تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) الآية ..

والثانية : حال المؤمن التقى الذي فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه ، فهذا الذي يصعق صعق موت أو صعق غشى ، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله وقد يوجد مثل هذا في من يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أمورا دنيوية ، يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب عقله ، ومن عباد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جننه وكذلك في غيره ، ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التي تمرضه أو تقتله ، أو كان أحدهم مغلوبا على ذلك .

فاذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان لم يكن فيه ذنب فيما أصابه فلا وجه للريبة كمن سمع القرآن السماع الشرعى ولم يفريط بترك ما يوجب له ذلك ، وكذلك ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفناء ونحو ذلك من الأمور التي تغيب العقل بغير اختيار صاحبها ، فانه اذا لم يكن السبب محظورا لم يكن السكران مذموما بل معذورا .. فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشى أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك اذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقا عاجزا عن دفعها كان محمودا على ما فعله من الخير وما ناله من الايمان معذورا فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص ايمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله .

ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الايمان ما حصل لهم

أو مثله أو أكمل منه فهو أفضل منهم ، وهذه حال الصحابة رضى الله عنهم وهو حال نبينا صلى الله عليه وسلم فانه أسرى به الى السماء وأراه الله ما أراه وأصبح كبأئت لم يتغير عليه حاله ، فحاله أفضل من حال موسى صلى الله عليه وسلم الذى خر صعقا لما تجلى ربه للجبل وحال موسى حال جليلة عليه فاضلة ، لكن حال محمد صلى الله عليه وسلم أكمل وأعلى وأفضل .

واذا عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد كما كان فى الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ماله فيه اجتهاد ، وهؤلاء نسبوا الى اللبسة الظاهرة وهى لباس الصوف فقيل فى أحدهم : « صوفى » وليس طريقهم مقيدا بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به ، لكن أضيفوا اليه لكونه ظاهر الحال .

ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا فى حدوده وسيرته وأخلاقه كقول بعضهم : الصوفى من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر واستوى عنده الذهب والحجر ، والتصوف كتمان المعانى وترك الدعاوى وأشباه ذلك . وهم يسيرون بالصوفى الى معنى الصديق ، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون . .

فهذا أصل التصوف ، ثم انه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف :

١ - صوفية الحقائق .

٢ - صوفية الارزاق .

٣ - صوفية الرسم .

فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم .

وأما صوفية الأرزاق : فهم الذين وقفت عليهم الوقوف ، كالخوانك فلا يشترط فى هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق ، فان هذا عزيز ، وأكثر

أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك ، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط :

أحدها : العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم .
والثاني : التأدب بآداب أهل الطريق ، وهى الآداب الشرعية فى غالب الأوقات ، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها .

والثالث : أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا ، فأما من كان جماعا للمال أو كان غير متخلق بالأخلاق الحمودة ولا يتأدب بالآداب الشرعية أو كان فاسقا فانه لا يستحق ذلك .

وأما صوفية الرسم : فهم المقتصرون على النسبة فهمهم فى اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك فهؤلاء فى الصوفية بمنزلة الذى يقتصر على زى أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم « انتهى » .

ونقل العارف الكبير الشيخ شهاب الدين السهروردى فى كتابه عوارف المعارف بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل شىء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصبر ، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة « فالفقر كائن فى ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه » .

قال رويم : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والايثار ، وترك التعرض والاختيار .

وقال الجنيد - وقد سئل عن التصوف فقال - أن تكون مع الله بلا علاقة . وقال معروف الكرخى : التصوف : الأخذ بالحقائق ، واليأس من أىدى الخلائق ، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : لقد أدركت سبعين بدرىا كان لباسهم الصوف .

الأشغال والأحوال

أكبر شيء في الأشغال : ذكر الله - وأهم شيء في الأذكار كلها هو « لا اله الا الله » لذلك يهتم في جميع طرق الصوفية بالذكر بهذه الكلمة الشريفة وان اختلفت الهيئة والطريقة في الذكر عند أحدهم عن الآخر كما أنه يوجد باستمرار الاختلاف في محتويات الأدوية وتركيباتها عند الأطباء ، وقد مر على أن وجدت شيئا عجيبا جدا عند الأطباء وهو « أن أحد المرضى كتب له طبيب وصفة ما فلم يستفد منها فذهب الى طبيب آخر فأبقى نفس الوصفة انما غير فقط في موازين وكميات بعض أجزائها فأختار جدا عندما أرى أن الدواء نفسه فقط تغيرت هيئته التركيبية في بعض أجزائها وتغير الأثر فور استعماله اياه . وقد شاهدت هذا مرارا .

في (تذكرة الرشيد) حرر القطب الامام الكنيكوهي نور الله مرقدہ للشيخ التهانوي نور الله مرقدہ ردا على إحدى رسائله : ان قيود وتخصيصات أشغال المشايخ الموجودة ليست بدعة أصلا - وجعلها مقيسا عليها يوجب الحيرة الشديدة (كان الشيخ التهانوي في رسالته قد قاس تخصيصات الاحتفال بالسولد على تخصيصات وقيود اشغال المشايخ) وخاصة من شخص عاقل زكى مثلك - لأن تحصيل النسبة والتوجه الى الله تعالى مأمور به من عند الله عز وجل مع أن هذا كلى مشكك اذ أن أدناه فرض وأعلاه مندوب وقد ثبت بمئات الآيات والأحاديث أنه مأمور به ، وقد بينه صلى الله عليه وسلم بل الرب جل وعلا بعبارات وطرق وأساليب شتى - وكأن الشريعة كلها اجمالها ما هي الا هذا ولا نستطيع البسط فيه لطوله - ان تمعنت جيدا ظهر لك أن كل آية وكل حديث ثبت منه ذلك - فالشيء الذي ثبت لهذه الدرجة انه مأمور به فكل طريقة تختار للحصول عليه تكون مأمور بها أيضا وفي كل زمن ووقت بعضه يكون مؤكدا وبعضه غير مؤكد - لذلك ففى زمن كان الصوم والصلاة وتلاوة القرآن

والاذكار الماثورة في الأحاديث كافية وافية لحصول هذا المأمور به في ذاك الزمن هذه الاشغال بقيودها وهيئاتها الخاصة وان كانت جائزة ولكن لم تكن الحاجة اليها ، ثم بعد عدة طبقات عندما تغير لون النسبة الى جهة أخرى وطبائع أهل هذه الطبقة تغيرت وتبدلت بسبب بعدها عن القرون المشهود لها بالخير وكانت هذه الاوراد المذكورة يمكن بها وحدها الحصول على النسبة ولكن بصعوبة ومشقة شديدة لذلك أضاف اليها الاطباء الباطنيون بعض القيود وزادوا ونقصوا في الأذكار فكأن الحصول على المقصود توقف على هذه القيود لذلك فلا يكون هذا الايجاد بدعة . بل وان قال أحد انه ضروري ولازم فهو حق لأن حصول المقصود بدونه صعب - وهذا المقصود مأمور به شرعا والحصول عليه ضروري وواجب فاذن القيود أيضا صارت مأمور بها لا بدعة - ثم بعد ذلك الطبقة التي بعدها تغير لونها أيضا واحتاج هناك أيضا الى التجديد في هذه القيودات وثم وثم وهكذا - كما أن الطبيب في الشتاء يعالج بطريقة ما ولكن هذه الطريقة نفسها لا تجدى في العلاج صيفا بل انها أحيانا تسبب الضرر وتزيد في المرض وباعتبار اختلاف الأزمنة تبدل تدابير العلاج الأولى الى تدابير جديدة فمثلا المعالجات التي كانت موجودة في ديارنا قبل مائة سنة من الآن وما هو محرر في كتب السابقين من الأطباء الموجودين حينئذ كل ذلك ليس بكاف للعلاج في يومنا هذا بتاتا فالاتيان ببدلها موافق للقواعد الأصلية في الطب وان كان مخالفا للعلاج الجزئي - فلا يقال لهذا انه اختراع جديد بل يقرر انه مطابق لأصل الأصول .

والنظير الثاني هو اعلاء كلمة الله أي الجهاد - تأمل جيدا أنه في الطبقة الأولى كانت تكفى السيوف والرماح والسهام بل والحجارة - كما تعلمون ذلك من الأحاديث - وفي زماننا استعمال هذه الأشياء أحيانا يضر ويجب وجوبا اعداد البنادق والقنابل والأسلحة الحديثة لأن تحقيق اعلاء كلمة الله بدون هذه الأشياء أصبح محالا لذلك لا يمكن ان يقول أحد لهذه الأشياء أنها بدعة ولا أنها تشبه بالكفار فتحرم ، بل يجب أن يقال : انها فرض وواجب ومأمور بها ، لأن الحصول على المقصود أصبح

وكأنه موقوف عليها فصارت هذه الأشياء أيضا مأمور بها وعلى هذا القياس حال الاشغال أيضا ، فقط اهـ . وأهم شيء في الاذكار الكلمة الطيبة وقد روى عن أبي سعيد الخدري رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال موسى عليه السلام يارب علمنى شيئا أذكرك به أو أدعوك به فقال يا موسى قل لا اله الا الله فقال : يارب كل عبادك يقول هذا انما أريد شيئا تخصنى به ، قال : يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع وضعن فى كفة ولا اله الا الله فى كفة لمالت بهن لا اله الا الله » رواه فى شرح السنة كذا فى المشكاة .

وقد ذكرت فى رسالة « فضائل الذكر » لهذا المقصر عدة روايات عن فضائل « لا اله الا الله » وأهميتها من جملتها عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أفضل الذكر لا اله الا الله يقول العلامة ملا على قارى رحمه الله لاشك أن أفضل الأذكار وأعظمها « لا اله الا الله » وبسط فى بيان فضائلها وذكر الحديث أن الصحابة رضى الله عنهم سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم : كيف نجدد ايماننا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أكثرُوا من قول لا اله الا الله اهـ .

قلت : ان مشايخ السلوك والأطباء الروحانيون يعلمون طريقة الذكر بهذه الكلمة لمرضى متنوعين بطرق متنوعة — عند المشايخ الجشتية ذكر « الاثنا عشر سبحة » شهير جدا ففيه أولا مائتين مرة : (لا اله الا الله) وأربعمائة مرة : (الا الله) ثم ستمائة مرة (الله الله) ثم فى نهايتها مائة مرة فقط (الله) يقول الشيخ التهانوى رحمه الله فى الكشف :

ان اعتراض بعضهم على ذكر (الا الله) فقط بأن المستثنى بدون المستثنى منه وبدون العامل تكون العبارة لا معنى لها فمثل هذا الذكر الذى لا معنى له : لا يعتبر ذكرا ولا يكون عليه أجر ، فيكون عبثا فلم اختير اذن — أقول أنه حينما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى فتح مكة لا يعضد شجرها قال العباس رضى الله عنه « الا الا ذخىر يا رسول الله » فقال صلى الله عليه وسلم « الا الا ذخىر » علم منه جواز حذف العامل والمستثنى منه عند قيام القرينة — فكذلك فى قول (الا الله)

القرينة موجودة فقد وجد قبلها الذكر « بلا اله الا الله » أو بقرينة عقيدة
الذاكر حذف المستثنى منه فما الحرج - ويمكن توجيه آخر وهو أنه
ما ذكر قبلها من قول (لا اله الا الله) أتينا منها مكررا بقول (الا الله)
فقط فيكون المراد في كل مرة نفس العامل والمستثنى منه السابق ، والتكرار
الذي هو للتأكيد ليس هناك دليل على تحديده فبقدر ما يكون الاهتمام
بقدره يكون التكرار مستحسنا وبمقتضى المقام فقد ورد في بعض الروايات
عن بعض العبارات أنه صلى الله عليه وسلم (مازال يكررها حتى وددنا أنه
سكت أو نحوه) •

ونظائر ذلك موجودة بكثرة في الأحاديث الشريفة ففي قصة قتل
اسامة رضى الله عنه الشخص الذى ظنه منافقا قوله صلى الله عليه وسلم
« كيف تصنع بلا اله الا الله اذا جاءت يوم القيامة ، قاله مرارا » رواه
مسلم • وفي المشكاة فى كتاب الجهاد قال صلى الله عليه وآله وسلم :
وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجة كما بين
السماء والأرض ، قال : وما هى يا رسول الله ، قال : الجهاد فى سبيل الله
الجهاد فى سبيل الله الجهاد فى سبيل الله » رواه مسلم •

وهكذا مئات الأحاديث موجودة فى كتب الحديث لا تخفى على
دارسى الحديث حيث كرر فيها اللفظ الواحد مرارا كثيرة •

وهكذا يعترض البعض على ذكر لفظ الجلالة فقط (الله الله) فان
قول الله • • الله فقط لفظ مفرد فانه لا يفيد معنى خبريا ولا معنى
انشائيا فما الفائدة من هذا الذكر الذى ليس له أى معنى ؟ قلت
ولكن فى الحديث بنفس هذا الافراد بين لنا أن الاسم الشريف هكذا
معقول كما فى رواية مسلم (لا تقوم القيامة ورجل يقول الله الله) فعلم
منه أنه حتى تكراره مشروعا ، والمعنى لا ينحصر فى الخبر والانشاء فقط
فان قصد منه فقط التبرك والاستحضار فكيف يكون بلا معنى وبدون
فائدة ، فان قوله تعالى « واذكر اسم ربك » بظاهر لفظه يعم ذكر الاسم
محضا أيضا - وكذلك يمكن توجيه أيضا بأن حرف النداء محذوف

وحذف النداء شائع ومشهور - فهذا النداء بسبب الشوق والتلذذ بالاسم
(الكشف ص ٧٠٢) •

وقال الشيخ التهانوي في « البوادر » (ان القول المحقق في هذا الباب
والبعيد عن التكلف هو بأنه كما أن في قراءة القرآن أحيانا يكون المقصود:
التلاوة وحينئذ يشترط أن يكون طريقه منقولاً • واختيار غير المنقول
بدعة ، وأحيانا يكون المقصود من قراءة القرآن فقط استحضاره في الذهن
ورسوخ حفظه في هذا الحال لا يلزم اتباع المنقول - فمثلا شخص يكرر
كلمة مفردة لوحدها مرات ويحفظها هكذا وشخص آخر يكرر جملة
جملة وشخص ثالث يكرر آية آية كل ذلك جائز - لا حاجة الى أن نبحث
أنه كيف كان السلف طريقهم في هذا الشأن - هكذا في عبارة الذكر أيضا
أحيانا يكون الذكر بنفسه مقصودا بذاته فهذا يشترط فيه أن تكون الهيئة
منقولة وأحيانا يكون المقصود فقط استحضار مطلوب خاص ورسوخ ماله
علاقة بهذه العبارة ففي هذه الحال لا يشترط أن تكون هيئة الطريقة منقولة
- فهنا أيضا في (الا الله) ولفظ الجلالة (الله) ليس المقصود بالتكرار
المعتاد الذكر بذاته بل المقصود استحضار مطلوب خاص والمطلوب الخاص
هو الترقى التدريجي في الفناء العلمى عن غير الله وفي التوجه الى الله عز
وجل - ففي البداية تكون كثرة المشهودات لذلك ففي هذا المشهود
(بلا اله الا الله) ورسوخه - وبتكراره عندما حصل له نوعا من الفوز في
مقصوده أى (تفى المشهود) فلرسوخ ثبوت الذات العلية محضا في الذهن
جاء التكرار بـ (الا الله) ثم الثبوت أيضا كانت نسبة حكمية لرفع النظر
عنها أيضا ولرسوخ تصور الذات فقط في الذهن جاء التكرار باسم الجلالة
(الله) وحده فقط وبمزاولته يحصل له عدم الالتفات الى غير المطلوب
والالتفات الخاص الى الحضرة الالهية المطلوبة بل وبعد الرسوخ فيه وأداء
حق الذكر الكامل يصل تدريجيا الى المقصود - وبفضله تعالى رفعت
جميع الاشكالات بهذا التقرير وثبت أن القول ببدعيته نشأ من قلة التدبر

فيه والحمد لله على ما ألقى وأفهم ولقن وألهم - وبقي الآن فقط سؤال واحد وهو أن بالذكر بهذه الطريقة هل يحصل على الثواب والأجر؟ - وللرد عليه نسأل بأنه هل الشخص الذي يكرر من القرآن الكريم كلمة كلمة لحفظ القرآن هل لا يثاب هذا بحفظه بهذه الطريقة؟ فما كان جواب هذا يكون جواب ذلك - وبالنظر على القواعد هناك جواب مشترك لكليهما وهو أنه وإن لم يحصل على ثواب التلاوة والذكر - فإنه سيحصل على ثواب السعي والاعداد للتلاوة الكاملة وذاك على ثواب السعي والاعداد للذكر الكامل ، فقط .

ملاحظة الأنفاس

(وهو مشهور عندهم بقولهم « باس انفاس » ومعناه هكذا) ملاحظة (الانفاس) وهو أيضا من الاشغال المهمة عند مشايخ السلوك فانه يذكر الله فيه من طريق التنفس وله طرق مختلفة - معروفة عند المشايخ فالعمل يكون على الطريقة التي يعينها الشيخ لمريده - وانما العامل المشترك بين الجميع هو أن يذكر الله في كل نفس فلا يذهب أى نفس يتنفس به الانسان بدون ذكر الله - وقد شدد مشايخ السلوك في تعليماتهم عليه •

قال الامام الشاه ولي الله الدهلوى في القول الجميل : قال الأكابر وهذا « باس انفاس » وله أثر عظيم في تقي الخواطر وزوال حديث النفس اه وقال مترجمه قال العارف بالفارسي شعرا ترجمته « انك ان اهتمت بباس انفاس أوصلك الى الملك العلام » •

وفي « ضياء القلوب » : ان الانسان يجب عليه أن يكون يقظا ومنتبها عند كل نفس وبدون (باس انفاس) لا يمكن أن يصفى ويتطهر قلب الانسان من الظلمات والادران - لأن هذا الذكر يطهر القلب ويصفيه من الظلمات ويجعله مهبطا للأنوار الالهية - لذلك يقال له في اصطلاح الصوفية « جاروب القلب » •

يقول شيخ الاسلام المدنى نور الله مرقدہ في مكاتيبه رقم ١٧ ج ٣ ص ٩٣ :

الغرض الأصلي من (باس انفاس) بأن لا يخلو أى نفس للمرء عن ذكر الله لا النفس الداخل ولا الخارج - الانسان في اليوم والليلة الواحدة يتنفس ما يقرب من خمس وعشرين ألف مرة (وفي ارشاد المرشد

ذكر ٢٤٠٠٠ مرة) كل نفس من هذه ينبغي أن يكون معمورا بذكر الله
« فما يمضى من العمر في الذكر فهو الحياة وهو المفيد النافع ، في الحديث
في « باب صفة الجنة وأهلها » في الحديث الطويل بعد ذكر صفات أهل
الجنة يذكر أنهم « يلهمون التسييح والتحميد كما تلهمون النفس » ..
رواه مسلم ، قال المحشى عن المرقاة : أى أنهم لا يتعبون من التسييح
والتحميد كما لا تتعبون من النفس ولا يشغلهم شيء من ذلك كما
لا يمنعونكم من النفس كالملائكة ، أو يريد أنها تصير صفة لازمة لا ينفكون
عنها كالنفس اللازم للحيوان » اهـ .

تصور الشيخ

ويقال له أيضا شغل « الرابطة » و « البرزخ » و « الواسطة » (كذا في تعليم الدين) وهو عند مشايخ السلوك من الاشغال الهامة جدا . وقد ذكر المشايخ له فوائد كثيرة - وقال بعض الأكابر عنه أنه لا يجوز مطلقا - وهذا عند هذا العبد غير صحيح . لأن تصور الشيخ يستفاد من أحاديث كثيرة ، لذلك فالذين لا يجوزونه مطلقا لا أدري عنهم ولم أفهم ذاك تقول عائشة رضى الله عنها في تطيب المحرم « كأنى أنظر الى ويص الطيب في مفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم » الخ الحديث .

وفي رواية ابن مسعود وقد ذكرها البخارى ومسلم يقول : « كأنى أنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى قصة نبي من الأنبياء ضربه قومه ، الخ الحديث .

وفي أبى داود فى « باب ما جاء فى خاتم الحديد » حديث على رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل اللهم اهدنى وسددنى واذكر بالهداية هداية الطريق واذكر بالسداد تسديدك السهم » الحديث ، يقول سيدى ومرشدى الشيخ خليل أحمد المحدث السهارنبورى فى شرحه البديع بذل المجهود فى ذيله « أى واذكر بالهداية فى قلبك هداية الطريق كما أن الطريق يسلك فى وسطها ولا يميل السالك الى اليمين والشمال ، ولو مال لم يبلغ المقصود ، كذلك تذكر بالهداية أن بلوغ المقصود موقوف على الاستقامة فيه ، وكذا واذكر بالسداد تسديدك السهم أى استواءه واستقامته فكذلك يسددنى الله سبحانه ويقيمنى بأن لا يبقى فى اعوجاج كما لا يكون فى السهم » .

وكتب مولانا محمد يحيى المرحوم ، من تقرير شيخه رضى الله عنه قوله : واذكر بالهداية هداية الطريق ، انما أمره بذلك ليكون أجمع لوساوس القلب وأيضا قال الفكر فى المحسوسات أجرى منه فى المعقولات

ففيه أن يتصور عند دعائه هداية الطريق وسداد السهم لئلا يخطر بباله غيرهما فما هو دونهما في حصول هذين المطلوبين ، وفيه إشارة الى جواز تصور الشيخ ، فإن الشيخ ليس أقل مرتبة عند الله من السهم والطريق لاسيما عند معتقديه ، كيف وفيه جمع للخواطر ولو الى جهة أسفل من التي يجب ارجاعها اليها وهو الواجب تعالى شأنه ، ولا ضير أيضا في حبه اياه عند التصور ، نعم يضره أن يتصور شيخه متصرفا في أمر باطنه حين التصور أو حاضرا لديه أو عالما بحاله ، ولذلك اختلف فيه الشيوخ ولعل النزاع بينهما لفظي فمن جوزه أراد الأول ومن منعه أراد الثاني — الا أن العلماء لما رأوا أنه منجر الى فساد عقائد العلوم أطلقوا فيه المنع ، وهو الحق حسب اقتضاء المقام . اهـ .

وفي كتب الحديث روايات كثيرة بهذا المعنى — ففي حياة الصحابة في باب حقيقة الايمان : عن أنس رضى الله عنه قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كيف أصبحت يا حارث بن مالك ؟ قال أصبحت يا رسول الله مؤمنا حقا ، قال : ان لكل حق حقيقة فما حقيقة ما تقول ؟ قال : عزفت عن الدنيا وأظلمات نهاري وأسهرت ليلي وكأني أنظر الى عرش ربي وكأني أنظر الى أهل الجنة فيها يتزاورون والى أهل النار يتعاونون فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنت امرؤ نور الله قلبك عرفت فالزم » أخرجه ابن عساكر والعسكري في الأمثال نحوه وأخرجه ابن المبارك في الزهد نحو سياقه .

وأخرج أبو نعيم في الحلية ج ١ ص ٢٤٢ عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن معاذ بن جبل رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كيف أصبحت يا معاذ ؟ قال : أصبحت مؤمنا بالله تعالى ، قال : ان لكل قول مصداقا ولكل حق حقيقة فما مصداق ما تقول ؟ قال : يا نبي الله ما أصبحت صباحا قط الا ظننت أني لا أمسى وما أمسيت مساء قط الا ظننت أني لا أصبح — ولا خطوات خطوة الا ظننت أني لا أتبعها أخرى وكأني أنظر الى كل أمة جاثية تدعى الى كتابها معها نبيها وأوثانها

التي كانت تعبد من دون الله ، وكأني أنظر الى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة ، قال : عرفت فالزم » اهـ •

وفي الشمائل للترمذي عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه حلة حمراء كأني أنظر الى بريق ساقيه ، قال سفيان أراها حبرة • قال الهيثمي ورجاله ثقات ، كذا في حاشية الباجوري على الشمائل •

وكذلك رواية أنس رضي الله عنه قال لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب الى العجم قيل له : « ان العجم لا يقبلون الا كتابا عليه خاتم ، فاصطنع خاتما ، فكأني أنظر الى يياضه في كفه » أخرجه الترمذي في الشمائل •

وهكذا مئات الروايات عن التصور موجودة في كتب الحديث — لذلك يصعب جدا أن نقول أن تصور الشيخ لا يجوز مطلقا — الا أنه ان أفضى هذا التصور الى أمر غير مشروع فيقرر حينذاك أنه ممنوع حتما — والا فانه لدفع الخطرات (الخواطر) وبالنسبة للمبتلين في العشق المجازي يعتبر تصور الشيخ : الاكسير الأعظم •

قال الشيخ التهانوي في « تعليم الدين » : ذكر في كتب الفن أنه بتصور صورة الشيخ وكمالاته بكثرة تتولد محبته وتقوى النسبة « الباطنية » وبقوة النسبة تتحصل بركات متنوعة — وبعض المحققين ذكر لتصور الشيخ فائدة واحدة فقط وهي أن أحد الخيالات يكون دافعا لخيال آخر فتحصل منه السكينة وترفع به الخطرات •

وعلى كل مهما كانت فيه فوائد وحكم فالراقم (الشيخ التهانوي) تجربته : أن هذا الشغل مفيد للخاصة ومضر جدا للعامة اذ يبلغ بهم الى درجة عبادة الصور — وقد منع الامام الغزالي وغيره من المحققين تلقين العامة والأغبياء الأشغال المؤدية الى الكشف ونحوه • لذلك يجب أن يبعد العامة عن هذا الشغل — والخاصة اذا عملته فبالاحتياط وفي حدوده — فلا يظنوا أن الشيخ حاضر وناظر ومعين لهم ومساعد في الأحوال ، لأنه

بكثرة التصور أحيانا تحضر الصورة المثالية أمام الشخص - ويكون ذلك أحيانا تصور محض - وأحيانا تكون لطيفة غيبية تمثلت بهذا الشكل - وأغلب الأحيان يحدث هذا والشيخ لا علم له أصلا بما يحدث . وفي هذا المقام عادة يخطئ الجهلة كثيرا . انتهى ، ويقول شيخ الاسلام المدنى نور الله مرقده في مكاتيبه ص ٣٤ / ١ رقم ١١ « ان تصور الشيخ يحفظ من الوسوسة والخيالات المضطربة ويتولد من تصور الشيخ كفيات عجيبة جدا والشيخ لا يكون له علم بكل ذلك ولا يريد حتى تعليم المريد أو تفهيمه ولا يتوجه اليه وإنما هي مؤثرات فطرية جعلها الله تعالى ذريعة للحفظ من الوسوس الشيطانية وسببا لنزول البركات الربانية - ولكن بما أن عامة الناس تتخبط أقدامهم في هذا السبيل لذلك عمل حكماء الأمة في هذا الأمر بالاحتياط والا فهو شرعا جائز ويظهر ثبوته من الروايات . ا هـ .

في مكتوب للشيخ المدنى أيضا ج ١ ص ١٦٠ رقم ٤٥١ : « ان الشاه اسماعيل الشهيد نهى عن شغل البرزخ سدا للذريعة ولكن بلغتني رواية عن الشيخ الشاه عبد الغنى المجددى رحمه الله أنه كان لا ينهى عنه سآله بعضهم عن جوازهم فقدم لهم ألفاظ رواية الامام الحسن رضى الله عنه مستدلا بها على الجواز حيث يروى الحسن رضى الله عنه عن خاله هند بن أبى هالة الذى كان يسأله عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيها الحسن معللا سؤاله خاله عن ذلك بقوله « أتعلق به » ويظهر منه واضحا أن حفظ صورته ومثاله صلى الله عليه وسلم في الذهن مقصود - وهذا هو شغل البرزخ ا هـ .

قلت وهذا الحديث موجود مفصلا في شمائل الترمذى وقد ترجمه بالاردية هذا المقصر وقلت هناك في فوائد هذا الحديث الشريف : أحببت أن ينقل لى من هذه الأوصاف الجميلة حتى أجعل بيانه حجة وسندا فاجتهد في ترسيخ هذه الأوصاف الجميلة في ذهنى وفكرى والتحلى بها بقدر الامكان . ا هـ .

ويقول الشيخ المدنى في مكتوب آخر رقم ٨٤ / ٤ « وحصول صورته ما

ورسوخها في الذهن يقال له لغة « التصور » سواء كانت هذه الصورة ذات روح أو غير ذات روح وسواء كانت لشخص عادي أو شخص مهم وسواء كانت لولي أو شيخ كبير أو لأب أو أم أو غيرهم ، وسواء كان يرجى من صاحبها النفع أو لا - ولكن في العرف تصور الشيخ معناه أن يرسخ المرء في تصوره صورة أو مثال مقدس أو ولي وخاصة تثبيت ورسوخ صورة أو مثال شيخه ومرشده في تصوره يقال له « تصور الشيخ » - وتثبيت صورة المرشد أو تمثاله في الفكر والتصور جائز أصلا بالاتفاق بل انه مفيد - وقد استحبه الصحابة رضي الله عنهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم - ان سيدنا الحسن رضي الله تعالى عنه سأل خاله هند بن ابى هالة مرارا عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهيئته وغيرها لكي يتعلق به بتصوره ويثبته في ذهنه وفكره - وقد ذكر صلى الله عليه وسلم هيئات وصور الأنبياء ابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام لصحابته رضي الله عنهم وبين لهم صورهم ولباسهم وطريقة مشيهم يظهر منها واضحا أنه كان المقصود أن تثبت وترسخ صورهم وهيئاتهم في أذهان المخاطبين بصورة جيدة ، ثم ذكر الشيخ المدني عدة روايات حيث بين فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم هيئات الأنبياء وألوانهم وصورهم وطريقة مشيهم وغير ذلك من الأمور فروى عن بيانه صلى الله عليه وسلم في حق موسى عليه السلام : كأنني أنظر الى موسى فذكر من لونه وشعره شيئا واضعا أصبعيه في أذنيه له جوار الى الله بالتلبية مارا بهذا الوادي ، الحديث رواه مسلم .

ويقول (فاذا موسى عليه السلام ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبهة عروة بن مسعود ورأيت ابراهيم عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبهة صاحبكم يعني نفسه ..) الحديث رواه مسلم وذكر عدة روايات ثم قال ومثل هذه الروايات كثيرة في كتب الصحاح لا يثبت منها جواز تصور الشيخ فقط بل يظهر منها استحبابه وأولويته أيضا ويترشح منها أنه ينتج عنه نوع من الفيض والنفع الروحاني والا لم يهتم به هكذا الشارع عليه

الصلاة والسلام بل لكان منع عن ذلك - ولهذه المنافع والوجوه قرر في الزمن السابق أهل الفراسة من المتقين الصالحين العمل بتصور الشيخ وخططوا للارتفاع من هذه الاداة - كتب قطب العالم مولانا الشيخ امداد الله المكي قدس الله سره العزيز لخليفته الخاص الامام الشيخ الأجل محمد قاسم النانوتوي (في رسالة أصلها بالفارسية ما ترجمته) اذا ما سنحت الفرصة فاجلسوا بعد صلاة الفجر أو المغرب أو العشاء بانفراد في حجرة ونحوها وبعد تصفية القلب من جميع الخواطر توجهوا الى هذه الناحية وتصوروا بأنني جالس أمام شيخى والفيضان الالهى يرد من صدر الشيخ الى صدرى - فان استأنس القلب وكان الشوق والرغبة فحسن والا فانشغلوا في ذكر النفى والاثبات بجهر متوسط واستمروا في هذا الشغل مقدار ساعة أو ساعتين ، وفي رسالة أخرى للامام النانوتوي أيضا (وهذه أيضا بالفارسية ترجمتها) ان وجد فراغ بعد الفجر أو المغرب فراقبوا لحظة أو لحظتين وتصوروا انى جالس بين يدي مرشدى ويرد شئ من قلب المرشد الى قلبى ، ان شاء الله سيكون التوجه من هنا (الشيخ القطب امداد الله قدس روحه) الى جانبكم أيضا وان شمل الحال الفضل الالهى سيكون بذاك تقع واطمئنوا .

يقول الشيخ الامام الشاه ولي الله الدهلوى في القول الجميل : قالوا « أى المشايخ » : والركن الأعظم ربط القلب بالشيخ على وصف المحبة والتعظيم وملاحظة صورته ، قلت : ان لله تعالى مظاهر كثيرة فما من عابد غيبا كان أو ذكيا الا وقد ظهر بحذائه صار معبودا له في مرتبته ، ولهذا السر نزل الشرع باستقبال القيلة والاستواء على العرش ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صلى أحدكم فلا يبصق قبل وجهه فان الله تعالى بينه وبين قبلته ، وسأل جارية سوداء فقال : أين الله ؟ فأشارت الى السماء ، فسألها من أنا ؟ فأشارت بأصبعها تعنى الله أرسلك ، فقال : هى مؤمنة « فلا عليك أن لا تتوجه الا الى الله ولا تربط قلبك الا به ولو بالتوجه الى العرش وتصور النور الذى وضعه عليه وهو أزهر اللون كمثل

لون القمر أو بالتوجه الى القبلة كما أشار اليه النبي صلى الله عليه وسلم
فيكون كالمراقبة بهذا الحديث . ا هـ .

ثم بعد كلام طويل يقول الشيخ المدني نور الله مرقده
« هذه الطريقة (تصور الشيخ كانت دائمة باستمرار من عهد السلف
الصالح مثمرة للنتائج القوية النافعة ولكن المتأخرين أفرطوا واغلووا فيه
وأضافوا فيه أشياء كانت مضرّة ومبعدة عن الصراط المستقيم ، ثم نقل
الشيخ المدني ثلاثة أو أربعة فتاوى من الفتاوى الرشيدية وعدة رسائل
للشيخ النانوتوى وقال بعدها « الخلاصة : ان ابعاد الوسوس والخطرات
وجمع الخواطر والأفكار وتقوية الهمة في العبادات أمر بينت الشريعة أهميته
ورغبت فيه بحيث لا يحتاج الى بيان وبما أن تأثير تصور الشيخ في
الحصول على هذا الأمر قوى ومفيد جدا لذا فان التجربة والنصوص
حرضت أكابر الأمة من المشايخ لاجراء هذه الطريقة « تصور الشيخ »
وتحصلت الأمة بذلك على فوائد جمة ولكن بما أن جهلة المتأخرين الخاطئين
أضافوا اليها بعض المحظورات والمنوعات الشرعية مثل اعتقاد أن الشيخ
« نعوذ بالله » يكون حاضرا وناظرا مع المريد في كل مكان ، وكأن ينهمك
في تصوره والتوجه الى الشيخ الى درجة أن يغفل ويستغنى عن المقصود
والمحبوب الحقيقي جل وعلا وكأن يجعل الشيخ « نعوذ بالله » مثل الكعبة
في كل صلاة يستقبله ويتوجه اليه وكأعتقاد أن الشيخ يتصرف في باطن
المريد وتعظيم الشيخ أو صورته هذه فوق الحدود وكعبادة هذه الصور
على حقيقتها وظاهرها ، تروج عند بعض الحمقى والجهلة والزنادقة
عافانا الله لذا وجب على العقلاء من أكابر المشايخ أن يفكروا في هذا الأمر
ويقلعوا ذريعة الكفر والشرك والضلال من أصلها فشددوا لذلك ومنعوا
لهذه العلة .

وعلى كل حال فهذا الأمر « تصور الشيخ » ليس بممنوع مطلقا ولا
واجب مطلقا ويجب التفكير والخوض في العمق عند الافتاء بشأنه والعمل
به والله أعلم .

نك اسلاف - حسين أحمد غفر له ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٥٧ م .

وفي الأرواح الثلاثة ذكر بذيل أحوال السيد أحمد الرائي بريلوى الشهيد نور الله مرقدہ أنه عندما كان السيد الرائي بريلوى فى حضرة شيخه الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوى علمه الشيخ شغل الرابطة هذا فاعتذر الشيخ أحمد عن هذا الشغل فأئشء حينئذ الشيخ عبد العزيز شعرا بالفارسية مراده :

(لو أمر الشيخ الكامل مريده بالصلاة على سجادة مغموسة فى الخمر فعليه أن يتأمر لأمره فان السالك يجهل معالم الطريق واسرار السبيل الموصل للمقصود) فرد عليه السيد أحمد : يا سيدى مرنى بأى معصية أطيعك فيها وأما هذا فانه ليس معصية وانما هو شرك ولا أطيقه . وعندما سمع منه هذا الشيخ عبد العزيز الدهلوى أخذه وضمه الى صدره وقال : حسنا سنأخذك عن طريق النبوة فانه لا مناسبة لك بطريق الولاية .

وبمناسبة هذا الشعر المذكور بأعلاه ذكرت قصة فى « مذكراتى » قد سمعتها من أكابرى فان ترجمة الشعر هى : أصبغ السجادة بصباغة الخمر اذا أمرك المرشد الكامل بذاك فان السالك يكون جاهلا بمنازل الطريق .

والقصة هى أن الشيخ عبد العزيز الدهلوى سأله أحد تلامذته عن المراد بهذا الشعر فقال له الشيخ : وأنت ما علاقتك بهذا الشعر انشغل فى علومك وتعلمك - ولكنه أصر ، فأعطاء الشيخ من عنده عشر رويات وقال له اذهب الى المكان الفلانى « مكان توجد فيه النساء البغاة » واسأل الدلال ان كانت لديه أية فتاة وتمتع بها - فحار المسكين واستغرب وتفكر فى الأمر ولكن بما أنه كان قد استفسر بنفسه عن الشعر وأصر على فهم المراد لذا لم يجد بدا من الذهاب الى المكان المذكور وقصد المسئول هناك فأخبره أنه قد وردت حالا اليهم بنت جميلة وهى فى الغرفة الفلانية سألتهم معها وأرجع اليك ثم ذهب اليها وبعد موافقتها أتى وأخبره بأن يحضر بالليل فالبنت جاهزة - وعندما وصل هذا بالليل ودخل الغرفة

وجد بنتا مغطى عليها واضعة رأسها بين فخذيهما وتبكي فاحتار واستغرب ما يفعل ثم توجه اليها وقال لها انه لم يجبرها ولم يستكرها وانما اتى اليها بعد رضاها وموافقتها فلم تبكي ؟ ولكن زاد بكاءها أكثر وصارت تجهض بالبكاء فتورط المسكين ولم يدر ما يفعل وبعد مدة من الزمن أخبرته المرأة الملفوفة في نفسها وهي تبكي وقالت أنا مظلومة وبائسة ومنكوبة - اصابني الجوع منذ أيام طويلة وأنا دائرة هائمة على وجهي هنا وهناك أبحث عن زوجي الضائع الذي تركني وغادر البيت منذ شهور لا أدري أين هو تقول هذا وهي تكاد تصرخ من البكاء المرير فسألها عن اسم زوجها وبلده وعندما بينت اتضح أن الزوج الضائع كان هو هذا التلميذ نفسه وعندئذ بكى هذا أيضا وقال لها ارفعى رأسك وأرنى وجهك فرفعت رأسها وعرف كل منهما الآخر - انه كان قد اشتاق للعلم وهرب من البيت في حب العلم ، وأقام معها تلك الليلة في ذاك المكان وفي الصباح حضر الى حضرة الشيخ وقال : سيدي ان الشعر صدق وحق .

وقد سمعت قصصا أخرى أيضا مثل هذه عن أكابري ولكن الشرط الأول على كل حال أن يكون الأمر حقا « شيخا كاملا » ويكون جامعا بين الشريعة والطريقة وعالما برموز الأسرار الالهية متقانيا في طاعة الله وطاعة رسوله ، وليس هو شأن كل من ادعى المشيخة .

وذات مرة كان الامام الشيخ الكنكوهي رحمه الله متحمسا وذكرت مسألة « تصور الشيخ » فقال : أقول ؟ فقيل : نعم قل ، فقال : أقول ؟ فقيل نعم قل ياسيدي ، فقال ثالثا أقول ؟ فقيل نعم قل يا سيدي فقال : ثلاث سنوات كاملة كان وجه الشيخ امداد في قلبي ولم أعمل أى شيء بدون أن أسأله ثم زاد حماسة وقال أقول ؟ فقيل نعم يا سيدي قل : فقال كذا سنة (لم يذكر الناقل عدد السنوات التي ذكرها الشيخ خان الراوى للقصّة) : كان الرسول صلى الله عليه وسلم في قلبي ولم أعمل شيئا في هذه المدة بدون أن أسأله صلى الله عليه وسلم ، وبعد هذه المقولة زاد حماسه أكثر وقال : أقول أيضا فقيل نعم ياسيدي قل - ولكنه سبكت

فأصر الناس فقال لا اتركوه ، وفي اليوم الثاني وبعد اصرار كثير قال :
يا اخواني ثم كانت مرتبة الاحسان .

يقول حكيم الأمة الشيخ التهانوي رحمه الله في حاشيته على هذه
القصة :

معاودة الاستفسار بقوله : أقول ربما كان لاشتياق المخاطب وأهليته لأن
تحمل أمثال هذه الرموز لا يكون كل شخص أهلا له وفي المرة الثانية لم
يعاود هذا السؤال الظاهر لأنه لم تبق حاجة اليه والسؤال مرة واحدة لأن
الحصول بعد الطلب يكون أوقع في النفس - وحضور الصورة
واستشارتها غالبا يكون من قوة التخيل وأحيانا خرقا للعادة يكون تمثل
الروح بشكل الجسد وظاهر أنه في الحالتين ليس هناك سعة لاعتقاد أن
يكون حاضرا وناظرا باللزوم والدوام وكذا اعتقاد الاستعانة والاستغاثة
وقوله في المرتبة التي بعدها « لا اتركوه » ثم في اليوم الثاني بعد الاصرار
ذكره أنه مرتبة الاحسان - فان كان ذلك تفسير لذلك المسكوت عنه فعدم
اظهاره بها في نفس ذلك اليوم لأن أهل الظاهر في نظرهم هذه مرتبة أدنى
وأقل من تلك المرتبتين المذكورتين فلو بينها في نفس الوقت لما كان له وقع
في نفوسهم وبيانه بعد اصرارهم وفي اليوم الثاني فيه تعليم عملي بأن هذه
المرتبة هي أعظم من تلك المذكورتين لأن هذا مقصود ومقام وتلك المرتبتين
غير مقصودة وحال وشتان ما بينهما وان كان هذا ليس هو تفسير لذلك
المسكوت عنه فقد أخفى تلك المرتبة فيمكن لأن أفهام العامة لم تكن
لتحمل المعنى المقصود فربما كان تجليا من التجليات الربانية وبيان
كيفيتها يورد اشكالات علمية كما يحدث عامة عند بيان الصوفية هذه
الأسرار أن ترد لأهل الظاهر اشكالات علمية فيها ، والله أعلم .

كشف الصدور وكشف القبور

ان مشايخ السلوك يكشف لهم كثيرا جدا وهذا يكون أحيانا متفرعا على المجاهدات وأحيانا يكون وهيبا .

وهذا الذى يكون موقوفا على المجاهدات فهذا ليس خاصة بالتصوف بل انه كل من اجتهد وارتاض حصل له هذا الكشف لذا لا أهمية البتة للكشف عند المشايخ عامة بل انه لا يلتفت اليه بل وان المشايخ بعض الأحيان اذا حصل الكشف لبعض مريديهم منعوهم من المجاهدات والرياضات - أظن أننى ذكرت فى « مذكرات حياتى » أن صديقى المخلص الشيخ عبد الرحمن الكنكوهى وكان فى كنكوه من خاصة تلاميذ والدى رحمه الله وفى عام ١٣٢٨ عندما انتقل والدى بالكلية الى مظاهر العلوم بسهاربنور انتقل معه هؤلاء الطلبة المخصوصون أيضا - وقد درس كل كتب دورة الحديث الشريف فى مظاهر العلوم وفى السلوك بايع على يد مرشدى وسيدى الشيخ خليل أحمد - وكان يهتم جدا بوصاياه والوظائف السلوكية - واشتغل اماما فى مسجد قرية كسولى قريبا من شمله . وهناك كان يدرس الطلبة - وبما أنى كنت أكتب رسائل سيدى الشيخ فى ذلك العهد وتمر على جميع الرسائل الواردة كنت أقرأ فى رسائله أحواله وكيفياته العالية جدا وفى رسالة ذكر المرحوم مكاشفات وعجائب عديدة وكنت أظن أن سيدى الشيخ سيمنحه الاجازة بالبيعة والخلافة فى رده على هذه الرسالة ولكنه أملئ فى رده عليها : اترك جميع الاذكار والأشغال ما عدا الفرائض والسنن المؤكدة .

كان أكابرى نور الله مرافدهم يرون أن المكاشفات وان كانت وهبية مانعة عن الطريق وكان سيدى الشيخ يقول : بأن هذه مثالها مثال الشخص الماشى يرى عن يمين الطريق وشماله الحدائق والبساتين والأزهار وغيرها فلو أن هذا الشخص أخذ يتمتع ويتلذذ بهذه الأشياء فان الطريق لن ينقطع

أى أنه يتأخر فى الوصول إلى المقصود - لذا كان أكابرى بالعموم لا يحبون هذه الكشف - وقد مر فى أكابرى أيضا النوعان فسيدي الشيخ كان لا يحصل له الكشف إلا نادرا جدا وأما سيدنا الشيخ عبد الرحيم الرائي بورى فكان يحصل له الكشف بكثرة جدا وكم سمعت من حكيم الأمة رحمه الله هذه المقولة : كان يقول نور الله مرقده (لو أجلس فى حضن شيخ الهند والشيخ خليل أحمد فانى لا أخشى شيئا ، وأما الشيخ عبد الرحيم فأخاف حتى من الجلوس فى مجلسه فلا أدرى ما يكشف له) .

وهكذا بلغنا عن خدام الامام القطب الكنكوهى قدس الله روحه أيضا بأن كان فيهم النوعان فكان سيدنا الشيخ صديق أحمد الابن هتوى يكشف له كثيرا جدا وسيدي الشيخ بخلاف ذاك كما يظهر ذلك من رسائلهم المتعددة وهى مذكورة بالتفصيل فى (المكاتب الرشيدية) ولكن بما أنه غالبا تحصيل هذه الأشياء بواسطة المجاهدات مثل الخلوة المستمرة وحبس النفس وغيرها وعلى كل فعند أكابر السلوك ليس عليها مدار السلوك وكذلك ليست بمخالفة للشريعة المطهرة فسماعه صلى الله عليه وسلم للشخصين وهما يعذبان فى قبورهما لسبب البول والنميمة عند مروره صلى الله عليه وسلم بجانبهما معلوم عند أهل العلم وقد ورد الحديث عنه فى أكثر كتب الحديث وقد ورد أيضا عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حائط لبنى النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة ، فقال : من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ قال رجل : أنا ، قال : فمتى ماتوا ؟ قال : فى الشرك فقال : ان هذه الأمة تبلى فى قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه » الحديث رواه مسلم كذا فى المشكاة . وفى قصة دفن سعد بن معاذ رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم (لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرجه الله عنه) ، رواه أحمد .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ضرب بعض أصحاب النبى صلى

الله عليه وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فاذا فيه انسان يقرأ سورة تبارك الذى بيده الملك حتى ختمها فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هى المانعة هى المنجية ، تنجيه من عذاب الله • رواه الترمذى كذا فى المشكاة •

وفى « حياة الصحابة » ج ٣ ص ٥٩٤ (أخرج الحاكم عن يحيى بن أيوب الخزاعى قال : سمعت من يذكر أنه كان فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه شاب متعبد قد لزم المسجد وكان عمر به معجبا وكان له أب شيخ كبير ، فكان اذا صلى العتمة انصرف الى أبيه ، وكان طريقه على باب امرأة فافتتنت به ، فكانت تنصب نفسها له على طريقه ، فمر بها ذات ليلة فما زالت تغويه حتى تبعها ، فلما أتى الباب دخلت وذهب يدخل فذكر الله وجلى عنه ، ومثلت هذه الآية على لسانه « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » فخر الفتى مغشيا عليه ، فدعت المرأة جارية لها فتعاوتتا عليه فحملتاها الى بابه وأجلس ، ودق على أبيه فخرج أبوه يطلبه فاذا به على الباب مغشيا عليه ، فدعا بعض أهله فحملوه فأدخلوه ، فما أفاق حتى ذهب من الليل ما شاء الله ، فقال له أبوه : يا بنى مالك ؟ قال : خير ، قال : فانى أسألك بالله ، فأخبره بالأمر ، قال : أى بنى وأى آية قرأت ؟ فقرأ الآية التى كان قرأ ، فخر مغشيا عليه فحركوه فاذا هو ميت ، فغسلوه فأخرجوه ودفنوه ليلا ، فلما أصبحوا رفع ذلك الى عمر ، فجاء الى أبيه فعزاه به وقال : ألا آذنتنى ؟ قال : يا أمير المؤمنين كان ليلا ، قال عمر : فاذهبوا بنا على قبره ، فأتى عمر ومن معه القبر ، فقال عمر : يا فلان ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فأجابه الفتى من داخل القبر : يا عمر قد أعطانيهما ربى فى الجنة ، مرتين ، وأخرج ابن عساكر فى ترجمة عمرو بن جامع فى تاريخه فذكر نحوه كما فى التفسير لابن كثير ج ٢ ص ٢٧٩ وأخرجه البيهقى عن الحسن مختصرا •

وأخرج ابن أبى الدنيا وابن السمعانى عن محمد بن حمير أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر ببيقع الغرق فقال : السلام عليكم يا أهل القبور ، أخبار ما عندنا أن نساءكم قد تزوجت ودوركم قد سكنت وأموالكم قد

فرقت فأجابه هاتف : أخبار ما عندنا أن ما قدمناه ونجدناه وما أتقناه
ربحناه وما خلفناه فقد خسرناه ، كذا في الكنز ج ٨ ص ١٢٣ .
والأحاديث والآثار في سماعهم الأصوات من القبور كثيرة ومعلومة
عند أهل العلم لذا فمن أنكر هذه المكاشفات والخوارق فهو جاهل
بالحديث والأثر .

وقد ذكر الحافظ ابن القيم الجوزية في كتاب الروح روايات وقصصا
عن رؤيتهم وسماعهم لأهل القبور من جملتها :

عن أبي عثمان النهدي أن ابن ماس خرج في جنازة في يوم وعليه
ثياب خفاف ، فانتهى إلى قبره قال : فصليت ركعتين ، ثم اتكأت عليه ،
فوالله إن قلبي ليقظان ، إذ سمعت صوتا من القبر : اليك عنى ، لا تؤذنى ،
فانكم يوم تعملون ولا تعلمون ، ونحن يوم نعلم ولا نعمل ، ولأن يكون
لى مثل ركعتيك أحب الى من كذا وكذا . فهذا قد علم باتكاء الرجل
على قبره .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني اسماعيل بن عياش عن ثابت بن سليم ،
حدثنا أبو قلابة قال : أقبلت من الشام إلى البصرة ، فنزلت منزلا ،
فتطهرت وصليت ركعتين بليل ، ثم وضعت رأسي على قبر فنيمت ، ثم
انتبهت ، فإذا صاحب القبر يشتكيني : قد آذيتني منذ الليلة ، ثم قال :
انكم تعلمون ولا تعملون ، ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ، ثم قال :
الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ، ثم قال : جزى الله أهل
الدنيا خيرا ، أقرئهم منا السلام ، فانه يدخل علينا من دعائهم نور مثل
الجيال .

وذكر [ابن أبي الدنيا] من حديث أبي سفيان : حدثنا داود بن شابر
عن أبي قزعة قال : مررنا في بعض المياه التي بينا وبين البصرة ، فسمعنا
نهيق حمار ، فقلنا لهم : ما هذا النهيق ، قالوا : هذا رجل كان عندنا كانت
أمه تكلمه بالشئ فيقول لها : انهق نهيقك فلما مات سمع منه هذا
النهيق من قبره كل ليلة .

وذكر أيضا عن عمرو بن دينار قال : كان رجل من أهل المدينة ، وكانت له أخت في ناحية المدينة ، فاشتكت ، وكان يأتيها ويعودها ثم ماتت فدفنها فلما رجع ذكر أنه نسي شيئا في القبر كان معه فاستعان برجل من أصحابه قال : فنبشنا القبر ووجدت ذلك المتاع ، فقال للرجل : تنح حتى أنظر على أى حال أختي فرفع بعض ما على اللحد فاذا القبر مشتعل نارا فردده وسوى القبر ، فرجع الى أمه فقال : ما كان حال أختي ؟ فقالت : ما تسأل عنها وقد هلكت فقال : لتخبريني ، قالت : كانت تؤخر الصلاة ولا تصلى فيما أظن بوضوء وتأتى أبواب الجيران فتلقم أذنهم أبوابهم وتخرج حديثهم .

وذكر ابن أبي الدنيا أن رجلا سأل أبا اسحق الفزارى عن النباش هل له توبة ؟ فقال : نعم ان صحت نيته وعلم الله منه الصدق ، فقال له الرجل : كنت أنبش القبور ، وكنت أجد قوما وجوههم لغير القبلة ، فلم يكن عند الفزارى في ذلك شيء ، فكتب الى الأوزاعي يخبره بذلك ، فكتب اليه الأوزاعي : تقبل توبته اذا صحت نيته ، وعلم الله الصدق من قلبه ، وأما قوله له انه كان يجد قوما وجوههم لغير القبلة فاولئك قوم ماتوا على غير السنة) اهـ .

قلت : يعنى أهل البدع .

وبعد ذكر هذه الآثار والقصص يقول الحافظ ابن القيم رحمه الله .

(وهذه الأخبار وأضعافها وأضعاف أضعافها مما لا يتسع لها الكتاب مما أراه الله سبحانه لبعض عباده من عذاب القبر ونعيمه عيانا . . . وليس عند الملاحدة والزنادقة الا التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه) اهـ .

وما ذكر باعلاه كان عن كشف القبور وأما بالنسبة لكشف الصدور فيقول الحافظ ابن القيم في كتاب الروح أيضا :

(وأما الفراسة فأثنى على أهلها ومدحهم في قوله تعالى « ان في ذلك لآيات للمتوسمين » قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره أى للمتفرسين

•• فالفراسة الصادقة بقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه •

وفي الترمذى وغيره من حديث أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله • الحديث •

وهذه الفراسة نشأت له من قرب من الله فان القلب اذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وادراكه وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله يحسب قرب من الله وأضاء له النور بقدر قرب من الله فى ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب ، كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال : ما تقرب الى عبدى بمثل ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى) •

فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيد محبته له فاذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله فسمع به وأبصر به وبطش به ومشى به فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هى عليه ، فلا تكاد تخطيء له فراسة ، فان العبد اذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه ، فاذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه ، وليس هذا من علم الغيب بل علام الغيوب قذف الحق فى قلب قريب مستبشر بنوره غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التى تمنعه من حصول صور الحقائق فيه ، واذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب الى العين فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى أصحابه فى الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه ، ورأى بيت المقدس عيانا وهو بمكة ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق ، ورأى أمراءه بمؤتة وقد أصيبوا وهو بالمدينة ورأى النجاشى بالحشة لما مات وهو بالمدينة فخرج الى المصلى فصلى

عليه ورأى عمر سارية بنهاوند من أرض فارس هو وعساكر المسلمين وهم يقاتلون عدوهم فناده يا سارية الجبل ودخل عليه نفر من مدحج فيهم الاشترا النخعي فصعد فيه البصر وصوبه وقال : أيهم هذا ؟ قالوا : مالك ابن الحارث ، فقال ماله قاتله الله انى لأرى للمسلمين منه يوما عصيا ..

وقيل أن الشافعى ومحمد بن الحسن جلسا فى المسجد الحرام فدخل رجل فقال محمد أتفرس أنه نجار ، فقال الشافعى : أتفرس أنه حداد ، فسألاه فقال : كنت حدادا وأنا اليوم أنجر .

وكان بين أبى زكريا النخشبى وبين امرأة سبب قبل توبته فكان يوما واقفا على رأس أبى عثمان الحيرى فتفكر فى شأنها ، فرفع أبو عثمان إليه رأسه وقال : ألا تستحى ؟ وكان شاه الكرمانى جيد الفراسة لا تخطيء فراسته وكان يقول : من عف بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة وتعود أكل الحلال : ثم تخطيء فراسته .

وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر فذكر للجنيد فقال : ايش هذا الذى ذكر لى عنك فقال له : اعتقد شيئا ، فقال له الجنيد : اعتقدت ، فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، فقال : اعتقدت ثانيا ، قال : اعتقدت ، فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، قال : فاعتقد ثالثا ، قال : اعتقدت ، قال الشاب : هو كذا وكذا ، قال : لا ، فقال الشاب : هذا عجب وأنت صدوق وأنا أعرف قلبى ، فقال الجنيد : صدقت فى الأولى والثانية والثالثة لكن أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئا فقلت فى نفسى مثل هذا كل على الناس ، فنظر الى وقال (اعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) قال : فاستغفرت فى سرى ، فنادانى وقال (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) .. وهذا عثمان ابن عفان رضى الله عنه دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة فى الطريق فتأمل محاسنها ، فقال له عثمان : يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على

عينيه ، فقال : أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : لا ولكن تبصرة وبرهان وفراصة صادقة •

فهذا شأن الفراسة وهي نور يقذفه الله في القلب فيخطر له الشيء فيكون كما خطر له فينفذ الى العين فيرى مالا يراه غيرها • اه •

هذا كله نقلناه من كتاب الروح لابن القيم وقد بسط في كتابه هذا في الموضوع أكثر مما ذكر وانما آتينا بالمجمل النافع ان شاء الله هداانا الله جميعا للحق وسواء السبيل •

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله في فتاواه ج ١١ ص ٢٠٤ في تأييد المكاشفات (وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فانه تنجلي لهم أمور صادقة - وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه انها تنجلي للمطيعين هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم ، فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات) اه •

ومعلوم أن الامام الأعظم أبا حنيفة رحمه الله له قولان في الماء المستعمل في الوضوء فكان أولا يقول بنجاسته عندما كان يرى شواد الماء لغسله الذنوب فدعا الله سبحانه وتعالى أن يزيل عنه هذه الحالة وأنه لا يرغب في الاطلاع على عيوب الناس فتقبل الله دعاءه ورفع عنه ذلك الحال وزال الكشف فرجع من القول بنجاسته الى القول بطهارته •

الشطحيات

تصدر من بعض أصحاب الحال أثناء غلبة الحال عليهم كلمات لا تنطبق على الشريعة (التكشف ٥١٩) التفوه بكلام يكون مخالفا للقواعد الشرعية الظاهرة في حالة عدم الصحو بسبب غلبة الوارد يكون شطحا وهذا الشخص لا اثم عليه ولا يجوز تقليده البتة (تعليم الدين) •

يكون في كلام الأكابر عبارات يفتى فيها أهل الظاهر أحيانا حتى بالكفر مثل هذه العبارات والألفاظ إذا نطق بها في حال غلبة الشوق أو السكر فلا تكون سببا للتكفير ولا يجوز تقليدهم فيها أبدا وقد ورد في الحديث الشريف : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فاقفلت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد آيس من راحلته فينما هو كذلك اذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك — أخطأ من شدة الفرح) رواه مسلم •

وقد وردت هذه الرواية في صحيح البخاري ومسلم عن ابن مسعود وأنس رضي الله عنهما بألفاظ مختلفة — يقول العارف التهانوي في التشريف ص ١٠٨ بذي له : وتبين من هذا الحديث أن خطأ المغلوب معفو عنه لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم ينكر على خطأ الشخص بعد نقله مع أنه كان بسبب شدة الفرح وهي حالة ناشئة عن الدنيا — اذن فما بالك بالذي يكون مغلوبا بحبة الله عز وجل والشوق اليه سبحانه فهي من الكيفيات الناشئة عن الدين — انتهى قوله —

ثم في قصة السيدة عائشة رضي الله عنها حينما أتهمت ثم نزلت براءتها في القرآن من عند الله عز وجل فأمرتها والدتها أن تقوم الى رسول الله

صلى الله عليه وسلم (وكانت رضى الله عنها في حالة تحمس) فقالت كما ورد في صحيح البخارى ومسلم وغيرهما : والله لا أقوم اليه ، فانى لا أحمد الا الله عز وجل .. الحديث .

يقول العارف التهانوى رحمه الله : لقد نقل عن بعض الصالحين نظما أو نثرا كلمات يوهم ظاهرها الى اساءة الأدب فان كانت هذه في حالة غلبة الحال فيقال لها « الشطح » أو « الادلال » وقول الصديقة رضى الله عنها هذا أيضا من هذا القبيل ومنشأ شدة الهم لسبب خاص وهو أنه صلى الله عليه وسلم نفسه باقتضاء بشريته وعدم علمه للغيب كان مشوشا ومتريدا في أمرها وكانت الصديقة رضى الله عنها قد اطلعت على هذا التردد فكانت قلقة وحزينة بأن وأسفاه حتى الرسول صلى الله عليه وسلم قد اشتبه في أمرها فعند نزول الوحي الالهى ببراءتها تحمست وصدر منها هذا الجواب وبما أنه صلى الله عليه وسلم لم ينكر عليها فثبت من الحديث الشريف كون أهل الشطح والادلال معذورين (التكشف ص ٥٠٦) وورد أيضا عن السيدة عائشة الصديقة رضى الله عنها بأن قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم : (انى لأعلم اذا كنت عنى راضية واذا كنت على غضبى قالت : فقلت : وكيف ذلك فقال : أما اذا كنت عنى راضية فانك تقولين : لا ورب محمد واذا كنت غضبى قلت لا ورب ابراهيم قالت : قلت : أجل والله ما أهجر الا اسمك) .

هذه قصص الحب والدلال يعلمها أهل المحبة والوداد فالرسول صلى الله عليه وسلم أحس وشعر بأسلوب قسمها وبما أن ذلك أيضا كان من دلال الحبيبة رضى الله عنها لذا لم ينكر عليها .

وقد مرت قصة الشيخ الخواجه أحمد جام وقوله : « ما مى كنيم » أى (نحن تفعل) بأنه بسبب مسحته على عين الأعمى زال عنه العمى وصار يقول « ما مى كنيم - ما مى كنيم » . أى نحن تشقى « نحن تفعل » وكان ذلك بسبب تلذذه بالعبارة الالهامية كما امر وذكر في كتاب الأرواح الثلاثة ص ٣٤٩ أن الشيخ محمد يعقوب النانوتوى كان جالسا في فصله حزينا كئيبا فأتى اليه حينئذ الشيخ أمير

شاه خان ورجال آخرون غيره فقال الشيخ لقد أخطأت فاحشا - لقد قلت لله عز وجل قولا فرد على فقلت له ثانيا (وكان ظاهره سوء أدب) فقل لي في جوابه : بس اسكت ولا تتسفه (هكذا) فسكت بعدها واستغفرت واعتذرت كثيرا فعفى عني - وعندما بلغت هذه القصة الشيخ الامام محمد قاسم النانوتوي اضطرب وقام من مجلسه وقال : أف أهكذا قال الشيخ يعقوب استغفر الله استغفر الله استغفر الله يا أخى هذه معاملته هو لأنه مجذوب - نحن لو صدرت منا مثل هذه الاساءة لدكت رقابنا - وقال العارف التهانوي في حاشيته : في بعض مراتب المجذوبية يعفى عن مثل هذه الأقوال بدخولها في الادلال وهناك بعض المجاذيب يكون عليهم أثر الجذب بعض الأحيان فقط .

ان درج الجامع الكبير بدلهى ما زالت منذ البداية مستقرا لمجذوب ما وقد اشتهرت قصص كثير من أولئك المجاذيب لا نعلم منذ متى هذه الدرج كانت مستقرا لهم - ذكر عن الشيخ العارف مرزا مظهرجان جانان رحمة الله عليه أنه عندما كان يذهب لصلاة الجمعة في الجامع الكبير يدخل من البوابة الجنوبية وعند فراغه من الصلاة يخرج من البوابة الشرقية وكان يجلس رجل صالح في الدكة الشمالية الموجودة في البوابة الشرقية بعد الجمعة على سجادة يفرشها هناك ويضع أمامه ابريقا من الطين وعليه طوبة عادية قديمة وكان الشيخ مرزا عندما يأتى بعد الجمعة يقدم الى هذا الرجل الصالح ويرفسه بأقدامه ويسبه ويشتمه ثم يسحب السجادة من تحته ويقذفها بعيدا ويأخذ الابريق ويكسره والطوبة يرميها بعيدا يفعل كل ذلك ثم ينصرف والناس يرون هذه الأفعال وهى لا تليق وشأن الشيخ الجليل بأى حال فيتعجبون ولكن لا يجرؤ أحد على الاستعلام عن هذا الشخص ومعاملته الغريبة معه وذات مرة تجرأ أحد المقربين وسأله : فقال الشيخ مرزا مظهر رحمه الله : قصة هذا الشخص أننى عندما كنت صبيا كان هذا من المحبين لى وكنت حينئذ أعمل معه مثل هذه المعاملة ثم كبرت وهدانى الله سبحانه وتعالى فتوجهت الى السلوك وبفضله سبحانه تشرفت بالاجازة ففكرت يوما أن هذا الشخص من المحبين المخلصين يجب أن أتوجه اليه وعندما توجهت اليه انكبست في عكسه وظهر لى أنه أعلى منى بكثير

فاضطربت لذلك فعاملته بالاكرام وتركت له مقامي وقلت له انى لست أهلا لهذا المقام وتفضل أنت فانك أهله فلم يرض فألححت عليه فلم يرض أيضا بل قال بأنه يجب عليك أن تعاملنى بنفس المعاملة التى كنت تعاملنى بها فى السابق وهذا لم أرض به أنا - وحينئذ سلب منى جميع الكيفيات وأصبحت فارغا - فحزنت لذلك وقلت له أعد الى كيفياتى • فقال لى : نعم أعيدها بشرط أن تعاهدنى أن تعاملنى بنفس المعاملة التى كنت تعاملنى بها دائما فى السابق - وليس هنا بل فى الجامع الكبير أمام كل الناس فوافقت مضطرا وبسبب ذاك ترون كل هذا •

يقول العارف التهانوى فى حاشيته : قوله : سلب الكيفيات : أقول : حقيقة هذا السلب كما سمعته من مولانا الشيخ الكنكوهى قدس روحه هى التصرف فى قوى المعمول الادراكية والعملية بحيث تأتى فيها الغباوة وأما الكمال والقرب فلا يمكن أن يزيله أحد ، يقول الأحقر (العارف التهانوى نفسه) مثل هذه الغباوة يمكن أن توجد بسبب غلبة مرض أو دواء ونحوهما وليس هناك بسببه أى ضرر فى ذاته الا أن يحدث حزن بسبب النقص فى اللذة - وانما بالواسطة أحيانا يكون مضرا وذلك أنه يكون سببا للنقص فى النشاط ويفضى ذلك الى التقليل فى الأعمال • لذلك فحيث احتمل ذلك يكون هناك هذا التصرف حراما ، وحيثما كانت غلبة الكيفيات النفسانية مخلة للضروريات الواجبة الدنيوية أو الدينية كان هناك هذا التصرف طاعة وحيثما كانت المصلحة مباحة محضا يكون مباحا كما حدث فى هذه القصة (الأرواح الثلاثة ص ٢١) •

ان هذا المقصر استمر لعدة سنوات فى السابق عضوا لمجلس الشورى لدار العلوم « بديونبد » وكانت معاملة سيدنا شيخ الاسلام حسين أحمد المدنى نور الله مرقدہ مع الحكيم اسحاق الكتهورى أشد من هذا بكثير وكنت فى البداية أتعجب لذلك وأتخير وأخيرا فهمت •

يخرج من الكلام كلام ، والقصة التى كنت أريد أن أمليها هى أنه كان يوجد على درج الجامع الكبير (هذه التى مر ذكرها) مجذوبا

وكان صالحا و متمسكا بالشرع وفي يوم من الأيام أخذ يقول : « لست عبدك ولست ربى » وصار يكرر هذه الجملة ويصيح بها فمسك به الناس وأخذوه الى القاضى والقاضى كان رجلا صالحا توجه للمجذوب وسأله عما يقول فأجاب : ان الشيطان متسلط على منذ ساعتين ويصر على أن أقول له « اللعين » « أنك ربى وأنا عبدك » وأنا أسخط عليه وأصيح فى وجهه بأنى « لست عبدك ولست ربى » والمقصود من هذه القصص هو أنه لا ينكر على الشطحيات بدون فهمها — أما تقليد أصحابها واتباعهم فلا يجوز مطلقا أبدا والله المستعان •

السكر والغشى

السكر والغشى يكونان أحيانا سببا للشطحيات - وقد حملت كثير من أقوال وأحوال مشايخ السلوك على حالة السكر - والسكر ان كان من شئ حرام فبطلانه وحرمة ظاهرة ولكن أحيانا يكون ذلك بسبب وارد قوى لا يتحملة القلب - وهذا لا يكون دائما أثرا لضعف القلب بل ان قوى القلب جدا أحيانا عندما يكون الوارد أقوى منه يغشى عليه بسبب قوته - فان سيدنا موسى عليه السلام مع أنه كان من أولى العزم من الرسل وقد طلب بنفسه من البارئ عز وجل رؤيته سبحانه ولكن عندما تجلى سبحانه خر عليه السلام مغشيا - والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بما أن قوة تحمله كانت أعظم من موسى عليه السلام فانه حصلت له النسبة الاتحادية مع سيدنا جبريل عليه السلام عند نزول الوحي الأول في الغار وبعدها في الثلاثة عشر سنة ترقى الى تلك المقامات والدرجات العلية التي لا تتصور فعندما عرج به تأخر جبريل عليه السلام قائلا :

أى بأنى لو طلعت الى فوق مقدار شعرة فان نور التجلى سيحرق جناحى .

والنبي صلى الله عليه وسلم في ليلة المعراج هذه لم يطرأ على جسده الأظهر أى تغير أو انكسار أو اضمحلال مما رأى في السماوات من العجائب والغرائب ورجع على نفس حاله التي كان قد ذهب عليها قال العارف التهانوى نور الله مرقده في « التكشف » ص ٥٣ « كما يصبح العقل مغلوبا بسبب الأحوال الجسمانية هكذا يكون أحيانا مغلوبا بسبب الأحوال النفسية أيضا وهذا ثابت ومسلم عند الأطباء أيضا . ومن جملة الأحوال النفسية تلك الأحوال التي يحصل بها غلبة السكر ويصبح العقل مغلوبا فكما أن المجنون والمعتوه معذوران شرعا كذلك صاحب السكر ومغلوب الحال أيضا في أقواله الشطحية وأفعاله « كترك الواجبات

أحيانا كما أن الجنون والعتة لا يمس به أحيانا أيضا فيسبب الاشتباه •
وارتكاب المحرمات « معذور أيضا — وهذا السكر لا يحس به الآخرون

فالسادة الذين يتأول في كلامهم بالعذر تكون فيهم قرينة نقل السكر
عنهم وقرينة أقوى هي نقل فضائلهم وكمالاتهم وأتباعهم للسنة في غالب
الأحوال وهذا يجبرنا على التأويل — والا فالذى يكون غالب أحواله
الفسق والمعصية واتباع الباطل فهناك لا حاجة الى أى تأويل • لأن
الاحتمال الغير ناشئ عن دليل لا يعتبر به ، والا سد باب الانكار
والاحتساب والسياسة وهو باطل » •

وفي الكشف أيضا ص ٥٠٠ « فى صلاته صلى الله عليه وسلم على
عبد الله بن أبى وانكار عمر رضى الله عنه والاصرار عليه قال فيه : ان رفع
الامتياز فى الأحكام الظاهرة والباطنة للوارد الغيبى هو السكر — وعود
هذا الامتياز هو الصحو — لقد كان ورود البعض فى الله على قلب سيدنا
عمر رضى الله عنه بقوة لدرجة أنه لم يلتفت الى أنه كيف يعامله صلى الله
عليه وسلم قولا وفعلا — وهى صورة مستبعد عن التأدب — ففى هذه
الحال قد أعذره الشارع عليه الصلاة والسلام — ثم عندما رجع الى حالة
الصحو فورد فى الحديث أنه تعجب على جرأته وندم •

وفى أكابر الصوفية أيضا يكون ظهور الواردات بكثرة جدا — فان
كان الوارد ضعيفا والقلب قويا فلا يتبين أثره ، وان كان الوارد قويا
والقلب ضعيفا فيظهر أثره — أذكر جيدا وبتفصيل قصة العارف الكبير
مولانا الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادى ولكنى لا أذكر الآن مرجعه
— انما ذكر فى تذكرة الرشيد الجزء الثانى ص ٣٢١ أنه ذكر المشايخ فى
مجلسه نور الله مرقدہ فسأل بعضهم عن حالة الامام الشيخ الكنكوهى تور
الله مرقدہ فقال الشيخ نور الله مرقدہ ما لفظه : وما تسألون عن حال مولانا
رشيد أحمد انه قد شرب البحر ولا يتكرع ، ويقول شيخ الاسلام ابن
تيمية فى فتاواه ص ٣٩٦ ج ٢ « وقد يقع بعض من غلب عليه الحال فى نوع
من الحلول أو الاتحاد ، فان الاتحاد فيه حق وباطل ، لكن لما ورد عليه
ما غيب عقله أو أفناه عما سوى محبوبه ، ولم يكن ذلك بذنب منه كان

معدورا غير معاقب عليه مادام غير عاقل ، فان القلم رفع عن المجنون حتى يفيق ، وان كان مخطئا في ذلك كان داخلا في قوله (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا) وقال (ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به) وهذا كما يحكى أن رجلين كان أحدهما يحب الآخر فوقع المحبوب في اليم فألقى الآخر نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت فما الذي أوقعك ؟ فقال : غبت بك عنى فظننت أنك أنى .

فهذه الحال تعترى كثيرا من أهل المحبة والارادة في جانب الحق وفي غير جانبه ، وان كان فيها نقص وخطأ فانه يغيب بمحبوبه عن حبه وعن نفسه ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن عرفانه ، وبمشهوده عن مشهوده ، وبموجوده عن وجوده ، فلا يشعر حينئذ بالتمييز ولا بوجوده ، فقد يقول في هذه الحال : أنا الحق أو سبحانه أو ما في الجبة الا الله ونحو ذلك ، وهو سكران بوجد المحبة الذي هو لذة وسرور بلا تمييز .

وذلك السكران يطوى ولا يروى اذا لم يكن سكره بسبب محظور » اهـ .

محمل كلام الصوفية بخلاف الظاهر

ان السادة الصوفية يكون في كلامهم كثيرا جدا معانى بخلاف الظاهر — وبعض الحمقى الجهلاء عن رموز الفن يعترضون عليهم أيضا — وقد أخرج الترمذى في شمائله رواية أنس رضى الله عنه أن رجلا استحل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انى حائك على ولد ناقة ، فقال : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال : وهل تلد الابل الا النوق « وفي الشمائل أيضا رواية أخرى عن الحسن قال أتت عجوز النبی صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله أدع الله أن يدخلنى الجنة فقال : يا أم فلان ان الجنة لا يدخلها عجوز ، قال : فقلت تبكى ، فقال أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ان الله تعالى يقول (انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا) •

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ما معناه « أنه خرج الى السوق فقال أراكم هنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فى المسجد فذهبوا الى المسجد ورجعوا فقالوا لم نجد شيئا فسألهم فما وجدتم ؟ فقالوا : وجدنا قوما يقرأون القرآن فقال رضى الله عنه ذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم » •

يقول العارف الشيخ التهانوى فى الكشف ص ٤٧٦ « يوجد فى مقالات أكثر المشايخ وكتاباتهم بعض الكلام بخلاف الظاهر — الذى ثبت بعد الاستماع الى توجيهه ومراده أنه صحيح ومطابق للواقع — هذا أحيانا يكون سببه غلبة الحال وأحيانا بغرض الاخفاء عن العامة وأحيانا لتشويق الطالب وترغيبه فبالإبهام يتولد الشوق للتعين والتعيين الذى يكون بعد الشوق يكون أوقع فى النفس » ففى هذا الحديث اثبات هذه العادة فان سيدنا أبا هريرة رضى الله عنه أبهم أولا لمصلحة التشويق فأوهم ذاك الى معنى غير مقصود لديه — حتى أن الناس بعد الرجوع كذبوه أيضا — ولكن بعد التفسير علم أن الكلام صدق وحق • لذا لا يجرح

ولا يقدح في من بلغ الكمال أو صاحب حال عند سماع العبارات الموهمة منه • فانه يثمر الحرمان •

ثم قد روى عن أبي بن كعب رضى الله تعالى عنه قال كان رجل من الأنصار لا تكاد تخطئه صلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا نشفق عليه فقيل له لو اشتريت حمارا تركبه في الظلماء وفي الرمضاء فقال والله ما أود أن يتيى الى جنب المسجد قال أبى فعظم ذلك على فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرته بما كان فطلبه الرسول صلى الله عليه وسلم وسأله فقال انى لاحتسب ذلك عند الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الله لك ذلك كله » رواه غير واحد بالفاظ مختلفة •

يقول العارف التهانوى « وهذا مثل السابق فيه نفس التقرير الذى ذكر فى الحديث الذى قبله — انظر الى الصحابى الأنصارى قال مقولته بأسلوب وألفاظ كانت قاسية وموحشة جدا ولذا ثقلت على سيدنا أبى — ولا عجب أنه اخفاء لاختلاصه هذا النوع من الأسلوب أو لمصلحة أخرى مثلها وأخيرا بعد عرضه على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم اتضح المقصود الأصلى فانه لم تكن حاجة الى الاخفاء عنه صلى الله عليه وسلم •

وفى حديث قدسى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « قال قال الرسول صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ؟ قال يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين فيقول الله عز وجل : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده أما لو عدته انك لوجدتني عنده » وهكذا فيه عن انى استطعتك واستسقيتك الخ الحديث •

ان هذا الحديث الشريف يشير الى أن مثل هذه التعبيرات تكون مجازا — ولا تحمل على حقيقتها فتفسد العقائد — وقد وردت فى القرآن آيات كثيرة من هذا النوع « آيتها العير انكم لسارقون » « وكان ورائهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » « وقد مكروا ومكر الله » وغيرها ما هو معلوم — والله أعلم •

أم الأمراض : الكبر

ان هذا العاجز كان يريد أن يكتب كثيرا وكان في الخاطر أشياء كثيرة جدا ولكن هذه المرة من بعد الوصول الى المدينة المنورة توالى الأمراض على بصورة مستمرة بل ساءت الحال في الهند أيضا وساءت كثيرا فاستولى المرض كليا وكنت أرجو تحسن الحال والشفاء بعد الوصول الى المدينة المنورة حسب العادة دائما ولكن هذه السنة حتى بعد الوصول الى المدينة المنورة والمرض على حاله لذلك أردت عدة مرات أن أترك تكملة هذه الرسالة بعد الشروع فيها ولكن بسبب اصرار الأحباب لم يحصل ذلك وانما أوقف العمل فيه عدة مرات لعدة أيام بل لأسابيع أيضا أحيانا والآن وقد ساءت الحالة الصحية جدا ومستمرة في ذلك لذا عازمت على أن أذكر موضوعين وأنهى الرسالة — وهذان الموضوعان كانا من البداية في البال أن أختتم بهما الرسالة ان شاء الله أحدهما : أم الأمراض « الكبر » والثاني « اساءة الأدب مع الأكابر » فان هذين الموضوعين متعلقان بالشرعية والطريقة كليهما .

وقد أخذت اسم العنوان « أم الأمراض » من رسالة أحد أجباني المخلصين وهو الصوفي محمد اقبال الذي ألف رسالة مستقلة مفيدة وسمّاها « أم الأمراض » (بالاردو) وقد طبعت الطبعة الأولى منها وانتهت وتعد الآن لطبعها الثانية — وبعد ما رأيت هذه الرسالة أردت أن أترك هذا الموضوع فانه قد كفى ولكن الأحباب أصرّوا على أن لكل مؤلف أسلوبه الخاص لذا يجب أن تأتى بهذا الموضوع في رسالتك .

لقد كتبت منذ مدة في بعض مؤلفاتي « الاردوية » بحثا مفصلا في أن المعاصي لها نوعان : حيوانية وشيطانية وقد بسطت فيه أن المعاصي الحيوانية تغفر بسرعة عند الله سبحانه وتعالى برحمته وكرمه ففي الحديث المعروف للجميع « من قال لا اله الا الله دخل الجنة قال : وان زنى وان

سرق قال وان زنى وان سرق » أو كما قال • وقد بينت ذلك بالحجج والدلائل من القرآن والسنة - ولكن بما أن عادتي دائما كانت بأن أعرض تأليفاتي كلها قبل نشرها على أحبابي خاصة مولانا الشيخ عبد الرحمن الكاملبوري والشيخ المفتي القاري سعيد أحمد رحمهما الله ليراجعوا كل حرف منها فما شطبوه منها وان كان ذلك خلافا لرأى لم أنشره ولو كنت أناقشهم وأخاصمهم شفها وانما لم يقدم للنشر الا ما وافقوا عليه - والآن لا أذكر أن هذا البحث المذكور كان في أية مسودة ، وعلى كل فان هذين الحبيين رأوا أن هذا الموضوع لن ينتج منه الاهتمام العظيم بالمعاصي الشيطانية وانما سيزول الاهتمام الموجود بالمعاصي الحيوانية حتما •

لذلك لم ينشر حينئذ - ولكن بمناسبة هذه الرسالة من الضروري جدا بيان الكبر اذ أنه من ضمن جميع المعاصي ليس عندي فقط بل في ضوء القرآن والحديث من أشد الأمراض وأخطرها وأما في الطريقة فمهلك ومميت •

وقد ذكره حجة الاسلام الامام الغزالي قدس الله روحه في احياء العلوم بأهمية بالغة فجعل له كتابا مستقلا يقول فيه :

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه ، وذم كل جبار متكبر ، فقال تعالى : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) وقال عز وجل (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) وقال تعالى : (انه لا يحب المستكبرين) وقال تعالى : (ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) وذم الكبر في القرآن كثير ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » الحديث • وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : « الكبرياء ردائي ، والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقته في جهنم ولا أبالي » • وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكره الله في النار على وجهه » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصنعه ما أصابهم من

العذاب » وقال صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق : يقول : وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله الها آخر ، وبالمصورين » وقال صلى الله عليه وسلم : تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة : مالى لا يدخلنى الا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم وقال صلى الله عليه وسلم : يحشر المنكرون يوم القيامة فى مثل صور الذر ، تطوهم الناس وذكر الامام الغزالى فى الاحياء آثارا كثيرة فى ذم الكبر أيضا لا يمكن أن نحصىها فى هذه الرسالة وانما نكتفى بذكر بعضها قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لا يحقرن أحد أحدا من المسلمين ، فإن صغير المسلمين عند الله كبير .

وقال وهب : لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال : أنت حرام على كل متكبر . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينظر الله الى رجل يجبر ازاره بطرا » وقال صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يتبختر فى بردته لاذ أعجبه نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة » وروى ان مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر فى جبة خز . فقال : يا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله ، فقال له المهلب : أما تعرفنى ؟ فقال : بلى أعرفك : أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك تحمل العذرة » فمضى المهلب وترك مشيته تلك .

وقال عمر رضى الله عنه : ان العبد اذا تواضع لله رفع الله حكمته ، وقال : انتعش رفعك الله واذا تكبر وعدا طوره رهصه الله فى الأرض وقال : أخسأ خسأك الله ، فهو فى نفسه كبير وفى أعين الناس حقير . حتى انه لأحقر عندهم من الخنزير . وقال مالك بن دينار : لو أن متاديا ينادى بباب المسجد : ليخرج شركم رجلا ، والله ما كان أحد يسبقنى الى الباب الا رجل بفضل قوة أو سعى قال : فلما بلغ ابن المبارك قوله ، قال : بهذا صار مالك مالكا .

وقد ذكر العزيز محمد اقبال فى رسالته « سلوك الأكابر » ص ٤٠

مقولة للإمام الكبير الشيخ الكنكوهي نور الله مرقدته وهي : ان المشايخ الأولين كانوا يأمرؤن بالمجاهدات الشديدة لازالة الأخلاق السيئة حتى تسهل هذه العملية ولكن المتأخرين وخاصة مشايخ سندن وسلسلتنا استحسنوا هذا الطريق أى أن يكتر من الذكر لدوجة أن تنكبس هذه الأخلاق تحت الذكر ويتغلب الذكر على كل هذه الأشياء • الأخلاق السيئة كثيرة ولكن الأكثر حصروها فى عشرة ثم ذكروا أن خلاصة هذه العشرة : الكبر - فلو زال هذا زالت العشرة بنفسها • « مكث رجل عند الجنيد رحمه الله عشرين سنة قال يوما لقد مضت على هذه المدة ولم أتحصل منكم على شىء - وكان سيدا لقومه عظيما عندهم - فعلم أن فى قلبه كبر - فقال له خذ قفة واملأها من الجوز ثم اجلس على باب الرباط وأعلن فى الناس : أنه من يضربنى بنعاله مرة أعطيته جوزة ومن ضرب ضربتين فله جوزان وهكذا فاذا فعلت ذلك وانتهى الجوز كله ارجع الى فقال الرجل : لا اله الا الله محمد رسول الله يا سيدى ان هذا لا أقدر عليه • فقال له الجنيد رحمه الله ان هذه الكلمة المباركة لو قالها كافر بلغ السبعين من قلبه صدقا لأصبح والله مؤمنا • ولكنك بقولك آياها الآن أصبحت كافرا بالطريقة - اخرج عنى فانك لن تحصل منى على شىء » انتهى •

ثم ذكر شيخا آخر وقال مكث عنده رجل مدة طويلة ثم اشتكى انه لم تحسن حالة القلب فقال الشيخ : وما تقصد من الحسن • فقال الرجل : يا سيدى النعمة التى أتحصل عليها منكم سأبلغها الى الآخرين • فقال الشيخ : ان الفساد كله من هذه النية الفاسدة فقد نويت من البداية أن تكون شيخا تأمر وتطاع - أخرج هذه الفكرة الفاسدة منى بالك وتذكر أن ما أنعم الله به علينا من النعم المتنوعة العظيمة واجب علينا شكره سبحانه وتعالى وعبادته عليها فالذين يشتغلون بالعبادة والذكر بنية أن يحصلوا عليها نفعا ونحوه حمقى وفى نيتهم فساد وبطلان أى نفع وأى أجر - هذا الوجود وهذا الجسم هذه العينان وهذا الأنف وهذان الأذنان وهذا اللسان وهذه الحواس كلها هذه رزقنا اياها الله سبحانه وتعالى فأولا نتخلص من شكره سبحانه وتعالى عليها ثم بعد ذلك نرجو وتتمنى الأجر والنفع (تذكرة الرشيد) •

وبما أن هذا (السلوك والمعرفة) طريق السعادة الحقيقية والفوز العظيم لذا يحرص الشيطان أيضا ويبدل جهده لافساد سعى السالكين بشتى الوسائل فيتركهم على الأعمال الظاهرة من الورع والتقوى والعبادة والاكتثار منها ومن الداخل يجتهد فيهم على ايجاد الكبر وتشبته في النفس فحينئذ تضيع كل تلك الأعمال والعبادات « (سلوك الأكابر) •

وذكر في اكمال الشيم ص ٩٥ « من أثبت لنفسه التواضع فانه متكبر بدون ريب لأن دعوى التواضع تكون بعد مشاهدة رفعة قدر نفسه فعندما ادعى التواضع فكأنه رأى حينئذ علو مرتبة نفسه فأصبحت بذلك متكبرا » اهـ فالخلاصة أن حقيقة التواضع هي أن تكون ذلتة وحقارته في نظره لدرجة أن لا ترد حتى الوسوسة برفعة الشأن أو الاستحقاق لأي منصب أو جاه لنفسه - فيرى نفسه من الرأس الى القدم ذليلا حقيرا - ومن كان هذا حاله لا يدعى أبدا أى شيء لا التواضع ولا أية صفة حميدة لأن الدعوى عندما تكون تكون بمشاهدة رفعة النفس » •

في الحقيقة ليس المتواضع من اذا عمل شيئا من التواضع رأى نفسه أعظم من ذلك وأرفع بل ان المتواضع من اذا أتى بشيء منه ظن أنه أدنى من هذا وأحقر • ان عامة الناس يظنون أن من أظهر العجز والانكسار والتواضع في أعماله وحركاته فانه متواضع - كرجل غنى خدم فقيرا بنفسه فيقولون عنه انه متواضع - مع أنه أحيانا لا يكون في مثل هذا الشخص مثقال ذرة من تواضع - لذلك يبين الشيخ رحمه الله حقيقة المتواضع وغير المتواضع ، ففي الحقيقة ليس المتواضع من اذا عمل شيئا من أعمال التواضع ظن أنه أعلى من هذا العمل وأرفع • فمثلا أنه ترك الكرسي وجلس على الأرض المفروشة فيرى أن الجلوس على الأرض المفروشة أدنى من منزلته ويرى أن مقامه أعلى من هذا ويتخيل أنى كنت أهلا لأن أجلس على الكرسي ولكنى تواضعت وعملت حسنا فهذا الشخص متكبر فانه يرى لنفسه في قلبه مقاما ومنزلة - وأما المتواضع حقيقة فانه الذى يعمل بعمل التواضع ويرى نفسه أحقر وأذل من ذلك أيضا فمثلا جلس على الأرض المفروشة فيتخيل بأننى ذليل وحقير لدرجة أنى لا أستحق

الجلوس على هذه الأرض أيضا وانما كنت أستحق أن أجلس على الأرض غير المفروشة بل وأدنى من ذلك أيضا • أو مثلا خدم رجلا فقيرا فتكون حينئذ كيفية القلب بأن يرى أن هذا الفقير قد شرفه عندما تقبل منه هذه الخدمة فيفرح بذلك ولا يرى نفسه أهلا لذلك أيضا • « وفيه كلام مبسوط قد اختصرته • وعلى كل حال فقد كنت أود أن أكتب في هذا الآن بتفصيل ولكن لمرضى أختم هنا • ان أمر الكبر في الشريعة شديد جدا وفي الطريقة أشد منها •

لقد رأيت دأب الأكابر دائما وقد رأيت كثيرا : أن من أتى في باله أمر الخلافة والاجازة « أثناء السلوك وجدتهم يتمهلون ويحتاطون جدا في منحه الاجازة حتى بعد حصوله على النسبة وبعد منحه أيضا يشددون في التنبيه عليه عن الكبر فان كان فنعم والا نسخوا الاجازة •

وقد رأيت بعض خلفاء الأكابر وقد كانوا يجتهدون جدا في الذكر والشغل يسقطون من الأعلى بسبب هذا الكبر • وبعد الاجازة يجب الاحتراز منه أكثر - فان لم تنسخ الاجازة من قبل الشيخ فلا يتعدى عنه نفع السلسلة ولا يفوز مريدوه الا قليلا - نجاني الله من هذا المرض المهلك وحفظ منه أحبابي خاصة وجملة السالكين بمحض لطفه وكرمه وفضله فالأمر خطر جدا •

ان أمر الكبر عظيم جدا وهناك العجب وهو أدنى مرتبة من الكبر وهو خطر أيضا ويجب الاحتراز منه فان نتائجه أيضا تكون أحيانا فوق الاحتمال فبسبب هذا العجب أصاب ما أصاب من الهم والاضطراب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع وجوده معهم في غزوة حنين ففي سورة التوبة ذكرت هذه القصة حيث يقول الله عز وجل (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين • ثم أنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لهم تروها وعذب الذين كفروا

وذلك جزاء الكافرين • ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم) •

وفي حروب المرتدين معلوم قول خالد بن الوليد رضى الله عنه « ان البلاء موكل بالمنطق » اذ كان القتال أولا مع طليحة الكذاب هزم فيه الكفار وقد هرب منهم كثيرون وقتل آخرون حتى طليحة هرب ففعلت بذلك هم المسلمون ثم كان قتال مسيلمة الكذاب وجماعته وقد وقفوا لهم وتقاتلوا قتالا مريرا وقتل منهم رجال كثيرون واستشهد من المسلمين أيضا جماعة كبيرة وكان سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه قائد هذه المعارك يقول رضى الله عنه : « عندما انتهينا من طليحة الكذاب ولم يكن قويا في قتاله فقلت كلمة « ان البلاء موكل بالمنطق » فقلت وما بنو حنيفة وهل هم الا كالذين انتهينا منهم (يعنى طليحة وجماعته) ولكننا عندما تقابلنا رأينا أنهم لم يشبهوا أحدا - وقفوا لنا من طلوع الشمس الى العصر » فهذا سيدنا خالد رضى الله عنه يعترف بنفسه أنه قد نطق بكلمة سببت كل هذا القتال - لذلك كان السادة الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم اذا هنأوا جيشا ونحوه بالفتح كانوا يحرصون أن لا ينتج منه عجب ونحوه وقد ذكر التفصيل في مقامه •

وبمقابل ذلك فان العجز والتواضع يحبه الله سبحانه جدا وهو شعار الأنبياء والصالحين دائما - في فتح مكة عندما دخل سيد الكونين صلى الله عليه وسلم كان خافضا رأسه وكله تواضع تذلل لله عز وجل يظهر التواضع والعفو من كل حركة مع أنه كان أعظم فتح وأعظم غلبة على أعظم عدو كان من ثمرة هذا التواضع أن لانت قلوب الأعداء المعاندين والمتعصبين فانقادوا له صلى الله عليه وسلم وأطاعوه وتيقنوا أنه صلى الله عليه وسلم كله رحمة وشفقة ويمنحنا ثروة ونعمة عظيمة غالية وهى الايمان • وأن القتال لم يكن للمال أو البلاد •

ذكر فى (أسير مالطا) ص ١٥٩ (ان حضرة شيخ الهند كان ذوقه الطبعي أن يكون مع الفقراء وعامة الناس وكان يجب أن يكون حاله

ولباسه وهيئته ومعاملاته كلها على منوالهم وكان يستوحش من أهل الدنيا والأغنياء وأصحاب الهيئات ، يستأنس بطلبة علم الدين كان يحب أن يسافر في القطار بالدرجة الثالثة كل هذا مع أنه كان طبعاً يحب النظافة جداً وكان ذكياً الحس لطيف الذوق كان يحمل عادة في السفر الكافور معه لأنه كان يتأذى من ألبسة الناس الوسخة يرغب الطيب ولا سيما طيب الورد ويحب جداً البساطة ومجالسة البسطاء ومخالطتهم - يبغض طبعاً الترائي في الهيئة والملبس وأصحابها • وينقل كثيراً جداً مقولة الامام الكبير الشيخ قاسم النافوتوي : ان مرحاض عامة الناس أيضاً فيه بركة « أى أن تلك المراحيض التي تصنع للأغنياء والأمراء يهتم فيها بالنظافة والذوق ولكن فيها نحوسة وفساد خلقى بخلاف مراحيض العامة - وحقيقة ذلك أن النفس ترغب التعلّي فهي تشاق الى رفعة نفسها وعظمتها وهذا أصل المعاصي كلها وخسارة الدنيا والآخرة لذا فان أهل الله والسادة الكاملين عندما يرون في شيء ما ولو مقداراً بسيطاً جداً من أمور التعلّي أو الرفعة للنفس فانهم ينظرون اليه نظرة سخط وبغض والذي فيه تذليل للنفس وتحقير ظاهرى لها يحبونه - فان الكثافة المادية والروائح الكريهة الظاهرية لا تعادل شيئاً مقابل الروائح الكريهة المعنوية والكثافة الروحانية - فمراحيض الأغنياء تولد في النفس العجب والرعونة ومراحيض العامة لا تولد هذه الأشياء بل انه بخلافه يرى حقارة النفس ودناءتها ويذكر الناس بنجاستهم وحالتهم الحقيقية ، فاذا كان هذا حال المرحاض فما بالك ببقية الأوضاع والأطوار والمساكن والملابس وغيرها فقسها عليه - كان يقول أيضاً : ان الفقهاء ذكروا أن التوضؤ من الحوض أفضل ويقول الشراح سببه العمل بخلاف المعتزلة - ففيه انكار ورد عليهم ، ولكن لم ينقل عن المعتزلة في أى مكان أنهم أنكروا على التوضؤ من الأحواض والذي أراه أن في هذا العمل اصلاح عظيم للنفس فانه يصعب عليها جداً فشخص يغسل رجليه في نفس الحوض وآخر يغسل يديه منه والثالث يغسل وجهه منه أيضاً وآخر يستنشق ويتمضمض منه وهكذا ، لذا فان أصحاب النفس الأمارّة وأصحاب الأموال من أهل الدنيا يرون فيه تذليلاً وتحقيراً لهم فالغالب أن تكون أفضلية الوضوء من الحوض بسبب ذلك •

وفي الواقع ان هذان « الأستاذ وتلميذه » أعنى حجة الاسلام الامام
الشيخ محمد قاسم النانوتوى وشيخ الهند الشيخ محمود الحسن رحمهما
الله تعالى كانا دائما يبحثان عن كل ما يؤدى الى الخمول والتواضع وتحقير
النفس وتذليلها فيختارونه ويتمسكون به وما رأوه يؤدى الى الكبر وحب
الجاه والشهرة بين الناس والتعاضم والتعالى ابتعدوا عنه وهربوا منه - ثم
لم يكونوا على الطريقة الشائعة يجتهدون فى أساليب التواضع الظاهرة
باللسان والقلم فقط فان أكثرنا يكتب ويقول عن نفسه أنه أفقر الخلق
وأحق العباد وأدنى الخلائق وأنه لا يساوى شيئا وأنه كذا وكذا ولكن كل
هذه عامة تكون رياء وتفاقا فالقلب يكون بريئا من كل هذه الأقاويل
وبعيدا عن هذه الأحاسيس انما تفكر فى قلوبنا بأننا : نحن ما نحن - لذلك
تكون الغيبة واتهام الآخرين وتنقيصهم وهتك أعراضهم ولا يكتفى فى
ذلك بالمعاصرين وانما لو بلغنا عن السابقين محاسنهم ومعاليهم فان ذلك
أيضا يوقد نيران الحسد فى قلوبنا ثم نجتهد فى كل من تكون له منزلة بين
الناس أن نذله ونخطط ونجتهد للاحباط به وان وصفنا أحد بالجهل أو
الحمق أو سبنا بأسماء أحد الحيوانات كحمار أو كلب أو نحوه فلا تسأل عن
غضبنا ومن يملك زمامنا حينذاك مع أننا أدنى الخلائق فان كنا صادقين فى
القول فلماذا الغضب على تسميتنا بالحمار أو الكلب فانها أيضا من
الخلائق التى نحن أدناها وأصغرها ، فقط •

أما أنا فقد جربت هذا مئات المرات بأنه ما من مرة يخطر بالبال فقط
(وليس على اللسان) شئ فيه كبر أو عجب الا وظهرت تتيجه السيئة •

ان اضراب عام ١٣٨٢ هـ بمظاهر العلوم جعل هذا الحقير غير راغب
الى التعلم والتدريس بل وكأنى تركت التدريس بعده • فى هذا الاضراب
واجهنا من قبل المفسدين وأهل الفتنة الكذب والغدر والحلف الكاذب
وأشياء كثيرة جدا ولكن حسب عادتي الدائمة ما زلت أفكر بمقتضى قوله
تعالى « ما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم » وأتمحض الأحوال -
ومهما كانت الأسباب الظاهرة لهذا الاضراب ولكن على قول سيدنا خالد
ابن الوليد رضى الله عنه « ان البلاء موكل بالمنطق » ظهرت عدة أشياء
بعد الملاحظة : -

١ - قبل أسبوع تقريبا من بداية الاضراب ذكر في درس أحد مدرسينا اضراب بعض المدارس الأخرى فتحس هذا المدرس وقال مفتخرا « ان مظاهر العلوم لا تكون فيها اضرابات » .

٢ - بداية هذا الحادث كان من العمارة الفرعية حيث أن أحد الكفار أشار على طالب مبعد من المدرسة : أنكم لو تعاونتم واتفقتم على أمر فلا يمكن لإدارة المدرسة أن تعمل أى شئ ضدكم - فجاء هذا الطالب ليلا بعد قفل البوابة وجمع الطلبة وخطب فيهم وأظهر لهم مظلوميته وعجزه - وفي الصباح بلغنى خبره فطلبت المسئول بالعمارة الفرعية وأخبرته بما حصل فقال هذا المسئول : يا سيدى لا تخشى شيئا انه لا يستطيع عمل أى شئ . وأنا الآن أذهب وأدبر حاله - وقد أردت أن أفهمه وأؤكد عليه ولكنه كان متحمسا جدا لرأيه ومطمئنا .

٣ - عندما استمر هذا الحادث وطالت مدته وانتقلت عدواه الى مظاهر العلوم « -الأم » وجلس أهل الشورى للتشاور عندئذ قال هذا العاجز لهم بقوة : لم يشترك فى هذا الاضراب أحد من طلبة الدورة أى « دورة الحديث الشريف » - فقال نائب مدير التعليم بالمدرسة المرحوم الشيخ عبد المجيد بصوت خفى : بلى يا سيدى يوجد بعض الطلبة من الدورة أيضا - فرد عليه هذا الأحمق بشدة : - انه لا يمكن أبدا أن يكون أحد من أهل الدورة اشترك معهم .

ولكن ثبت بعد التحقيق أنه لم يبق من أهل الدورة أحد الا نادرا - ومما زاد الحيرة والأسف أن أحد المخلصين الى وكان يظهر مودته واخلاصه لى دائما وكان من أخلص خدام سماحة الناظم فى المظاهر كان معنا فى كل شئ وفى الخفاء كان مع المفسدين وكان سبب قولى بقوة أن أهل الدورة لم يشتركوا هو أنى كنت دائما أذكر أهل الدورة فى أثناء درس الحديث الشريف عن مقامهم العالى وأنهم نواب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيكونون فى المستقبل أسوة للقوم وفى هذه السنة بالذات كنت أزيد لهم من هذه المواعظ والنصائح فكنت أظن لحمقى أن هذه الكلمات تكون فد

أثرت فيهم فلا يمكن أن يشتركوا في مثل هذا الفساد ولكن عندما رأيت ما ذهبوا إليه أخذت أردد قول الشاعر : بالأردو ، ما ترجمته : -

« لماذا لا يبكى ذاك المحروم ويرفع طرفه الى السماء الذي يرى في كل مقام أن جهده قد ضاع هباء منثورا » •

حتى الآن عندما أتصور ذاك المنظر يتضح لى عجزى وقصورى فأننى لو كنت متزينا بالاخلاص لأثر فيهم كلامى •

قبل هذا الحادث « الاضراب » كنت عندما أسمع عن اضرابات بعض المدارس الأخرى وتبلغنى من أفواه الطلبة مظالم الادارة عليهم كنت دائما في جهة الطلبة ولكن المناظر التى رأيتها بأم عيني في هذه السنة جعلتنى بعدها كلما بلغنى عن اضراب مدرسة ما تكون عواطفى مع أهل المدرسة وأرى أن الظلم أصلا من الطلبة - فالى الله المشتكى وهو المستعان •

وثبت هذا المنظر في جذر القلب نجانى الله والجميع منه أن الكبر أم الأمراض ويسقط الكبراء من العلو وقد رأينا كثيرا من مشايخ السلوك يسقطون بسبب هذا المرض •

وقصة الشيخ أبى عبد الله الأندلسى من القصص التى رسخت في قلبى وثبتت بحيث أنها تأتى دائما على رأس القلم بدون قصد منى وأود لو أنها هكذا تكون راسخة في قلب كل من له أدنى علاقة بالسلوك والتصوف والقصة ملخصها أن أحد المشايخ الكبار في عهد الشبلى رحمه الله خرج في مريديه وتحيط بهم الخيرات والرحمات ومروا في أثناء رحلتهم على قرية يسكنها النصارى وحان وقت الصلاة ولم يجدوا في القرية ماء حتى وصلوا الى مشارف القرية ورأوا هناك بئرا وقفت عليه بعض الفتيات ووقع بصر الشيخ أبو عبد الله على احدى الفتيات وبدأ وجهه يتغير ثم جلس في مكانه وجلس المريدون كلهم من حوله ومكثوا كذلك ثلاثة أيام والشيخ لا يذوق طعاما ولا شرابا ولا يكلم أحدا وفي اليوم الثالث سأله الشبلى عن حاله فأجاب الشيخ وكله حسرة وألم : يا أعزائى الى متى أخفى عليكم أمرى - ان الفتاة التى رأيتها قبل ثلاثة أيام قد تسلط على حبها حتى أنى لا أستطيع

الحراك من مقامى هذا فاذهبوا أتمم واتركونى هنا - قال الشبلى فحاولنا أن نأخذه معنا ولكنه أبى - وبكى مريدوه ورجعنا جميعا الى بغداد وحينما وصلنا اليها وأخبرنا الناس بحكاية الشيخ لم يكذبنا أحد - يقول الشبلى وبعد سنة كاملة خرجت مع بعض رفاقى الى تلك القرية لنستعلم أحوال الشيخ وسألنا أهل القرية وأخبرونا أنه هناك فى البرية يرعى الخنازير ، فصعقنا له • وسألنا عن السبب ؟ فقالوا : انه خطب ابنة سيد القرية فاشترط أن يرعى الخنازير فقبل الشيخ الشرط • • فذهبنا الى حيث كان الشيخ ووجدناه وعلى رأسه قلنسوة النصارى وعليه الزنار متكئا على عصاه التى كان يتكىء عليها عند الخطبة وأمامه الخنازير ، وعندما انتبه لنا أرخى بصره - وعندما اقتربنا منه سلمنا عليه فقال بصوت منخفض : وعليكم السلام • فقلت له : أيها الشيخ الكريم ما هذا الذى نراه مع العلم والفضل ومعارف التفسير والحديث التى تتحلى بها ؟ فأجاب : يا اخوانى فعل الله بى ما أراد يبعد من يشاء ويقرب من رحمته من يشاء - فلا راد لقضائه - يا أجبابى اتقوا الله من غضبه وعذابه ولا تغتروا بعلومكم ومعارفكم فان الأمر بيده وحده • ثم رفع بصره الى السماء وقال : يا مولاي لم أكن أظن بك أن تذلنى وتبعدنى هكذا عن بابك • ثم صار يستغيث بالله ويدعوه ويبكى بهرارة • ثم قال : يا شبلى اعتبر بغيرك • فبكيت وقلت اللهم انا نستغيث بك ونستعينك وتتوكل عليك نسألك أن تذهب عنا هذه المصيبة - قال ثم تركنا الشيخ مكانه وأخذنا فى الرجوع الى بغداد • • وفى الطريق فى مقام وجدنا الشيخ أمامنا يخرج من عين ماء جارية مغتسلا ورافعا صوته بالشهادتين يقول أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله - فلا يقدر فرحنا من لم يعلم بمصائبنا • ثم سألنا الشيخ عما حدث فقال : اننا عندما مررنا بتلك القرية ووجدنا كنائس النصارى ومعابدهم كبرت نفسى وقلت : انى مؤمن وموحد ، وأما هؤلاء فانهم حمقى لا يعرفون الله عز وجل ولا دينه الحق ، فسمعت حينئذ هاتفا غيبيا يقول : ان هذا الايمان ليس منك انما هو بفضلنا وارادتنا وتوفيقنا وان أردت فسنريك قدرك « اه مختصرا •

وكان مقصودي من القصة هذا الجزء الأخير والا فالقصة بتفاصيلها
قد ذكرتها في (مذكراتي الشخصية) ونقل عنها العزيز محمد اقبال في
رسالته (سلوك الأكابر) وكان الحكيم محمد الياس السهارنبوري قد
أفرد لها بالطبع في رسالة مستقلة .

فهذا الكبر ما أدهاه وما أخطره من أين رفع شيخ المشايخ وأين
أوصله ، فما نحن ؟ أعاذني الله والجميع بمحض فضله وكرمه من هذا
المرض الخبيث والداء المميت والله سبحانه المستعان وعليه التكلان وحده .

اساءة الأدب مع الأكابر

الموضوع الأخير وهو أهم الأمور وأخطرها وأفظعها ألا وهو « اساءة الأدب مع الأكابر » سواء كانوا من السادة العلماء أو المحدثين الأفاضل أو الفقهاء الكرام أو الصوفية العظام - وقد قال الله تعالى جل شأنه « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا - ذلك الفوز العظيم » .

ونقل صاحب الدر المنثور عدة روايات وآثار في تفسير هذه الآية وفيها أيضا عن الامام الأوزاعي أنه أخبره يحيى بن كثير والقاسم ومكحول وعبد بن أبي لبابة وحسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة كبيرة من الصحابة رضى الله عنهم قالوا لما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : انها لأمتي .

فهذه الآية تشمل السادة الصوفية أيضا الذين هم مصداق الاحسان في الحديث كما سبق « وقد مر الكلام على هذا بالتفصيل في رسالتي « الاعتدال » ومنه أنقل هنا مختصرا - « ان هؤلاء الحمقى الذين جعلوا نصب أعينهم احتقار العلماء وتذليلهم ويفتخرون بايذائهم والنيل منهم هؤلاء يجب عليهم أن يعلموا أنهم وعلى كل حال سيخسرون في هذه الصفقة أكثر من العلماء - اذ أن أكثر ما سيضروا العلماء به هو أن ينقصوا شيئا من دنياهم أو يقللوا من عزتهم وجاههم الزائل وهذا أيضا بشرط أن يكون في يدهم من تغيير القدر شيئا » ولكنهم المساكين يهلكون أنفسهم ويتضررون بسبب عملهم من حيث الدنيا والآخرة كليهما .

« يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا ولم يعرف لعالمنا » وبعد هذا القرار النبوي ان ادعى الذين يسبون العلماء على العموم أنهم من الأمة المحمدية فليدعوا ولكن صاحب الأمة يرفضهم ولا يرضى بشمولهم .

« ويقول صلى الله عليه وسلم حملة القرآن أولياء الله من عاداهم فقد عادى الله ومن والاهم فقد والى الله » •

وقد بسط الامام النووي في شرح المذهب في هذا البحث ونقل عنه صلى الله عليه وسلم قوله ، كما رواه البخارى : يقول الله عز وجل من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وذكر أن الخطيب البغدادي نقل عن الامام أبى حنيفة والامام الشافعى رضى الله عنهما أنه ان لم يكن الفقهاء (العلماء) من أولياء الله فليس هناك ولى لله — ويقول حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : من آذى فقيها (عالما) فقد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد آذى الله •

يقول الحافظ أبو القاسم ابن عساكر رحمه الله : يا أخى اعلم وفقنى الله وإياك لأسباب مرضاته وجعلنا ممن يخافه ويتقيه كما ينبغى ان لحوم العلماء مسمومة وسنة الله معلومة فى هتك أعراض من أساء اليهم ومن أهانهم أذله الله ومن أعابهم أمات الله قلبه •

ويقول الشيخ عبد الحى اللىكنوى فى فتاواه : اذا كان المقصود سبهم وتنقيصهم للعلم والعلماء بسبب العلم فإن الفقهاء يفتون بكفرهم ، وان كان بسبب آخر فأىضا لا أقل من الفسق والفجور ولا شك فى غضب الله عليهم واستحقاقهم العذاب فى الآخرة) •

وقد بسطت فى الاعتدال الكلام على هذا وأيدته بكلام السادة العلماء بعد تأييده بالآيات القرآنية والروايات الحديثية فمن وجد فراغا من الشواغل الدنياوية ولم يظن أن هذه الأشياء عبث فأرجو أن يلاحظها بأمعان كان أحد خدام الامام الكبير الشيخ الكنكوهى قدس سره يحصل له كشف القبور كثيرا • عندما توفى والدى أتانى لتعزيتى وذهب الى المقبرة وجلس هناك مدة طويلة ثم أتانى وبلغنى عن والدى ثلاثة رسائل : —

١ — لم أطالب من ناحية الدين بشيء فلا تهتم • وذلك ان والدى رحمه الله عندما توفى كان مدينا عليه بحوالى ثمانية آلاف روية وكنت مهسوما

جدا لذلك فكتبت الى جميع الدائنين في اليوم الثاني من الوفاة بعد
الاستشارة مع عمى الشيخ محمد الياس رسائل الى جميع الدائنين بأن
والدى قد توفي فما كان لكم من دين عليه حولوه على فانى أصبحت من
الآن مدين لكم به .

وكان سيدى الشيخ خليل أحمد حينئذ عند رجوعه من الحجاز فى سجن
الانجليز لأن سفرته هذه كانت مع شيخ الهند مولانا محمود الحسن وقد
أقاما سويا بالحجاز لمدة سنة - فعندما خرج من السجن لم يستحسن هذا
الرأى وقال : بل كان المفروض أن تكتب اليهم « انه ترك هذه الكتب » فى
المكتبة فتعالوا وخذوا منها مقدار قرضكم » .

٢ - بلغنى أن لا تهتم من ناحية .. فلان .. فان ما عمله لم يؤثر على
وانما أساء هو الى نفسه - وهذا الشخص كان يبغض والدى ويعانده
وينتقده فى كل شىء - وأنا بعد وفاة والدى كنت أهتم كثيرا بشكاوية
وعداوته لى أيضا - وقد رأيت أثر هذه الرسالة الثانية بنفسى أن هذا
الشخص عوتب من قبل شيخنا وأبعد عن المدرسة .

٣ - والرسالة الثالثة كانت انه يجب أن تخشى دائما أهل الله وتخافهم
- فان هؤلاء حتى عوجهم يكون عدلا . وكنت حينئذ صغير السن وأطلب
العلم فلم أستطع فهم هذه العبارة ولم تقبله فطرتى فان المعوج على كل حال
معوج سواء كان من قبل رجل من أهل الله أو رجل من أهل الدنيا -
وقد تفكرت كثيرا لأفهم المراد من هذه الرسالة فلم أستطع وبعد عشر
سنوات عام ١٣٤٥ هـ كانت اقامتى بالمدينة المنورة بسبب بذل المجهود فى
رحاب شيخنا - وكان بعضهم يكتب الى سيدى شكاوى منها صادقة ومنها
كاذبة عن ناظم المدرسة وبما أنى كنت أعرف هذا الرجل شخصيا لذلك كان
يراسلنى مباشرة أيضا وكنت عند الكتابة لسيدى أرد على شكاوى هذا
الشخص وأدافع عن الشيخ الناظم وأحيانا أتجراً أكثر فأرد عليه بشدة -
وعندما كان الرجوع فى ذى القعدة عام ١٣٤٥ هـ من الحجاز وكان معى
الشيخ عبد القادر الرائى بورى أيضا فى هذا الرجوع فأرسل سيدى رسالة
شفوية الى الشيخ الناظم بواسطة مولانا الشيخ عبد القادر بأن يبلغه : أن
معاملتك مع فلان ليست بحسنة فعامله بأسلوب حسن .

ومولانا الشيخ عبد القادر بلغ هذه الرسالة أمامي الى الشيخ الناظم عند وصولنا لسهارنبور فقال الشيخ الناظم انه يكتب الى سيدنا الشيخ أنباء كاذبة وقال أيضا فيه أشياء بدون مبالاة فرأيت أن وجه الشيخ عبد القادر قد تغير لذلك - ثم سألت الشيخ الجليل في انفراد بأنه قبل احدى عشر سنة بلغتني رسالة والدي فمكثت أتكلم فيها والآن عندما رأيت تغير وجهك تذكرت نفس الأمر اذ أن الشيخ الناظم قد صدق في قوله ان ذاك الشخص يتقول الأكاذيب ولكن تأثرك ذكرني بتلك القضية القديمة فقال الشيخ الكريم مولانا عبد القادر الرائبوري « ان اشكالك صحيح فالباطل باطل على كل حال ولكن أولياء الله هؤلاء ان تكدرت قلوبهم ولو بسبب الشكاوى الكاذبة فان هذا التكدر لا بد وأن يأتي بنتيجة » وبعدها كم مرت على تجارب من ذاك النوع فحقا ان تأثر هؤلاء الأولياء المتقين وتكدر قلوبهم نحو شخص - يوقعه في مصايب ودواهي عظيمة - فصرت أخاف في الأمر وأنصح أحبابي بأن لا تغتروا أنكم على الحق وانما مع ذلك احرصوا على ارضاء هؤلاء المتقنين في رضاء الله ومحبته أيضا فحاولوا بقدر الاستطاعة دائما أن تكون قلوبهم صافية نقية من قبلكم .

وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية حديث : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وقال انه أحسن حديث في الباب وذكر روايات أخرى أيضا في نفس المعنى ثم قال وذلك لأن هؤلاء الأولياء آمنوا بالله ووالوه . ويحبون ما أحبه الله ويبغون ما أبغضه الله ورضوا عما رضى الله عنه وسخطوا على من سخط الله عليه وأمروا بما أمر الله به ونهوا عما نهى عنه .

ويقول الامام الكنكوهي نور الله مرقدہ : ان الذين يهينون العلماء ويطعنون فيهم ويسئون اليهم هؤلاء تحول وجوههم عن القبلة في القبور ومن شاء فليتحقق « الأرواح الثلاثة » ص ٣٦٠ .

وقد بسطت الكلام في الاعتدال في هذا المقام أيضا وفيه ان قوله تعالى « من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب » قد ذكره البخاري في صحيحه

عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه مرفوعا ثم قد روى أيضا عن عائشة وميمونة ومعاذ وأنس وأبي أمامة رضى الله عنهم بألفاظ مختلفة •

وروى عن وهب بن منبه أنه رأى فى زبور داود عليه السلام يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى من أهان لى ولما فقد بارزنى بالمحاربة « كذا فى الدر المنثور •

وهناك روايات كثيرة صرح فيها أن من آذى أو عادى أو أهان أحدا من أولياء الله فإنه قد بارز الله بالمحاربة وأن الله يغضب لهم وينتقم من أصحابها • فانظروا يا أخى هدانى الله وإياك كم هى خطيرة هذه القضية فأى أرض تقله من يبارز الله رب العالمين — ثم وفى جزاء ذلك لو كسرت يد أو رجل أو ذهب سمع وبصر ونحوه من المصائب الدنياوية لكان هينا وسهلا لأن الدنيا على كل حال فانية ويمكن أن يوفق للتوبة ولكن اذا ابتلى بسبب ذلك فى مصيبة دينية عقائدية لا قدر الله فهى الطامة الكبرى •

قالت الأئمة الاعلام : ليس هناك ذنب عبر عنه المولى سبحانه بالمحاربة الا هذا الذنب وأكل الربا •

فعلم أن اثمهما عظيم جدا ويخشى على أصحابها من سوء الختام نسأل الله سبحانه العافية والسلامة من سخطه وعذابه وقد نقل العلامة على القارى فى المرقاة نحو ذلك عن العلماء •

وقد ذكر صاحب مظاهر الحق أيضا أن محاربة الله تعالى لعبده تدل على سوء خاتمته — ان حسن الختام بالنسبة للمؤمن أمر عظيم ونعمة لا تضاهى فالشئ الذى يخشى منه أن يؤثر فى سوء الختام فيما أكبر خطره وما أعظم شأنه وما أحرانا أن نتحاشاه ونجتنب عنه ؟ •

وقال الشيخ أحمد فى جامع الأصول « ان الانكار على السادة الصوفية الذين يتبعون السنة ويقمعون البدعة وخصوصا المتحلين منهم بالعلم النافع والعمل الصالح والحاملين للمعارف والأسرار الربانية الانكار عليهم سم قاتل ومهلكة ورد الوعيد الشديد فى النهى عنه وهو أمر خطير

دليل على أن في القلب أعراض عن ذات الله عز وجل وأنه ملىء
بالأمراض يخشى عليه من سوء الختام ، والعياذ بالله •

وذكر العلامة الشعراني في الطبقات الكبرى عن الامام أبي تراب
النخشبى وهو من كبار مشايخ الصوفية وغيره : اذا استأنس قلب المرء
بالاعراض عن الله ابتلى بالاعتراض على أهل الله - وقد بسط فيه المشايخ
في مقامه - ومحبة أهل الله وخاصته هو الأكسير الأعظم وعداوتهم سم قاتل
وفقنى الله سبحانه وتعالى بفضلته وكرمه وجميع المسلمين لما يحبه ويرضاه
ورزقنا حبه وحب رسوله صلى الله عليه وسلم وحب من يحبه • آمين •

وقد بسطت الكلام في (الاعتدال) فارجع اليه فانه مهم ومفيد جدا -
ولى نصيحة أنصح بها أحبابى جميعا وأحاول العمل بمقتضاها دائما وهى
أن شعب الدين كثيرة ويصعب على كل أحد العمل بها جميعها فمثلا يكون
محدثا وفقهيا ومجاهدا وصاحب تقوى وورع وصاحب عبادة كثيرة
وصاحب صيام وصدقة ونسك الخ الخ • ومن الصعب جدا أن يتمكن
شخص من كل تلك الشعب حق التمكن ولكن لو بحث المرء عن الكاملين
والمتمكنين فى كل شعبة من هذه الشعب وأحبهم محبة خاصة فعلى قاعدة
« المرء مع من أحب » يرجى ان شاء الله أن يحصل له حظ وافر من شعبهم
كلها •

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد
المرسلين وخاتم النبيين وحبيب رب العالمين وعلى آله وأصحابه وأتباعه
أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين •

قيل المغرب يوم الجمعة احدى عشر جمادى الأولى سنة ١٣٩٧ هـ فى
مسجد النبى الكريم صلى الله تعالى على صاحبه أفضل الصلاة والتسليم •

محمد زكريا (عفى عنه)